

الفرق بين
حبي

تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصادق

انتشارات فرهنگ اسلامي

سماعة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفروق في تفسير القرآن بالقرآن والسنة

سورة العنكبوت سورة الزمر سورة لقمان
سورة السجدة

دار الفوائد الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع
مبهرات - لبنان

مكتبة الحقوق ٢ مجموعة ومكتبة

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي



مرکز تحقیق کتب و علوم اسلامی

الفروغ

۲۰-۲۱



مركز تحقيق كالمبيوتر علوم اسلامي

الكتاب	الفرقان في تفسير القرآن
المؤلف	الشيخ الدكتور محمد الصادق
الجزء	العشرون والحادي والعشرون سورة العنكبوت - الروم - لقمان
الطبعة	الثانية
المطبعة	مطبعة اساعيليان - قم
الناشر	انتشارات فرهنگ اسلامي - قم تلفن ۳۴۳۰۵

سنة الطبع ۱۳۶۵ ش

عدد المطبوع ۳۰۰۰





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا
وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۖ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۖ
أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ
مَا يَحْكُمُونَ ۖ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ
لَهُ لَاحَةً وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۖ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ
لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ

بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
 عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكَ فَانْتَظِرْ كَمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ
 فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ
 فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ
 جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ
 اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَاهُمْ بِحَامِلِينَ
 مِن خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ
 أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا
 كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

سورة ممتاسكة الآيات بدء ختم ، قهرمانتها المسماة هي باسمها
 « المنكبت » وهي اضعف حشرة نعرفها ولا سيما في بيتها التي هي أو هن

سورة العنكبوت / آية ١ - ١٣ ٩

البيوت ، تدليلاً على أن بيت الإشراك بالله والإلحاد في الله هو أهون من بيت العنكبوت « لو كانوا يعلمون » .

ملامح السورة ومصارحها بمسارحها تشهد أنها مدنية كلها ، والجهاد لا تختص بالقتال حتى تتخذ آياته فيها دليل أنها مدنية - فإن المؤمن حياته الجهاد كما تقتضيه ظروفه - فإنما الدلالة الجامعة من جو السورة أنها نزلت في غضون الهجرة وهي أخرج الحالات للنبي والذين آمنوا معه .

تتخلل السورة من مطلعها إلى ختامها إيقاعات عميقة المدى ، قوية الصدى حول حق الإيمان ، وباطل الكفر ، مما تهز الإنسان هزاً وتفززه فزاً ابتلاء صارماً أمام تكاليف الإيمان وقضاياه ورزاياه وعقباته الكثودة الملتوية من المتربصين دوائر السوء ضده وضد كتلة الإيمان .

فقد ابتدأت بإيقاعة ما أقواها : « أحسب الناس أن يتركوا . . » واختتمت بما يقضي على كل العراقيل في سبيل الله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » وبينهما عرض لمصارع المجاهدين والجاحدين - واين مصارع من مصارع - ؟ وعرض لما يتوجب على كتلة الإيمان أمام كتلة الكفر والنكران .

لقد سبق في أخريات القصص وعدُّ رده (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى معادة ، وأمره (صلى الله عليه وآله وسلم) بالصمود في الدعوة سلباً وإيجاباً ، مما قد يبهج سواذج المؤمنين ، فهنا العنكبوت تُحمّلهم شاقة التكاليف في هذه السبيل الشاقة الطويلة ، بينهم وبين فتح مكة ، في عشرة كاملة ، ومن ثم إلى يوم الرجعة وإلى يوم القيامة الكبرى أن نعيش حياة الجهاد في سبيل الله صامدين غير خامدين .

﴿ آلم ﴾

وهذه مكرورة مرات خمس ، مرة يتيمة في مدنية : البقرة ، وأربعاً في

مكيات اربع ، قد تكون هذه أخرها ، والباقية هي الروم ولقمان والسجدة .

وقد تربط « الم » العنكبوت وهي المكية الأخيرة ، بـ « الم » البقرة وهي المدنية الأولى ، تترابطان هما بمشترك الحروف الرمزية هذه ، بتقارب الجوين ، على تغارب البلدين : مكة والمدينة ، وإلى مَ ترمز « الم » هنا وهناك وفي الثلاثة الأخرى ؟ ما ندري إلا ما يُدرينا الله ، وَمَنْ هم المرموز اليهم فيها وسواها من مفاتيح كنوز القرآن .

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾^(١) .

إنه لحسبان جاهل قاحل ، ان القول « آمنا » يؤمنهم عن كل العقبات والعقوبات ، بل هم - بمراتبهم - يفتنون ، فتنة الذهب بالنار ، وإنها فتنة للمؤمنين على طول الخط ، في الزمن الرسولي والرسالي على مختلف الظروف ، وهي « الفتنة في الدين » ، يفتنون كما يفتن الذهب ، يخلصون كما يخلص الذهب^(٢) من فتن عقائدية وثقافية وسياسية واخلاقية واقتصادية اماهيه من فتن هي كلها داخلة في نطاق الدين ، المحلق على كل الحقل الحيوية ، فلقد فُتِن المؤمنون في العهد المكي بأحرج الفتن ، وعُذِّبوا بأشد العذاب ، « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد »^(٣) .

(١) نور الثقلين ٤ : ١٤٨ في اصول الكافي عدة من اصحابنا عن احمد بن محمد عن معمر بن خلاد قال : سمعت ابا الحسن (عليه السلام) يقول « الم احسب الناس . . » ثم قال لي : ما الفتنة ؟ قلت : جعلت فداك الفتنة في الدين ، فقال : يفتنون . .

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٤١ - اخرج ابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عبدالله بن عبيد بن عمير قال : نزلت في عمار بن ياسر يعذب في الله « احسب الناس . » وفيه اخرج ابن المنذر عن ابن جريح قال سمعت ابن عمير وغيره يقولون : كان ابو جهل

وكما فتنوا في العهد المدني بغزوات وبكتلة النفاق ، ثم فتنوا برحلة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في قصة الخلافة الخلاعة ، ولقد جاء العباس إلى امير المؤمنين (عليه السلام) فقال انطلق بنا نباع لك الناس ، فقال (عليه السلام) أوتراهم فاعلون ؟ قال : نعم - قال : فاين قوله عز وجل : « الم احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا . . . وليعلمن الكاذبين »^(١) ومن اشد الفتنه ما حصلت وتحصل بعد رسول الله (صلى الله

لعه الله يعذب عمار بن ياسر واهله ويجعل على عمار درعاً من حديد في اليوم الصائف وطعن في حيا أمه برمح فقي ذلك نزلت هذه الآية ، وفيه اخراج ابن ماجه وابن مردويه عن ابن مسعود قال : أول من اظهر اسلامه سبعة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وابو بكر وسمية ام عمار وعمار وصهيب وبلال والمقداد فاما رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فممنعه الله بعمه ابي طالب واما ابو بكر فممنعه الله بقومه واما سائرهم فأخذهم المشركون فالبسوهم درع الحديد وصهروههم في الشمس فما منهم احد إلا وقد أتاهاهم على ما ارادوا إلا بلالاً فانه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذوه فاعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول أحد أحد .

اقول : تركهم هنا علياً (عليه السلام) وهو أول من اسلم خيانة تاريخية ، ثم اتاهم على ما ارادوا « تعني العقبة حتى لا يقتلوا وكان الفوز بينهم لبلال ! .

(١) نور الثقلين ٤ : ١٤٧ في تفسير القمي حدثني ابي عن محمد بن الفضيل عن ابي الحسن (عليه السلام) قال : . . . وفي مجمع البيان عند قوله تعالى « او يلبسكم شيعاً » وفي تفسير الكلبي انه لما نزلت هذه الآية قام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فتوضأ وأسبغ ثم قام وصلى فأحسن صلاته ثم سأل الله سبحانه ان لا يبعث عذاباً من فرقهم أو من تحت أرجلهم أو يلبسهم شيعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض فنزل جبرئيل (عليه السلام) ولم يجبرهم من الخصلتين الأخيرتين فقال (عليه السلام) : يا جبرئيل ما بقاء امتي مع قتل بعضهم بعضاً ؟ فقام وعاد إلى الدعاء فنزل : « الم احسب الناس . . . » الآية فقال لا بد من فتنة تبلى بها الأمة بعد نبيها لبتعين الصادق من الكاذب لأن الوحي انقطع وبقي السيف واقتراق الكلمة الى يوم القيامة .

عليه وآله وسلم) حول قيادة الأمة الإسلامية وإمارتها : كما و« قام إليه (عليه السلام) رجل فقال : اخبرنا عن الفتنة وهل سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عنها ؟ فقال : لما انزل الله سبحانه قوله « ألم احسب الناس ... » علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله بين أظهرنا ، فقلت : يا رسول الله ما هذه الفتنة التي اخبرك الله بها ؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا علي ! إن امتي سيفتنون من بعدي ، فقلت : يا رسول الله أوليس قد قلت لي يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وأحيزت عني الشهادة فشئ ذلك عليّ فقلت لي : أبشر فإن الشهادة من ورائك ، فقال لي : إن ذلك لكذلك فكيف صبرك إذا ؟ فقلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس هذا من مواطن الصبر ، ولكن من مواطن البشري والشكر ، وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا علي ! سيفتنون بعدي بأموالهم ويمنون بدينهم على ربهم ، ويتمنون رحمة ويأمنون سطوته ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية ، فيستحلون الخمر بالنيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع ، قلت : يا رسول الله فبأي المنازل انزلهم عند ذلك ، أمبئزلة ردة أم بمئزلة فتنة ؟ قال : بمئزلة فتنة « (١) .

وفي ارشاد المفيد وقد جاءت الرواية انه لما تم لأبي بكر ما تم وبايعه من بايعه جاء رجل الى امير المؤمنين (عليه السلام) وهو يسوي قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بمسحاة في يده وقال له : ان القوم قد بايعوا ابا بكر ووقعت الخذلة في الأنصار لاختلافهم وبدر الطلقاء للمقد للرجل خوفاً من ادراككم الأمر ؟ فوضع طرف المسحاة على الأرض ويده عليها ثم قال : بسم الله الرحمن الرحيم « ألم احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان سبقونا سوء ما يحكمون » .

(١) نور الثقلين ٤ : ١٤٨ في نهج البلاغة وقام اليه ... وفي ملحقات احقاق الحق : قال

وفي التوقيع الشريف عن صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه ..
وأنا اعوذ بالله من العمى بعد الجلاء ومن الضلالة بعد الهدى ومن موبقات
الأعمال ومُرديات الفتن ، وإنه عز وجل يقول : « الم . احسب
الناس ... » كيف يتساقطون في الفتنة ، ويتدردون في الحيرة ، ويأخذون
يميناً وشمالاً ، فارقوا دينهم أم ارتابوا أم عاندوا الحق أم جهلوا لما جاءت به
الروايات الصادقة والأخبار الصحيحة وعلموا فتناسوا ... » (١) !

ليس القول « آمنا » سياجاً مُطمئناً عما تطرأ من فتن ، حتى ولا حق
الايان ، فقد يُفتن المؤمن ليبرز صدقه في دعواه أو كذبه ، وأخرى ليتكامل
في حظيرة الايمان ، وثالثة هي طبيعة الحال لكتلة الايمان حيث العقبات من
الكتلة الأخرى ضدهم دائبة ، فهم إذاً في مثلث الفتنة .
فليس الايمان كلمة تقال ، فانما هي تعبيرة عنه صادقة ام كاذبة ، بل

مركز تحقيق كامبيز علوم اسلامی

علي (عليه السلام) يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما هذه الفتنة ؟ قال يا علي
بك وأنت مخاصم فاعتد للخصومة ، ذكره الحافظ ابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة
٩٣ ، وذكره المير محمد صالح الكشفي في مناقب مرتضوي ٦١ قال روي عن علي
(عليه السلام) في الآية قال سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بم يفتنون ؟
قال : بتصديق ولايتك .

(١) المصدر في كتاب كمال الدين ونظام النعمة توقيع من صاحب الزمان (عج) كان خرج
إلى العمري وابنه رضي الله عنهما رواه سعد بن عبد الله قال الشيخ ابو جعفر وجدت ثبناً
بخط سعد بن عبد الله رحمه الله : « وفقكما الله وثبتكما على دينه واسعدكما مرضاته ، انتهى
الينا بما ذكرتما ان المسمى اخبركما عن المختار ومناظرته من لقي واحتجابه بانه لا خلف
غير جعفر بن علي وتصديقه وفهمت جميع ما كتبنا به مما قال اصحابكم عنه وانا اعوذ
بالله ..

هو حقيقة ذات تكاليف وذات أعباء ومشاق لا يتحملها إلا قليل^(١) حين يتمحلها كثير ، ويا ويلها من فتن لا تقوم لها قائمة كفتنة الأحياء والأهلين إذ يهتفون به ليسالم أو ليستسلم أمام الباطل حفاظاً عليهم ، هتافاً باسم الله في الرحم ، ومن أبرزها الفتنة مع الوالدين كما أتت في هذه السورة .

وفتنة إقبال الدنيا على المبطلين ، تهتف لهم الدنيا وتصفق لهم أهلها وهو المؤمن مهمل منكسر لا يحس به من أحد ، ثاوياً في غربته ووحدته بوهدهته ، يرى الذين حوله غارقين في تيه الضلالة وتيار الجهالة .

واعظم من كل الفتن وافتن هي فتنة الإمرة على الأمة والعلو في الأرض ، أعادنا الله من شرها ، ورزقنا خيرها تحقيقاً للحق وإبطالاً للباطل .

فهذه الآية ضابطة عامة للذين قالوا آمنا ، أنهم يُفتنون فيما قالوا على أية حال ، فمنهم ساقطون فيها ومنهم ثابتون ومنهم عوان ، وليست الفتنة فقط ، بعدم المال والحال والمال ، بل هم في وجدها أشد فتنةً وبلاءً : يفتنون بمختلف الأحوال في كل حل وترحال ، بل الحياة الدنيا كلها فتنة وبلاء بخيرها وشرها ، باقبالها وأدبارها ، والإمرة من أشر الفتن وأمرها ! : « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » (١٦٨:٧) « ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون » (٣٥:٢١) فمن الحسنات الخير ما يوافق الطبع ويوافره ، كما من السيئات الشر ما يخالف الطبع وينافره ، وفي كل سقوط ونجاح ، فالأول من السيئات الشر بوجه آخر مهما وافق الطبع ، والثاني كذلك

(١) نور الثقلين ٤ : ١٥٠ عن ارشاد المفيد عن الفضل بن شاذان عن احمد بن محمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال : لا يكون ما تمجدون اليه اعناقكم حتى تميزوا وتمحصوا ولا يبقى منكم إلا القليل ثم قرء الآية ثم قال : ان من علامات الفرج حدث يكون بين المسجدين ويقتل فلان من ولد فلان خمسة عشر كبشاً من العرب .

من الحسنات الخير مهما خالف الطبع ، وأبلى البلاء هو في الموافق للطبع ،
والكل ابتلاء : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي
أكرمني وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانني . كلاً .. »
(٨٩: ١٥) « ولو أراد الله جل ثناءه بأنبياءه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز
الذهبان ومعادن البلدان ومغارس الجنان ، وإن يحشر طير السماء ووحش
الأرض معهم لفعل ، ولو فعل لسقط البلاء ، وبطل الجزاء ، واضمحل
الابتلاء ، ولما وجب للقائلين اجر المبشرين ، ولا لحق المؤمنين ثواب
المحسنين ، ولا لزمت الأسماء أهاليها على معنى مبين ، ولذلك لو أنزل الله
من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ، ولو فعل لسقط البلوى عن
الناس أجمعين ، ولكن الله جل ثناءه جعل رسله أولي قوة في عزائم نياتهم ،
وضعفه فيما ترى الأعين من حالاتهم من قناعة تملأ القلوب والعيون غناءه
وخصائصه بملأ الأسماع والأبصار أدائه ، ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام
وعزة لا تضام ومُلْك يمد نحوة أعناق الرجال ويشد إليه عقد الرجال لكان
أهون على الخلق في الاختبار وأبعد لهم في الاستكبار ، ولأمنوا عن رغبة قاهرة
لهم ، أو رهبة مائلة بهم ، فكانت النيات مشتركة والحسنات مقسمة ، ولكن
الله أراد أن يكون الإتياع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة
لأمره والاستسلام إليه أموراً خاصة لا يشوبها من غيرها شائبة ، وكلما كانت
البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء اجزلاً (٧) .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْكَافِرِينَ ۝ ٣ ﴾ .

(١) نور الثقلين ٤ : ١٥٠ في الكافي وروى أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال في خطبة
له :

ليست الفتنة لتختص بكم ، بل هي تحلق على كافة المكلفين منذ البداية وإلى يوم الدين : « ولقد فتنا الذين من قبلكم » طول التاريخ الرسالي دونما استثناء مهما اختلفت صور الفتنة « فليعلمن الله . . » أتراه علماً هو بالطبع بعد جهل ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ! أم ظهوراً لمعلومه لمن لا يعلم ؟ وصيغته الصالحة « فليعلم الذين صدقوا . . » ! ولا يناسب الفصاحة القمة لكتاب البيان ان يعبر عن ذلك بغير تعبيره الفاصح ! ام هي علمه الفعلي دون الفاعلي ، وهو نفس الأمر الخارجي ، فانه من مراتب علمه تعالى ؟ وتعبيره الصحيح - إن صح انه من مراتب علمه - فليحققن الله صدق الصادقين وكذب الكاذبين ! ام هي « فليعلمن » بضم الياء وكسر اللام فيهما من الإعلام^(١) حيث الفتنة تُعلم المجاهيل بواقع الأمر ؟ وهو في نفسه صحيح ولكنه خلاف متواتر القراءة !

انها كما هي بنفس الصيغة المتواترة ، ولكنها من العلم فتحاً : العلامة ، دون العلم^(٢) ومن آياته انفراد المفعول ، وليس مفعول العلم إلا جملة تامة ، و « الذين صدقوا - كما - الكاذبين » ليست تامة ، فقد تعني التأكيد الأكيد للعلامة صدقاً في الصادقين وكذباً في الكاذبين ، ف « لـ » تأكيد أول ، ونون التأكيد ثان ، بهما تتأكد الغاية المقصودة من الفتنة أنها العلامة على الفريقين ، خروجاً عن المساوات في « أن يقولوا آمنا » مواصلة بين القول والعمل للصادقين ، ومفاصلة للكاذبين ، علماً لهم ولسائر المجاهيل الذين لا

(١) في مجمع البيان قرء علي (عليه السلام) « فليعلمن » بضم الياء وكسر اللام فيهما وهو المروي عن جعفر بن محمد ومحمد بن عبد الله بن الحسن .

(٢) وهكذا نرى في عشر أخرى من الآيات انها تعني العلم ومفاعيلها مفردات كقوله تعالى : وما جعلنا القبلة التي كنت عليها لنعلم من ينبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه .

سورة العنكبوت / آية ١ - ١٣ ١٧

يعلمون صدق القول في دعوى الايمان وكذبه فد عند تقلب الأحوال تعرف
جواهر الرجال ! .

ولأن اللّام هنا هي لام القسم فقد تعني « ليعلمن » تأكيد علمه
الصادقين والكاذبين ، إضافة إلى علمه ، فذلك تأكيد أكيد لعلمه وعلمه مهما
دلت وحدة المفعول على أصالة العلم ، فانما عناية العلم ضمن العلم تسمح
لوحدة المفعول .

وهذه بخلاف الآيات التي تجعل العلم غاية الإبتلاء كـ « وليعلم الله من
ينصره ورسله . . . » فانه العلم دون العلم . .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ٤ .

هنالك مهلة ماحلة للذين يعملون السيئات ، يحسبونهم بها سابقين على
الله وعلى أهل الله ، غافلين أو متغافلين أنها إمهال من الله وإمهال بكيد
متين : « وأملئ لهم إن كيدي متين » (١٨٣: ٧) « ولا يحسبن الذين كفروا أنما
نغلي لهم خير لأنفسهم إنما غلي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » (١٧٨: ٣)
وفي ان الإملاء هو من الشيطان ، يمضيه الله بحق الظالمين فيذرهم في
طغيانهم يعمهون ، حيث « الشيطان سؤل لهم وأملئ لهم » (٢٥: ٤٧) فد لا
يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون » (٥٩: ٨) ، كما وذلك الحسبان
الغاوي الخاوي من الشيطان « ساء ما يحكمون » « ان يسبقونا » إذ لا فارق
لنا في ذلك الميدان حتى يكون سباق فيسبقونا أو نسبقهم ، وإنما يصبغهم
الشيطان بما سؤل لهم بهذه العقلية القاحلة ، فحسبوا ان يسبقونا ، وعامل
السيئة لا مفلت ولا سابق، ومن يحسب هذا أو ذاك فقد ساء حكمه وفسد
تقديره واختل تصويره ، وحل تكويره وتكديره . ولأن « أم » منقطعة تعطف
إلى محذوف معروف من الحسابات السيئة ، فقد يكون هو نكران الله ، أو

الإشراك بالله ، أم حسابان جهله عما يعملون ، أم هتك حرمة على حضوره ، أم الأمن من عقابه بعفوا وشفاعة أما هيه من حسابات خاوية ، هي التي تسمح لهم ان يعملوا السيآت « أم ان يسبقونا » .

فهى - إذا - تشمل كل هؤلاء « الذين يعملون السيآت » دون اختصاص ، مهما اختلفت دركاتهما ، فاختلفت التهديدات بهم والتنديدات .
وعمل السيآت - ككل - ناتج عن البعد عن الله ، في أية دركة من دركاته ، كما أن لقاء الله درجات :

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .
« لقاء الله » وما أدراك ما « لقاء الله » ؟ هل هو الإتصال بالله دون أي حجاب حتى حجاب الذات ؟ ولا يتيسر لأحد ممن سوى الله حتى أول العابدين وأفضل العارفين وكما قال : ما عبدناك حق عبادتك ولا عرفناك حق معرفتك !

أم هو لقاء ثوابه - فقط - ورحمته هنا وفي الآخرة (١) ؟ وتعبيره الصحيح « ثواب الله » أم « لقاء ربه » (١٨ : ١١٠) أم « لقاء الآخرة »

(١) نور الثقلين ٤ : ١٥٣ في كتاب التوحيد حديث طويل عن علي (عليه السلام) يقول فيه - وقد سأله رجل عما اشبه عليه من الآيات : وقوله : من كان يرجو لقاء الله فإن اجل الله لآت ، يعني بقوله : من كان يؤمن بانه مبعوث فان وعد الله لآت من الثواب والعقاب فاللقاء ههنا ليس بالرؤية ، واللقاء هو البعث فافهم جميع ما في كتاب الله من لقاء فإنه يعني بذلك البعث . اقول : انما نفى هنا لقاء الرؤية دون سائر اللقاء ، فآبائه لقاء الثواب في الآخرة لا ينافي اثبات سائر اللقاء إلا الرؤية واضرابها ، وانما ذكر لقاء الثواب كمصداق تتقن متيقن مفهوم لكل احد ، والأكثرية الساحقة من آيات لقاء الله ولقاء الرب تعني الآخرة بثوابها وعقابها .

سورة العنكبوت / آية ١ - ١٣ ١٩

(١٤٧:٧) حتى نعني لقاء ربوبية الجزاء ! بل ولقاء الرب ايضاً تعمها وسواها من لقاء يرجى لقبيل الايمان : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه احداً » .

بل ورجاء اللقاء دون يقينه قد يختصه بغير الحياة الآخرة لأنها متيقنة لأهلها حيث : « يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » (١٣: ٢) ، فهو إذا رجاء اللقاء المعرفي ورجاء الثواب في الدارين ، ولا سيما في « لقاء الله » ، وليس في القرآن رجاء اللقاء إلا للمؤمنين « لقاء الله » كما هنا و « لقاء ربه » كما في الكهف ، ثم « لا يرجون لقاءنا » ((١٠: ٧)) للكافرين . انه « لقاء الله » معرفياً بعبودية ، وعبودياً بمعرفة ، محققاً على كل درجات الزلفى إلى الله حسب درجات العبودية والمعرفة .

و « كان يرجوا » تضرب إلى أعماق الماضي كماً وكيفاً ، ان أصبح رجاء لقاء الله عسيراً له في حياته ، ولا يصح رجاء إلا بتقديم أسباب للحصول على المرجو ، والعبودية والمعرفة الإيمانية هما السببان الرئيسيان للقاء الله في الآخرة والأولى ، و « اجل الله » هنا هو الوقت المؤجل للقاء عاجلاً أم آجلاً ، كلما ازدادت المعرفة زادت العبودية ، وكلما ازدادت العبودية زادت المعرفة ، حتى يصبح العبد « أول العابدين » في عبوديته ، ومتدلياً بالله في معرفته ، حيث لا يبقى بينه تعالى وبينه اي حجاب حتى حجاب نفسه إذ يتغافل عنها في تلك الجذبة الربانية ، فلا يبقى إلا حجاب الذات ، حينما تفنى حجب الإينات . فرجاء اللقاء بشروطه الصالحة يتخلفه ويقدره ودونما يتخلف « اجل الله » لذلك اللقاء « وان ليس للإنسان إلا ما سعى » والراجي المفتاق المشتاق يلقي اجل الله أياً كان « وهو » لا سواء « السميع » صوت القول والحال وصيتهما « العليم » بكل حال وقال وأفعال .

﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

« ومن جاهد » طبعاً في سبيل الله وفي الله وإلا لكانت على نفسه لا نفسه « فانما » دوغماً إبقاء « يجاهد لنفسه » فانها سعي لصالحه نفسه في الحياتين ، وليس لصالح ربه فد إن الله لغني عن العالمين ، والمجاهدة هي المبالغة في الجهاد فانها مفاعلة بين طرفي النزاع ، وليس جهاداً دوغماً منازع ، فهنا نزعات النفس ورغباتها تعرقل المسير ، وكما هناك الرغبات والنزعات الإبلسية خارجة النفس ، والعقل المتبني الفطرة المتأيد بوحى السماء هو المجاهد الوحيد في ميادين السباق بهؤلاء الرفاق الأقوياء، وحياة المؤمن هي سلسلة معارك الجهاد آفاقياً وانفسياً في سبيل الله ، دوغماً فترة ولا فطور ، وإلا لكانت حياة جاهلة قاحلة ، مقلوبة في إنسانيتها فضلاً عن إسلاميتها .

فقد تجاهد لله ولا عائلة منها إليك في أمرها إلا أمرها فتهاون - إذا - فيها ، أو قد يشاركك الله في تلك العائلة نصف لك ونصف له فكذلك الأمر وأقوى ، ولكن الله غني عن العالمين و « من جاهد فانما يجاهد لنفسه » وما الله إلا دليل الرشاد وموفق العباد في كل جهاد ، فلماذا إذا التهاون في سبيل الجهاد .

وما سبيل الله في جهاد وسواه ، إلا سبيل صالح المجاهد في الله ، حيث يبلغه مناء ، ويمده إلى مداه ، ويهديه هداه ، وما وعد الثواب للمجاهدين إلا رحمة من الله وفضلاً دوغماً استحقاق ، فالجهاد بالنفس والنفس بكل غال ورخيص ، يصلح من نفس المجاهد وقلبه ، ويرفع من تصوراته وآفاقه ، فيستعلي به على الشح ، ويستجيش افضل ما في كيانه وإمكانه من عذات وعذات .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ٦٠ .

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات » وهم « من جاهد » بصيغته الأخرى السائغة ، المفسرة للجهاد والمستفسرة منه ، حيث الايمان جهاد نفسي وعمل الصالحات هو الجهاد الأفاقي ، وكيف يحصل أو يتكامل ايمان بلا جهاد ، وكيف تتحقق الصالحات دون جهاد .

وهنا الله يعد المجاهدين تكفيراً عن سيئاتهم اللّٰم وسواها ، المتفلتة عنهم في حياة الجهاد ، تغافلاً أو تساهلاً ، فيؤمنوا بأس السيئات حيث اجتنبوا كبائرهما « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » .

ولأن « الذين آمنوا » قد تعم هؤلاء والذين لا يعترفون السيئات حتى اللّٰم كالمعصومين من السابقين والمقربين ، فالتكفير بالنسبة لهم دفع عن السيئات ألا يرتكبوها ، لا رفع لها بعد ارتكابها ، كما الغفر يعم الدفع والرفع .

ثم للذين آمنوا - ككل على قدر ايمانهم - تكفير الدفع كما لهم تكفير الرفع « وان ليس للإنسان إلا ما سعى » .

ام ان « الذين آمنوا » تعني من سوى المعصومين فإنهم مسلمون لله ، لا فقط انهم مؤمنون ، وقد يتأيد به « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين »^(٩) فانهم بطبيعة الحال من فوق المؤمنين من « النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً » فالمؤمنون هنا « من يطع الله والرسول فاولئك مع النبيين . . » والصالحون هنا دون مقابل هم كل هؤلاء الأربع الذين على صراط مستقيم .

ثم ولا وحسبهم هذا ، بل « ولنجزينهم احسن الذي كانوا يعملون » جزاءً الحسن بالحسن ، وحتى الحسنات التي ليست بالحسن ، وهي الجزاء بعشرة أمثالها وزيادة « للذين احسنوا الحسنى وزيادة » (١٠: ٢٦) والحسنى هنا

والأحسن هناك هما الأحسن وجزاءه لا يتفارقان ، ففي أربع - آيتنا منها -
الجزاء هو الأحسن نفسه ، وفي ثنتين الجزاء بالأحسن^(١) مما يبين أن الجزاء
هو العمل نفسه بما يظهر بملكوته هناك ، وأنه العمل الأحسن دون السيء إذ
كُفِّر عنهم ، ولا الحَسَنَ فإن أقله عشرة الأمثال ، فالجزاء الأحسن جزاء
للأحسن والحسن سواء ، فليجاهد المؤمن ويبالغ أن يأتي بالأحسن فالأحسن
فانه درجته يوم القيامة ، وكلما كان الأحسن أكثر فالجزاء - بطبيعة الحال -
أحسن ، حيث القصد من الأحسن مجموعة الكم والكيف ، فالذي يكون كل
أعماله الأحسن دون سيء ولا حَسَنَ كأول العابدين ، فدرجته كذلك أحسن
من يكون أحسنه أقل في كم أو كيف أو فيها ، و« لا يظلمون فتيلاً » . ويا
له من فضل عظيم عظيم ونعيم مقيم للمجاهدين الذين آمنوا وعملوا
الصالحات ، تكفيراً عنهم سيئاتهم ، وجزاء الحسنى بكل حسناتهم وليست
كلها حسنى ، فما أكرمك يا رب ، وما أأمننا يا رب ! .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^١ .

هذه وصية ربانية لصالح الوالدين والأولاد « حُسْنًا » هنا و« إحصاناً »
في أخرى ، مما يدل انها واحد ، ان تكون حياتك معها حياة حسنة بإحسان
حالاً ومالاً ومالاً دوغماً أية إساءة ولا سوء حتى في قلبك فضلاً عما يظهر ، ولا

(١) فمن الأول : ليجزيهم الله احسن ما كانوا يعملون « (١٢١:٩) » ليجزيهم الله
احسن ما عملوا ويزيدهم من فضله « (٣٨:٢٤) » اولئك الذين نتقبل عنهم احسن ما
عملوا « (١٦:٤٦) » .

ومن الثانية : « ولنجزينهم باحسن ما كانوا يعملون » « (٩٧:١٦) » ويجزيهم اجرهم
باحسن ما كانوا يعملون « (٣٥:٣٩) » .

ترك احسان الآتسيء اليهما ولا تحسن حيث الفرض هو الإحسان ، وهذه هي الضابطة الشاملة على أية حال ، المقتضية لطاعتها على أية حال ، إلا إذا كانت عصياناً لله فكلاً ، فتركاً لطاعتها فيه مع الحفاظ على المصاحبة الحسنة فيها وراءها حيث الصلة بالله وفي الله هي الصلة القمة الأولى ، لا تساويها أو تساميهما أية صلة ، فلا تُسأحرها صلة الوالدية فيما تنافرتا ، وليست الصلة الوالدية إلا بما قرر الله في حقل التكوين والتشريع ، فكيف تتقدم على صلة الله ! فكل صلة تتهاوى بجانب صلة الله ، إلا ما تصلك بالله ، وتسرع عجلة سيرك إلى الله (١) فانما طاعتها في المباحات التي لا امر فيها ولا نهى ، صارماً ام راجحاً أم فعل المستحبات وترك المكروهات ، فكما تحب المستحبات وتحرم المكروهات بنذر أو عهد أو قسم ، كذلك - وبأحرى - بامر الوالدين فان طاعتها فيها هو من حسن عشرتهما ، اللهم إلا في الموارد الخرجة أو العسيرة فلا ، فترك المستحبات وفعل المكروهات بامر الوالدين ليس من واجب الطاعة لهما مهما جازت إلا إذا حملت تشريعاً فمحرمة .

«وإن جاهدك» بالغ الجهد في جحد التوحيد الحق بكل حقوله طاعة وعبادة «لتشرك بي ما ليس لك به علم» اشراكاً في أي من شئون الربوبية ، من

(١) روى الترمذي عند تفسير هذه الآية انها نزلت في سعد بن أبي وقاص وامه خنة بنت أبي سفيان وكان باراً بامه فقالت له : ما هذا الدين الذي احدثت ، والله لا أكل ولا اشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو اموت فتغير بذلك ابد الدهر يقال : يا قاتل امه ، ثم انها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب فجاء سعد اليها وقال يا اماء لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني ، فكلي ان شئت وان شئت فلا تأكلي فلما ابست منه اكلت وشربت فانزل الله هذه الآية . . وفي الدر المنثور عن قتادة في الآية قال : انزلت في سعد بن مالك لما هاجر قالت امه : والله لا يظلمي ظل حتى يرجع فانزل الله في ذلك ان يحسن اليهما ولا يطيعهما في الشرك .

توحيد الذات أو الصفات أو الأفعال ، أو الوحي أو العبادة والطاعة أماميه من قضايا الربوبية الوحيدة « فلا تطعهما » فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولماذا تطيعهما فيها ، ومنه مبدئكم « والي مرجعكم فانبثكم بما كنتم تعملون » ، « لا تطعهما » في معصيتي وكلها اشراك بي مهما اختلفت دركاتهما ، ثم ولا تسيء إليهما في عثرتك اياهما إلا ترك هذه الطاعة وهي في الحق إحسان اليهما ألا يزرا مع وزرهما وزراً منك ، وليس في طاعتها بمعصية الله أو العمل خلاف حب الله حسن ، ودائرة الوصية بالوالدين مضيقه به « حسناً » أترى أن الله يفرض طاعة أو يسمع ما فيه معصية ويراه حسناً وهو يحمل مثلاً من السوء : سوء بساحة الربوبية ، وسوء بنفسه في هذه الطاعة ، وسوء بالوالدين حيث تخلف طاعتها في معصية الله مزيداً في وزرهما .

« ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك إلي المصير . وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من اناب إلي ثم مرجعكم فانبثكم بما كنتم تعملون » (١٥: ٣١) .

ولماذا خصوص « وان جاهداك » في « لا تطعهما » ؟ لأنها القمة العالية من الحمل على العصيان ، في كل المحاولات الممكنة تحبباً وتهديداً وضرباً وشتماً وأية مجاهدة تحلق على كافة السلبيات والإيجابيات في سبيل حملك على « ان تشرك بي ما ليس لك به علم » فلتكن مجاهدتك في هذا الميدان ترك طاعتها كاقبل الجهاد ، ثم ودعوتها إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة وجدالها بالتي هي احسن كما هي السنة في الدعوة الصالحة ، وانت اولاً واخيراً عليك كأصل اصيل أن « لا تطعهما » ثم « وصاحبهما في الدنيا معروفاً » و « ما ليس لك به علم » هي كحجة لترك الطاعة ، وهي بصورة

عامة : « لا تقف ما ليس لك به علم » ، وهنا بصورة خاصة من المحال ان يحصل علم بشريك لله تعالى لا فطرياً ولا عقلياً ولا كونياً ولا نقلياً ، بل ومربع الأدلة برهان قاطع لا مرد له ان « لا إله إلا هو رب كل شيء » ، واليه ترجعون « إذا فدا ما ليس لك به علم » برهان قاطع على ضلال الإشراك ، حيث لا يبرهنه أي علم .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ ٩ .

« الصالحين » هنا بطبيعة الحال هم الأئمة القمة في الصلاح حتى يلحق بهم كل « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فهم « من يطع الله والرسول فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » (٤ : ٦٩) و « الصالحين » الأولين عليهم كل هؤلاء الأربع ، وذلك حشر في الحياتين لأولئك المؤمنين على درجاتهم مع الصالحين الأولين من السابقين والمقربين « وحسن أولئك رفيقاً » .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ ١٠ .

إن طبيعة الحال لمن يؤمن بالله شاهراً مجاهراً ان يؤذى في الله وفي سبيل الله حيث الناس في الأكثرية الساحقة هم في الحق نسناس ، يعارضون شريعة الله في الناس ، فالتأذي في الله سنة في هذه الأدنى في الأمثل فالأمثل من المؤمنين بالله ، ومما يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) : « لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ، ولقد أخفيت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت على ثلاثة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما يوارى إبط بلال » (١)

(١) الدر المنثور ٥ : ١٤٢ - اخرج احمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه

و « ما أودى نبي مثل ما أوديت » هذا ! « ومن الناس من يقول آمنا بالله » ولما يؤمن بالله أو يرتكن الإيمان في قلبه أم هو منافق كافر في قلبه بالله ، وإلا كان حق التعبير « من يؤمن بالله » لا « من يقول » حيث القول اعم من الواقع ، ولا واقع لهكذا قولة يجعل صاحبها الإيذاء في الله كعذاب الله ، ويكأن الله يعذب من آمن به ، وفتنة الناس حين لا تزوى عن هؤلاء كما عن المؤمنين حقاً ، لا يحق ان تنسب إلى الله كأنه يعذب من آمن به حيث لا يدفع عنه الأذى ، رغم انها في سبيل الله من فتن الإيمان ، وأنحس منه أن يجعل الأذى في الله من الله ويكأن الله هو الذي يدفع هؤلاء النجسين لإيذاء من يقول آمنا بالله ! . فهؤلاء الذين يقولون آمنا بالله ثم يجعلون فتنة الناس كعذاب الله ، لم يؤمنوا ، أم هم مؤمنون على حرف : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » (٢٢: ١١) .

للمؤمن أياً كان ، إيذاء في الله كما هنا ، وإيذاء في سبيل الله ، فمن اجتاز الإيذاء في الله سليماً في إيمانه دون قولة جارفة مجازفة كتلك التي يقولها : « من يقول آمنا بالله » فقد يجتاز الإيذاء في سبيل الله مشكوراً محبوراً : « فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واودوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب » (٣: ١٩٥) .

والتصبر في الإيذاء في الله بحاجة ماسة إلى الجهاد في الله ، حتى يهتدي الى سبل الله والجهاد في سبيل الله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن

وابن ماجه وابو يعلى وابن حبان وابو نعيم والبيهقي في شعب الإيمان والضياء عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

الله لمع المحسنين » (٢٩: ٦٩) . فيما لم يستحكم الإيمان في مرحلته الأولى ، لم يهتد المؤمن إلى سبيل الله ، تعرفاً إليها وصموداً فيها أمام عراقيلها والتوائاتها وأذياتها .

فمن « أوذى في الله » وتصبر عن حالة مركوسة وقالة منكوسة ، ولم يزد إلا إيماناً ، فهو الذي جاهد في الله فيهندي - إذاً - إلى سبيل الله .
وأما إذا « جعل فتنة الناس كعذاب الله » في قال أو حال ، فهو المنافق حقاً ، أو لما يدخل الإيمان في قلبه : « وقالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » (٤٩: ١٤) .

وقد تعني الآية - فقط - المنافقين دون الآخرين ، حيث القول « إنا كنا معكم » في النصر قوله فارغة منافقة ، وليست جاهلة من هؤلاء الأعراب ، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ، اللهم إلا أن يدعو بسذاجة زعم أن اسلامهم إيمان ، إلا أن جعل فتنة الناس كعذاب الله لا يلائم أضعف الإسلام ، إلا الإسلام مصلحياً وهو التفريق !

فكما عذاب الله يُتحرز منه ، فهؤلاء يتحرزون عن الإيمان حيث يخلف بزعمهم عذاب الله ، وهو « فتنة الناس » وحياة التكليف كلها فتنة خيراً أو شراً ، ومن أصعب الفتن أن يعذب المؤمن في الله حيث يتفلت عنه الإيمان غير الركين ولا المكين ، فضلاً عن إسلام النفاق ، فالمسلمون هم في حقل الأذية في الله درجات ، أعلاهم من يزدادون إيماناً ، وادناهم من يرجعون كفاراً أو أكفر مما كانوا قبل الايذاء في الله وهو أنزل ودركات الكفر وأنزلها مهما « قالوا آمنا » وبينهما عوان ، وما انحسها كتلة البتلة والرياحة والرعونة ، حيث تبغي الجمع بين « قالوا آمنا » وألا يوذى في الله ، فيعلن كلمة الإيمان في الرخاء رجاء الأمن المطلق في ظلها دون نصب ولا تعب في الله ، بحسبها خفيفة الحمل ، هيئة المؤونة والمسئولية ، قد يبقى على

قالت ما أصابه خير ، فإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، فاختلَّت في نفسه القيم واهتزت العقيدة - إن كانت - ! فهؤلاء ليسوا مع المؤمنين إلّا في النصر والرخاء ، دون الحصر والبلاء « ولئن جاء نصر من ربك » نصرُ رباني يخلصك كأول العابدين وآخر النبيين ليُقولنَّ « إنا كنا معكم » وهم لم يكونوا معهم في واقع الإيمان ، إلّا في قائلته القالة الخاوية ، وقد تعني المشابهة بين فتنة الناس وعذاب الله فيما عنته ، أننا تكفينا فتنة الناس عذاباً هنا عما في الأخرى ، فلا نعذب - إذأ - فيها مهما عصينا ، أم قاسوا عذاب الله بفتنة الناس ، فلا علينا إذ نعصيه إذ لا تصيبنا في الأخرى إلّا كالذي أصابنا هنا من فتنة الناس !. وابن فتنة الناس من عذاب الله في أيّ من هذه الزوايا الخاوية الغاوية ! وقد تعني « كعذاب الله » كل هذه الثلاث، فهي لدركات ثلاث من النفاق ، ولكنها الثالث على هامش الأولين لمكان « كعذاب الله » دون « عذاب الله » .

« أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين » والواو هنا تعطف إلى محذوف معروف كـ « لم يجعلوا فتنة الناس كعذاب الله » فتركوا الإيمان المدعى إلى الكفر ، وتركوا أن يكونوا في الله كيلا تصيبهم فتنة الناس التي حسبوها كعذاب الله ، أو تركوا طاعة الله إذ حسبوا فتنة الناس هنا كعذاب الله في الأخرى ! « أوليس الله » إن لم تكن هذه وتلك « بأعلم بما في صدور العالمين » وهذه من الفتن المظهرة لما في الصدور : « فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » :

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ ١١ .

هنا « ليعلمن » كما هناك من العلم العلامة ، والإيذاء في الله بفتنة الناس ، هو فتنة من الله ، إذ لا يصدّه عن يقول آمنا بالله ، ولا عن

المؤمنين بالله ، لتظهر علامة الإيمان صموداً وعلامة النفاق خموداً ، « ليُحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » أترى الآية مدنية لأن واقع النفاق كان في المدينة ، واما في مكة فإيمان صارم حيث الجو كان جو الضيق والمحنة دون رجاء فيها لأمن وراحة فلماذا - إذاً - إيمان النفاق فيها ؟ ولكن النفاق دركات ، منها ألا يرتكن الايمان في القلب ، فيذبل عند الفتنة كما كانت في مكة أشد الفتن للمؤمنين ، دون المدينة التي أسست فيها دولة الإسلام .

أو ان الآية تشمل كل دركات النفاق مكية ومدنية أماهيه ، إذ لا تختص بمكان أو زمان خاص بل تحلق على الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، عرضاً شاملاً لكل « من يقول آمنا بالله فإذا أودي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » سواء الذين قيل لهم : « قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » أو الذين أسلموا كرهاً وطمعاً فلما أودوا في الله جعلوا فتنة الناس كعذاب الله بمختلف الوجوه التي أسلفناها، والدرك الأسفل فيها أن فتنة الناس هي عذاب الله ، فهو يعذب الذين قالوا آمنا ! ثم ولا تقف الفتنة عند حد الميز بين الإيمان والنفاق ، بل والمؤمنون غير المنافقين ايضاً يفتنون ، لتظهر درجات الإيمان وتنبو وتربوا ، كما :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ^{١٢} وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا تَعْتَصِمُ ^{١٣} ﴾

حين يشس الذين كفروا من ارتداد فريق من المؤمنين إذ يوذون في الله ، إحتالوا حيلة أخرى هي دعوى حمل خطاياهم : « اتبعوا سبيلنا » تركاً لسبيل الإيمان ، وليس ذلك خطأ ، وحتى لو كان خطأ يحمل خطايا عملية بخلفها ترك الإيمان « ولنحمل خطاياكم » نفرض على انفسنا ان نحملها ، فانتهم أخفاء - إذاً - عن اثقالكم « و » الحال انهم « ما هم بحاملين من خطاياهم من

شيء» حيث لا تزرر وازرة وزر اخرى ، وحتى إذا صدقوا في وعدهم فلا يؤذن لهم في ذلك الحمل «إنهم لكاذبون» في وعد الحمل ببعديه : فهم كاذبون في حملهم الموعود ان اسطاعوا ، ثم هم كاذبون في امكانية هكذا حمل ، فذلك خلاف الواقع في بعدي التصميم حينه وبعد الواقع إذ لن يسمح لهم فيه « لنحمل » أمرهم يلزمون به أنفسهم ، فهو - إذا - إخبار ضمني أنهم ملتزمون بما لزموا به أنفسهم ، ولكنهم كاذبون في التزامهم نفسياً ، ومن ثم خارجياً حتى لو التزموا ، إذ ليس الجزاء بكفه وكيفه يوم الجزاء بأيديهم فكل يحمل خطيئة نفسه ، دون زيادة ولا نقص ، مهما كان للمضلل ضعف العذاب ثانياً لإضلاله كما الأول لضلاله : « وليحملن أثقالهم » بما أضلوا « وأثقالاً مع أثقالهم » بما أضلوا ، ولا ينقص أولئك من أثقالهم شيء .

وليست الأثقال الثانية هي نفس أثقال المضللين ، بل هي أثقال تضليلهم إضافة إلى أثقال ضلالهم ، وما اتسع ودام ذلك الضلال بين المضللين والذين يتبعونهم كسنة ضالة ، فهناك أثقال ثالثة هي مثل أثقال المضللين بذلك الضلال كلهم فـ « ما هم بحاملين من خطاياهم من شيء » أبداً ، بل « أثقالاً مع أثقالهم » بما أضلوا : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم » (١٧ : ٢٥) فـ « من » هنا جنسية وليست تبعية ، فهم يحملون مثل أوزارهم جزاء وفاقاً ، قدر ما كانوا معهم بإضلالهم رفاقاً .

وكما يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله « ايما داع دعا إلى هدى فاتبع عليه وعمل به فله مثل أجور الذين اتبعوه ولا ينقص أولئك من أجورهم شيئاً وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليها وعمل بها فعليه

مثل أوزار الذين اتبعوه ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيء» (١) .
 «وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون» من شركاء الله ، وأنه ما أنزل
 الله من شيء ، ولا حياة بعد الموت ، وإن كانت فلنا أن نحمل خطايا
 المضللين ، كأنهم خول إليهم أمر الجزاء يوم الجزاء .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ
 فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ
 ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً
 لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ
 ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ
 مِن دُونِ اللَّهِ أَوتُنًا وَتُحْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
 مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ

(١) الدر المنثور ٥ : ١٤٣ - اخرج عبد بن محمد وابن المنذر عن الحسن ان النبي (صلى
 الله عليه وآله وسلم) قال : . . . وفيه اخرج احمد عن حذيفة قال سأل رجل على عهد
 رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فامسك القوم ، ثم ان رجلاً اعطاه فاعطى القوم
 فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من سن خيراً فاستن به كان له اجره ومن اجور
 من تبعهم غير منتقص من اجورهم شيئاً ومن سن شراً فاستن به كان عليه وزره ومن
 اوزار من تبعه غير منتقص من اوزارهم شيئاً . . . اقول وهذا المعنى متواتراً عن النبي (صلى
 الله عليه وآله وسلم) وعن عشرته المعصومين عليهم السلام .

الرِّزْقَ وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ
تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ
الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ
وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَلِفَآئِهِ
أُولَٰئِكَ يَنسَوْنَ مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ
اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾
وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ

وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ
تَّصْهِيرٍ ﴿٢٥﴾ * فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ
إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ
أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

هنا عرض لنماذج من الفتن التي اعترضت الدعاة الرساليين من لدن
نوح وإلى خاتم النبيين صلوات الله عليهم اجمعين ، وليعلم الذين قالوا آمنا
ان ليس الايمان رخيصاً دوماً فتنه في سبيله ، وليتذكر الفريقان مصارع
الغابرين والعاقبة الحسنی للمتقين .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا
فَاخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ١٤ .

« ولقد ارسلنا نوحاً الى قومه » وطبعاً « قومه » في هذه الرسالة العالمية
هم العالمون اجمعون ، كما في غيره من اولي العزم الذين دارت عليهم
الرحى ، فليس قومه - فقط - مواطنوه الخصوص : « فلبث فيهم الف سنة الا
خمسین عاماً » وهو اللبث الرسالي ، إذ « فلبث » بعد « ارسلنا » (١) فليس
- إذا - لبثه في كل حياته وعلها آلاف من السنين خلافاً للتوراة القائلة انها سني

(١) نور الثقلين ٤ : ١٥٤ في الاحتجاج للطبرسي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)
حديث طويل في مكالمة بينه وبين اليهود وفيه قال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
لقد اقام نوح في قومه ودعاهم الف سنة إلا خمسین عاماً ثم وصفهم الله تعالى

عمره ككل ! ولا نحتمل أن السنة هنا أقل مما نعرفها حيث النص يمانع غيرها ، و « ان عدة الشهور عند الله اثني عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض » . تجعل السنة اثني عشر شهراً على طول الخط دونما استثناء حتى يعني من السنة غيرها لوقت ما .

وليكن ذلك العمر الطائيل نبراساً ينير الدرب على هؤلاء الذين يتشككون ويشككون في عمر صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف . وإذا كان ذلك العمر الطويل لذلك الايمان القليل : « وما آمن معه إلا قليل » فباحرى لصاحب الأمر عمر أطول ليملاً الله به الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً » : وبيمينه رزق الورى وبوجوده ثبتت الأرض والسماء !

وقد يعني عرضُ سني الدعوة لنوح (عليه السلام) تسليّةً لخاطر الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ألا يضيق صدره بتعدد قومه وتعتهم ضد الدعوة ، ونموذجاً من طول العمر يفتح الطريق لتقبل طائل العمر لصاحب الأمر ، إذ لم يذكرني في القرآن بسني رسالته إلا نوح .

ولقد عرضت قصص نوح (عليه السلام) في معارض ثلاث سورة من القرآن ، مختصرة كما هنا وفي غيرها ، ومفصلة كما في أخرى ، ولم تأت سني

فقللهم فقال : وما آمن معه إلا قليل - ولقد تبعني في سني القليلة وعمرى اليسير ما لم يتبع نوحاً في طول عمره وكبر سنه ، وفيه عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن الباقر (عليه السلام) : فمكث نوح الف سنة الا خمسين عاماً لم يشاركه في نبوته أحد ، وفيه عن عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) من خبر الشامي وما سأل عنه امير المؤمنين (عليه السلام) في جامع الكوفة - حديث طويل وفيه : وسأله عن اسم نوح ما كان ؟ فقال : اسمه سكن وانما سمي نوحاً لأنه ناح على قومه الف سنة إلا خمسين عاماً . (١٦) وهي الأعراف - يونس - هود - الأنبياء - المؤمنون - الشعراء - العنكبوت - الصافات - الذاريات - القمر - التحريم - الحاقة - نوح .

رسالته إلّا هنا .

ولماذا « خمسين عاماً » استثناءً عن « ألف سنة » وهما واحد ؟ علّه رعاية لعدم التكرار لفظياً، والتوافق معنوياً، قضية الفصاحة القمية القرآنية، كما وفي الاستثناء حصر يحدّد سني الرسالة دون احتمال نقيصة ولا زيادة ، ثم هذه الصيغة اجمل من « تسعمائة وخمسين سنة » لفظياً كما هي أكمل منها معنوياً . ولقد كان عاقبة امر قومه اللد الكافرين المتعتين « فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » بطوفان الظلم ، فأخذهم - إذا - طوفان بطوفان جزاء وفاقاً .

﴿ فَاتَّخِذْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ١٥ .

« اصحاب السفينة » هم المؤمنون انقله الذين آمنوا معه بين أقارب نسبياً وأغارب ، وكيف « جعلناها آية للعالمين » ؟

انها بقصتها المقصودة في كتابات الوحي وهذا القرآن العظيم ، آية للعالمين على مدار الزمن الرسالي منذ نوح الى خاتم النبيين والى يوم الدين ، وعلّها كذلك ببعض انقاضها الباقية ، المرقوم عليها أسماء الخمسة الطاهرة المحمدية كما فصلناها في « الحاقة » آية حسية مبصرة للعالمين (١) .

فضمير التانيث راجع إلى قصة السفينة وإليها نفسها دوغما اختصاص بواحدة دون الأخرى ، ومما يدلنا على آيتها الحسية « ولقد تركناها آية فهل من مدكر » (١٥: ٥٤) و « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها اذن واعية » (١٢: ٦٩) فلا يصغى إلى قبلة القائل من السفارة السوكيتية - بعد ما نشرت المجلات^(٢) هذه

(١) ج ٢٩ ص ٩٠ - ٩٤ من الفرقان ، وفي الدر المنثور ٦: ٣٦٠ عن قتادة في الآية قال : عبرة وآية ابقاها الله حتى نظرت إليها هذه الأمة وكم من سفينة غير سفينة نوح صارت رماً .

(٢) نشرته المجلة الروسية الشهرية الصادرة في موسكو تشرين الثاني ١٩٥٣ ، ومجلة

الآية الإلهية - أنها لا أصل لها ، إخفاء للحق الصادر عنهم انفسهم ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ! .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ١٦ .

« إذ قال » مُحدّد قومه المخاطبين هنا بقومهم الحالي الحضور عند قوله ، ولأن القالة هذه هي قالة الرسالة الابراهيمية ، فقومه - إذاً - هم قومه الرسالي ، فعلى حملة شرعته حملها الى كافة المكلفين عرض المكان وطول الزمان لهذه الرسالة السامية ، وكما هي طبيعة الحال في كل رسالة عالمية لمن دارت عليهم الرحي من اولي العزم من الرسل .

وهذه القالة الإبراهيمية هي القالة الرسالية لكافة المرسلين ، وهي الأمر بعبادة الله وحده وتقواه وحده « ذلكم » الله « خير لكم » ممن سواه في عبادته وتقواه « إن كنتم تعلمون » وتعرفون الحق عن الباطل ، و « تعلمون » ان الله هو الحق المبين ، فمن يعلم انه الله كيف ينحو الى سواه ؟ واين هنا « وحده » ولا حصر تخص به التقوى والعبودية ؟ علّه لأنهم ما كانوا يعبدون الله حتى مع شركائهم زعماء منهم انه لا يُعبد إلا بشفعاء عنده ، فإذا صحت عبادته دون واسطة فقد بطلت عبادة من سواه ، معه أولاً معه ، حيث الفرع ساقط بوجود الأصل !

« ويكلي ميرر » الأسبوعية اللندنية العدد الصادر ٢٨ كانون الأول ١٩٥٣ ، ومجلة « استار » اللندنية كانون الثاني ١٩٥٤ وجريدة « سن لايت » الصادرة في مانجستر ٢٣ كانون الثاني ١٩٥٤ وجريدة « ويكلي ميرر » اللندنية في ١ شباط ١٩٥٤ وجريدة « الهدى » القاهرية في ٣٠ مارس ١٩٥٣ ، ومن مصادره كتاب ايليا من منشورات دار المعارف الاسلامية بلاهور برقم ٤٢ باللغة الأردية .

أم لأنهم ضروب عدة ، منهم هؤلاء الذين يوحّدون العبادة لما سواه ، فيؤمرون بتحويل عبادتهم الى الله توحيداً لعبادة الله ، ومنهم من يعبدون مع الله سواه ، وليست هذه عبادة لائقة لله ، فليعبدوه كما تحق وليست إلاّ توحيد العبودية له دون سواه ! أم ان « اعبدوا الله » اثبات لعبادته عقائدية وعملية ، ثم « واتقوه » نفي لعبادة غيره عملية أو عقائدية ، فمن يعبد مع الله سواه لم يتق الله ، وتقوى الله تحلّق على كل سلبية تقتضيها عبادة الله ، كما أن « اعبدوا الله » محلقة على كل الإيجابيات في عبادة الله ، والإيجابية القمة فيها أن يوحد في عبادته ، كما السلبية القمة ألاّ يشرك به سواه ، إذا فهي صيغة اخرى عن « لا إله إلاّ الله » في قالب الأمر والنهي بالترغيب والترهيب ! ثم الآية التالية تتكفل صراحاً تلك السلبية الملمحة من « واتقوه » بصورة مبرهنة بيّنة :

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧ ﴾ .

« إنما » هنا تحصر عبادتهم في « أوثاناً » وهي تمائيل خشبية أم حجرية أماهيه من جمادات ، مما يبين انهم كانوا - فقط - عبدة الأوثان وهي أنذل العبادات وارذلها بين كل ما يُعبد من دون الله ، ان يعدلوا بها عن عبادة الله .

وليس فحسب ان تعبدوها بل « وتخلقون إفكاً » خلقاً لما تنحتون ، ثم انتم تعبدون ما تخلقون ، وإفكاً فيها انها شفعايم عند الله ، ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى ، وأمثالها من مختلفات الزور والغرور التي يخلقونها فيما يعبدون ، وماذا يملكون لكم حتى تعبدوهم ؟ « إنما تعبدون من دون الله أوثاناً » وأصناماً أم حيواناً وطواغيت أم اياً كان حتى النبيين والملائكة

المقربين ، والجامع لهم انهم « من دون الله » وهم كلهم « لا يملكون لكم رزقاً » بل ولأنفسهم « فابتغوا عند الله الرزق » أياً كان « واعبدوه » لأنه الله الخالق الرازق « وأشكروه » بما يرزق ، فانكم « إليه » لا إلى سواه « ترجعون » ، وإن الرزق هو مشغلة النفوس في الأكثرية المطلقة ، تعبد من تراه رازقاً ، فكيف انتم تبغون الرزق من دون الله وتتركون الرازق وهو الله ، فهو المبدء وهو المنتهى وهو الرازق لكم فيها وبينها « فابتغوا عند الله الرزق » مما كسبت ايديكم أما لم تكسب ، و « عند » هنا دون « من » علّها إشارة الى معدنية الرزق ولد نيته عنده ، مهما كانت له أسباب منها يُرزق المرزوقون ، سواء أكانت إختيارية أم سواها ، فليطلب المرتزق الرزق من أي سبب « عند الله » لا عند سواه .

أمن العقل أن يترك الرازق ويُبغى الوسيط أن يطلبه من الله ، فتعبدونه حتى يطلب ؟ ولا وسيط في طلب الرزق ، ولا يملكون هؤلاء طلباً له من الله ، ولا أن يُعبدوا من دون الله ، وحتى لو ملكوا طلباً من الله فعبادتكم اياهم دون الله يقطع عنكم رزق الله وشفاعتهم - المزعومة - عند الله « فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه وأشكروا له اليه ترجعون » -

وهكذا نرى كيف يفند أوثانهم في كل زوايا الربوبية ، فذاتية أنها « أوثان » لا تعقل ، وصفاتية أنها لا تملك لكم من الله شيئاً إلا أنكم « تخلقون » لها « إفكاً » وأفعالية أن « لا يملكون لكم رزقاً » أياً كان ، والعبادة قد تعني كمال الذات ، أم كمال الصفات ، أم كمال الأفعال ، وهي مسلوبة الكمالات ، إذا « فابتغوا عند الله الرزق » كله ، فما احققكم إذ تنحون نحو الفقير الالاشيء وتركون رب كل شيء ؟!

وهنا ندرس ان طلب الرزق عند غير الله كعبادة غير الله إشراك بالله ،

وانما علينا ان نتوسل بالاسباب المسموحة لنا في طلب الرزق عند الله ،
متكئين في ذلك على الله دون سواه .

﴿ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كُذِّبَ أَمُّ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
الْمُبِينُ ١٨ .

اترى « وان تكذبوا » هي من تنمة الحجة الإبراهيمية ؟ ولم تسبقه أمم
إلا أمة نوح ! أم هي الحجة القرآنية دون نقل ، تلحيقاً للحجة الإبراهيمية
للمخاطبين بالقرآن ، كما وتؤيدها « اولم يروا . . » بصيغة الغائب ؟ .

الجمع هو الأرجح ، وأمم قبل ابراهيم تشمل أمة نوح ومن قبله من
المرسلين كإدريس وآدم وشيث ، كما وان أمة نوح في قرونه العشرة قرون
عشرة قد يعبر عنهم بأمم .

« وان تكذبوا » قالتي الحققة عن الله وما عند الله فلستم انتم بدءاً من
المكذبين « فقد كذب امم من قبلكم » دون سباق وشطارة لكم بينهم « وما
على الرسول » تجاهكم « إلا البلاغ » عن الله « المبين » لما أرسل الله ولقد
بلغت وأبنت رسالة صادقة من الله و « المبين » في مواصفة « البلاغ » هي مما
تبين أن البلاغ الرسالي لاخفاء فيه ولا إجمال يعتريه ، وتأخير البيان عن وقت
الحاجة بلاغ غير مبين ، فلا يصدق على الوحي الرسالي اطلاقاً .

هذه خطوات تربوية يخطوها الداعية إلى هؤلاء الألداء ضد الدعوة ،
تدخل إلى قلوبهم من مداخلها ، بإيقاعات قوية على أوتارها ، ودقات عميقة
في أوطارها ، كنماذج خلافة غالبة يجب ان يتملاها أصحاب الدعوات
الرسالية لينسجوا على منوالها في كل أحوالها في مخاطبة النفوس وإزالة
النحوس .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ١٩

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ .

الواو هنا تعطف الى محذوف معروف من الآيات الأنفسية الدالة على وجود الله وتوحيده في كل ربوبيته ، وانكم اليه ترجعون ، فإذا لم يروا أنفسية الآيات حيث الأبصار كليله والنفوس عليله « اولم يرو . . » الى آفاقية الآيات : « كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده » على طول الخط هنا في الأولى ، و « كيف بدأ الخلق » أول مرة « ثم ينشئ الله النشأة الآخرة » مرة اخرى في الأخرى « إن الله على كل شيء « بدأ وإعادة » قدير » .

وعلى الرؤية الأولى هي - فقط - الرؤية البصرية ، ام والبصيرية الناتجة عن النظر كما في الثانية : « فانظروا » وهي على أية حال رؤية مستمرة على مدار الحياة العقلية لكل عاقل راء راع في رؤيته تكشف الحق ، و « كيف » لا تعني هنا وفي « فانظروا » حق الكيفية فانه خاص بالخالق علماً وقدره في « كيف يبدئ وكيف بدأ » ؟ وإنما تعني ظاهراً من البدء والإبداء والإعادة ، الباهر لكل راء وناظر ، فقد يُبدئ الله خلق كل شيء من كل شيء - بعد خلق المادة الأم - فان خلقها بدءً صيغته « بدء » كما الثانية ، دون « يبدئ » كما هنا ، الدالة على الإستمرار ، ومن باب الإفعال ، فكل ما يُخلق من شيء ثم يعاد إلى شئته الأول كالماء والبخار ، والتراب والأشجار والحيوان والإنسان ، كل ذلك داخل في نطاق « يبدئ الله الخلق ثم يعيده » على مدار الخلق بعد المادة الأولى ، والإبداء هو إظهار البدء ، كما الإعادة هي إظهار العود ، عوداً إلى بدء ، فالمادة واحدة وإنما الاختلاف في الصورة الماهوية والظاهرية .

ثم « ثم يعيده » كما تعني الإعادة المستمرة كذلك تعني الإعادة الأخيرة

يوم القيامة وهي أهون عليه ، ثم « كيف بدأ » دون « أبدء » مختلفة عن « يبديء » مضياً وتعدية ، تدلنا على الفرق الواضح بينهما معنوياً وواقعياً ، مهما اشتركا في الخلق والإعادة .

فه « كيف يبديء » نظرة أولى تنتج رؤية أولى ، مما يُطمئن « انه هو يبديء ويعيد » (١٣: ٨٥) و « كما بدأكم تعودون » (٢٩: ٧) « إن ذلك » الخلق إبداء وإعادة « على الله يسير » من هيئته وأهونه ، ثم « كيف بدأ الخلق » تخط عن هذه المرحلة المستمرة إلى البداية الأولى في خلق المادة الأولية ، كما و « الله ينشيء النشأة الآخرة » ترمي إلى النهاية ، وهما أهم من « يبديء الخلق ثم يعيده » بين الأمرين ، فلذلك « قل سيروا في الأرض فانظروا . . . » ، فه « بدء الخلق » هو أهم من « ينشيء النشأة الآخرة » وكل هذه الثلاث من خلق الله ، وهي على الترتيب في حدود ذواتها صعب وهين وأهون ، مهما كانت في قدرة الله على سواء ، ولكن يستدل بالأول الصعب وبالثاني الهين على الثالث الأهون ، ومهما كان الأولان قضية الفضل ، فالثالث هو قضية العدل ، فهو أولى من الأولين بأولويتين ، وهنالك الإعادة بعد الإبداء تشمل كل مراحل الخلق والتحويل أولاً وأخيراً ، والإعادة المعاد - وهي إعادة الصورة بمثلها والمادة هي هية بعينها - هي من ضمن « ثم يعيده » وكخلفية لكافة الإعادات ، فما إعادة الإنسان إنساناً في الأخرى إلا كإعادته تراباً كما كان ، وإذا كانت هذه في الأولى مصلحية الحياة الدنيا ، فالإعادة الأولى في الأخرى أصلح وأولى : « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون » (٦٢: ٥٦) ، واما « كيف بدأ الخلق » فقد تخص الخلق الأول لا من شيء ، أم وخلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً « ثم الله » الذي بدء الخلق « ينشيء النشأة الآخرة » ككل في كل ما بدء ، وكخاصة الإنسان وسائر المكلفين ، فه « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة » (٢٨: ٣١) « وهو الذي يبدء

٤٢ الجزء العشرون

الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه « (٢٧: ٣٠) » وأن عليه النشأة الأخرى « (٤٧: ٥٣) » ، وذلك الإنشاء إنما هو إنشاء الصور ، والمواد هي كما هي ، إنشاء للصورة الإنسانية مثل الأول لا عينه ، وإنشاء رجع الروح الى البدن في صورته المنشأة ، وإنشاء لليوم الآخر مكاناً وزماناً آخرين يختلفان عن الأول .

كل ذلك له ان الله على كل شيء قدير « سواء أكان كائناً فيقدر على تحويله أو إعدامه ، ام قبل كونه وهو ممكن التكوين وصالحه كالمادة الأولية ، ام غير صالح التكوين فلا يكونه لأنه خلاف الحكمة ، واما الممتنع التكوين ذاتياً فليس شيئاً حتى يبحث عن تعلق القدرة به وعدمه ، فانه الأشياء المطلق ، كما أن الله هو الشيء المطلق ، والأشياء الممكنة التكوين جوهرية ام ماهوية هي النسبية في الشيئية ، فقد تكون شيئاً لأنها كائنة بما كونها ، واخرى لأنها قابلة التكوين كالمادة الأولى (١) ، وهنا « فانظروا كيف بدء الخلق » عطف للنظر العقلي الى بدء الخلق وهو أصعب من الإعادة ، والسير في الأرض ، وهي هنا أرض التكوين بمختلف الأبعاد الفيزيائية والكيمائية ، ينتج أن الكون له بداية ، ولا بد للبادئ كونٌ خلاف كون المبدئ ، لا والد له ولا علة غير إرادية أم محصورة ، بل هو خالق خلق الشيء الذي كل الأشياء منه ، لا من شيء ، لا من شيء ولا من لا شيء ، أجل وإن السير في الأرض هنا سير فطري وعقلي وعلمي وحسي ، يفتح العين والقلب على كيان الكون ، لفتة عميقة إلى حقيقة أنيقة دقيقة حقيقية للإلتفات .

صحيح أن جل المخاطبين بهذا القرآن أو كلهم - سوى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهليه المعصومين عليهم السلام - لم يكونوا يعرفوا

(١) تفصيل البحث عن القدرة المذكور في سورة الملك ج ٢٩ من الفرقان على ضوء آية القدرة .

هكذا « كيف بدء الخلق » ولكن الذي يتمشى مع الدعوة القرآنية ككل ، هو انه توجيه لكافة المكلفين منذ نزول القرآن إلى يوم الدين ، كلاً على قدره ، حيث السير في الأرض آفاقياً وأنفسياً ، مما يبرهن « كيف بدء الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة » ، و « إن الله على كل شيء قدير » .

﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ ٢١ .

له المشية العادلة فـ « يعذب من يشاء » والمشية الفاضلة « ويرحم من يشاء » وإليه لا إلى سواه « تَقْلَبُونَ » عن هذه الحياة الدنيا إلى الأخرى ، لا فقط قلباً حياة إلى حياة ، بل وقلباً عن ظاهرها إلى باطنها ، وعن اختيارها إلى اضطرارها ، وعن أعمالها إلى نتائجها ، وعن كل ما تتطلبه الأولى ، إلى طلبات الأخرى « والله الآخرة والأولى » - « وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون » (١٠ : ٣٠) .

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ٢٢ .

« إليه تَقْلَبُونَ » شئتم أم أبيتم إذ أنتم لا تَغْلِبُونَ « وما أنتم بمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » رَبُّكُمْ ، لا في الأولى أَلَّا تَقْلَبُوا ، ولا في الأخرى أَلَّا تَعَذَّبُوا ، فالأرض والسماء صيغة أخرى عن الكون كله هنا وهناك ، فلا تعجزون الله تفلتاً عن مُلكه : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إِلَّا بِسُلْطَانٍ » (٥٥ : ٣٣) ولا تعتأ عن مُلكته وإرادته : « وما لكم من دون الله من ولي » يلي أموركم هنا وهناك « ولا نصير » ينصركم عن بأس الله .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَهِيمُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ٢٣ .

كفراً بآيات الله آفاقية وأنفسية ، الدالة على ربوبيته الوحيدة غير الوهيدة ولقاء لثواب الله « أولئك » البعيدون عن منافذ المعرفة الربانية « يشوا من رحمتي » في الدنيا والآخرة ، فالؤمن بآيات الله ولقائه لا ييأس من رحمة الله « وأولئك لهم عذاب أليم » هو أبد الخلود في الجحيم .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ٢٤ .

« فما كان جواب قومه » بعد هذه الحجج البالغة « إلا » جواب كل أحق نكد : « أن قالوا اقتلوه » بأية قتلة « أو حرقوه » وهي شر قتلة ، إذ حرق أكبادهم حين كسر أصنامهم ، إذا فحرقه بحرقه ، ولكن « فأنجاه الله من النار » في ذلك المسرح الخطير قائلاً : « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » (٢١: ٦٩) .

هنا « اقتلوه أو حرقوه » وفي أخرى « قالوا حرقوه » (٢١: ٦٨) وعلى الجمع انهم عزموا في البداية على قتله ، ثم على إحراقه لأنه أشد وأنكى ، أم كانوا مفترقين بين قتله وحرقه ، فتغلبت الفرقة الأخرى ، وعلى أية حال عزموا على إحراقه فألقوه في الجحيم .

« إن في ذلك » الحجاج ، وخلفية اللجاج « آيات » ربانية « لقوم يؤمنون » آية لكون الرب ، وآية لكيان الربوبية ، وآية للرسالة الصادقة ، وآية للعاقبة الصادقة ، آيات مع بعض وتلو بعض « لقوم يؤمنون » بالله وبآياته « ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » .

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ٢٥ .

« وقال » هنا بعد « فأنجاه الله » تلمح انها قالت له بعد نجاته :
 « إنما » ليس إلا « اتخذتم من دون الله أوثاناً » لا لأنها آلهة من دون الله ، ولا
 أنها شفعاءكم عند الله ، ولا أنها تنفعكم إذ تعبدون ، أو تضرركم إذ لا
 تعبدون ، بل « مودة بينكم في الحياة الدنيا » وهي منصوبة مفعولاً لها ، أم
 وبسبب الخافض بتقدير لام التعليل ، إذا فـ « مودة بينكم » سبب وغاية
 مقصودة في اتخاذ الأوثان .

ثم « بنيكم » قد تعني كل بين في هذا البين : بينكم والأوثان ، وبينكم
 وآباءكم الأقدمين ، بينكم ورثوس الإشرارك ، وبينكم التابعين ، حيث تودون
 الأوثان الذهبية والفضية أماهيه من الجواهر الثمينة وسواها ، وتودون آباءكم
 فتقلدونهم في ذلك الإتحاذ ، وتودون زعماءكم فتتبعونهم فيه ، وتودون بعضكم
 بعضاً وأوثانكم هي صلة المودة والوحدة ، وكل ذلك « مودة الحياة الدنيا » فلا
 اعتقاد هنا ولا إقتناع ، وإنما مجاملة ومعاملة دنيوية ، بسبب المودة فيها أم
 لغاية استبقاءها أو حصولها ، وهذه سنة بنيسة في الجماعات التي لا تأخذ
 الطقوس العبادية مأخذ الجد العقيدي ، وإنما هي مصلحة الحفاظ على صالح
 الحياة الدنيا دون ان تملك وراءها حقاً صالحاً للإتباع .

ولأنها « مودة الحياة الدنيا » وخلتها « والأخلاء يومئذ بعضهم لبعض
 عدو إلا المتقين » (٤٣: ٦٧) - « ثم » بعد مضي الحياة الدنيا « يكفر بعضكم
 ببعض ويلعن بعضهم بعضاً » ، فالآلهة تكفر بعبادتهم : « كلا سيكفرون
 بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً » (١٩: ٨٢) « ويوم القيامة يكفرون بشر
 كلكم » (٣٤: ١٤) .

والمتبوعون : « إذ تبرء الذين اتبعوا من الذين أتبعوا ورأوا العذاب
 وتقطعت بهم الأسباب » (٢: ١٦٦) .

وكلُّ يلعن الآخر وهم زملاء في الإشراك « كلما دخلت أمة لعنت أختها » (٣٨: ٧) .

ثم و « مأواكم النار » عابدين ومعبودين ، آباء وابناء ، أتباعاً ومتبوعين ، وزملاء في الإشراك ، وذلك ثالث العذاب : ١ يكفر بعضكم ببعض ويلعن ، ٢ وان مأواكم النار ، وهي مجمع كل الأوداء في الشرك ! ٣ وما لكم من ناصرين « مما اتخذتم أوثاناً من دون الله وسواها ، رغم ما جمعتم من جمعكم في ذلك الإشراك » مودة بينكم » .

﴿ فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ٢٦ .
« آمن له » ليست لتعني ما تعنيه « آمن به - آمن معه - آمنه » فكل من هذه الأربع تعني ما تخصه من معنى حسب نوعية التعدية كما هي قضية الفصاحة .

فـ « آمن به » هي كأصل الإيمان هو الإيمان بالله ، وكوسيط هي الإيمان برسول الله ، من آمنه ككل أمة ، ومن رسل برسول كمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) « لتؤمنن به ولتنصرنه » (٨١: ٣) فليس يؤمن رسول برسول حيث الرسالة هي بنفسها إيمان بالله دون وسيط ، اللهم إلا نجاء محمد وهو رسول الرسل ، و « آمنه » جعله في امن هو خاص بالله وهو « المؤمن المهيمن . . » وهو مجازياً ان تؤمن خائفاً عما يخاف ، لا أن تجعله في أمنك كما الله .

و « آمن معه » تعني معية الايمان بالله كما الإسلام معه « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » (٤٤: ٢٧) - « وما آمن معه إلا قليل » (٤٠: ١١) .

و « آمن له » هو ايمان بالله لرسول يدعو إلى الله ، ايماناً لصالح الموكب الرسالي أن يصبح من أعواد الرسالة واعضاء الرسول ، بعدما كان مؤمناً

بالله ، وهكذا كان لوط (عليه السلام) مؤمناً بالله ، وبعد أن تعرّف إلى الرسالة القيمة لإبراهيم الخليل آمن له احتساباً لنفسه بإيمانه السابق من ذلك الموكب الرسالي السامي ، كما « فيما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون » (١٠ : ٨٣) بعدما ربطوا إيمانهم هذا بأن يرووا الله جهرة : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » (٣ : ٥٦) .

فقد كانوا مؤمنين بالله غير مؤمنين لرسول الله موسى ، ولا مصدقين في الطور ان الله هو الذي يكلمه حتى يروه جهرة يكلمه فحصل ما حصل .

وهذه الذرية هي المؤمنة من قبل بالله ، وهنا آمنوا لموسى أن انضموا إلى موكبه الرسالي ، وهنا تنحل المشكلة العضال في إيمان لوط ، أن كيف أرسل مع إبراهيم وكان مشركاً من ذي قبل ؟ فأنما أرسل معه بعدما آمن معه وكان مؤمناً بالله !

« وقال » عله لوط « إني مهاجر إلى ربي » مهاجر ، أم إنه إبراهيم نفسه كما في أخرى : « إني ذاهب إلى ربي سيهدين » (٣٧ : ٩٩) ولأن كل رسول مهاجر إلى ربه في رسالته بل وكل مؤمن ، فقد تعني « فقال » لوطاً وإبراهيم ، ولكنه مهاجر مع إبراهيم كما آمن معه ، مهاجرة بمعيته كرسالته معه دوغماً انفصالية في ذلك المثلث البارع، إيماناً ورسالة ومهاجرة إلى ربه في سبيل تحقيق الإيمان الرسالي والرسالة الإيمانية ، وعلى حد المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « سيهاجر خيار أهل الأرض هجرة بعد هجرة إلى مهاجر إبراهيم عليه السلام » (١) .

(١) الدر المنثور ٥ : ١٤٤ - اخرج ابن عساكر عن ابن عمر ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ...

إن المهاجرة الإبراهيمية ما كانت فحسب عن وطنه إلى غيره ، بل انها مهاجرة عمن سوى الله بكل كيانه ، ومنها مهاجرة قومه بعد أن لم يبق له رجاء ان يفيثوا إلى الهدى على أية حال ، ولقد عوضه الله عن هذه المهاجرة الرسالية ، ذرية تمضي فيها رسالات الله منذ اسماعيل واسحاق ويعقوب وإلى كل الرسل الإسرائيليين وخاتم المرسلين ، وهنا المذكورون هم الأولون في آيات عدة ثم الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : « اتل ما اوحى اليك ... » (٤٥) :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ٢٧ .

وهبة ربانية منقطعة النظير « وجعلنا في ذريته النبوة » ومن المذكورين هنا صراحاً « اسحاق ويعقوب » وبأحرى اسماعيل جد الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو بكر ذريته كما هو صراح آيات اخرى ، « وآتيناه أجره في الدنيا » في نصرة رسالية مستمرة فيه وفي ذريته الرسل « وانه في الآخرة لمن الصالحين » السابقين والمقربين منذ آدم الى خاتم النبيين صلوات الله عليهم اجمعين .

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن

كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ اَنْصُرْنِيْ عَلَى الْقَوْمِ
 الْمُفْسِدِيْنَ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا اِيْرَهِمِ الْبَشْرٰى
 قَالُوْا اِنَّا مُهْلِكُوْكُمْ اَهْلِيْ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ اِنَّ اَهْلَهَا كَانُوْا
 ظٰلِمِيْنَ ﴿٣٠﴾ قَالَ اِنَّ فِيْهَا لُوطًا قَالُوْا تَحْنُ اَعْمٰى بِمَنْ فِيْهَا
 لَنُنَجِّيَنَّهُ وَاَهْلَهُ وَاِلَّا اَمْرًا نَّكَانَتْ مِنَ الْغٰثِرِيْنَ ﴿٣١﴾
 وَلَمَّا اَنَّ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا مِّنْۢ بَيْنِهِمْ وَضَعُوْا يَدَآ
 وَاقَالُوْا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ اِنَّا مُنْجُوْكَ وَاَهْلَكَ اِلَّا اَمْرًا نَّكَ
 كَانَتْ مِنَ الْغٰثِرِيْنَ ﴿٣٢﴾ اِنَّا مُنْزِلُوْنَ عَنۢ اَهْلِيْ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ
 رِيْحًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوْا يَفْسُقُوْنَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ تَرَكُنَا
 مِنْهَا اٰيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ ﴿٣٤﴾ وَاِلٰى مَدْيَنَ اٰخَاهُمْ
 شُعَيْبًا فَقَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوْا اللّٰهَ وَارْجُوْا الْيَوْمَ الْاٰخِرَ
 وَلَا تَتَّبِعُوْا فِى الْاَرْضِ مُفْسِدِيْنَ ﴿٣٥﴾ فَكَتٰوهُ فَاَخَذَتْهُمُ
 الرَّجْفَةُ فَاَصْبَحُوْا فِى دَارِهِمْ جٰثِيْعِيْنَ ﴿٣٦﴾ وَعَادًا وَثَمُوْدًا
 وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّنۢ مَّسْكِنِهِمْ وَاَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ

أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٢٨﴾
 وَقَرُّونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَزْنُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ
 فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٢٩﴾ فَكُلًّا
 أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن
 أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَفَقْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن
 أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
 يَظْلِمُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ وَلَوْ طَأَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَاقُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ
 الْعَالَمِينَ ﴾ ٢٨ .

لقد كانت فاحشة اللواط في قومه لحدّ تطلبت النهي والتنديد في بازغ
 الرسالة قبل النهي عن الإشرارك بالله ، وكما نراه في كل الآيات التي تذكر
 رسالة لوط (عليه السلام) .

و « الفاحشة » هي كل معصية متجاوزة حدها كما أو كيفاً أو فيها ،
 تجاوزاً حد العصيان ام الى غير العاصي ام فيها ، واللواط بينهم كان فاحشة
 ككل ، إذ أصبح سنة فيهم مستمرة متداولة ، و « ما سبقكم » ليست في
 أصل اللواط ، بل في السباق فيه والهرعة الجماهيرية إليه ، و « أحد من
 العالمين » تعني عالم الإنس والجن وسواهما من المكلفين ، لا كأفراد ، بل
 جماعات وكتلات ، فاحشة منقطعة النظر هكذا بين العالمين .

سورة العنكبوت / آية ٢٨ - ٤٠ ٥١

﴿ أَتُنْكُم لِّتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ٢٩ .
إتيان الرجال هنا معروف أنه اللواط ، فأما « وتقطعون السبيل »
الواقعة بين اتيان الرجال واتيان المنكر الذي يشمله وسواه ، هذا قد يعني كل
سبيل مأمور بسلوكه ومنها سبيل تشكيل العائلة ، فاتيان الرجال أحياناً قطع
أحياني لهذه السبيل ، وأما اتيانهم كعادة مستمرة منحصرة في شهوة الجنس ،
فهو قطع باتٍ لسبيل الإيلاد ، فقد كان فاحشة متجاوزة إلى هذه السبيل ،
قاطعة لها عن بكرتها ، مما يضخم بُعد الفاحشة لأبعد الحدود ، ثم و « تأتون
في ناديكم المنكر » ومنه منكر اللواط يجعله في ثالوث منحوس ما أنحسه :
لواط يُقطع به سبيل الإيلاد ويؤتى به في النادي المجتمع .

ثم من السبيل هي سبيل المارة قطع السلب للأموال والأعراض ،
وقطع الإستجلاب للفاحشة ، كما من المنكر كل المنكرات القرينة لهذه
الفاحشة المعلنة الجماهيرية من رقص وموسيقا وميسر وخمر واضرابها من
منكر .

فالزنا على فحشاءها لا تقطع السبيل كأصل قاطع ، إذ قد يجتمع مع
الإيلاد السفاح الإيلاد من النكاح ، أم وإذا اختص بالسفاح فليس قطعاً إلا
لسبيل الحل من الإيلاد دون قطع قاحل يبحث النسل عن بكرته .

ولكن تعود اللواط يقطع سبيل الإيلاد ، وسبيل تأسيس العائلة عن
بكرته ، هدرًا لنطف الرجال دون أي انتاج ، إذاً فهو أفحش من الزنا ، كما
وحده أحد منها ، وقد أمطرت قوم لوط بحجارة من سجيل : « قالوا إنا
أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين » (٥١ : ٣٣) .

واللواط تخلف قاحل عن الفطرة ، فقد تفسد الفطرة بتجاوز حد
الإعتدال مع المرأة فهي فاحشة داخلية في نطاق الفطرة مهما تخلفت فيها عن

الشرعة ، وأما اللواط فهو انخلاع عن شرعة الفطرة وشرعة الدين معاً ، وفساد في التركيب العضوي ، تخلفاً عن خط الحياة الجنسية عن بكرتها .
« فما كان جواب قومه إلا » قوله التحدي السافر الساخر « أن قالوا ائتنا بعذاب الله » الذي تعدنا « إن كنت من الصادقين » في دعواك تبجحاً في وجه الإنذار ، ما لا يُنتظر فيه أوبة فـ:

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ٣٠ .

وهي قالة الإستنصار في حالة الإضطراب وقد استضعفه ، فلا دواء لداءهم إلا الكي ، نصرة على كفرهم وتحديهم الساخر أن يسخر منهم عذاب الله ، فإذا هو يبشرى العذاب :

﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ ٣١ .

جئته مبشرة إلى إبراهيم لأنه الذي تدور عليه رحي هذه الرسالة ، وما لوط إلا فرعاً منها في قضاء سدوم ، وقد برهنوا إهلاكهم لهم بأنهم كانوا ظالمين ، مستمرين في ظلمهم المتهتك لكل ستر رباني على الحرمات ، ظلماً بالرسول وظلماً بالرسالة ، ظلماً بالفطرة وظلماً بالإنسانية ككل .

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّه وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ ٣٢ .

« إن فيها لوطاً » إخبار في تساءل حيطة على حياته ، واطمئناناً بنجاته ، وهم طمأنوه بنجاته وأهله إلا امرأته إذ كانت من الغابرين .

وقد يعني من ذلك الإستعفاء عن قوم لوط لكرامته وهو فيهم كما في هود « فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب . يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء امر ربك

وانهم آتاهم عذاب غير مردود» (٧٦) ف « لا أعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم .. » (١)

والغابر هو الماكث بعد مضي ما هو معه ، إذ مكث في الظلم مع ما مضى عليها من عمر طائل وما معها من جو الوحي والتنزيل ، وذلك مما يضخم الجريمة ، إذا فهي من الغابرين في العذاب إذ كانت من الغابرين في سبب العذاب .

﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ ٣٣ .

ولماذا « سيء بهم وضاق بهم ذرعاً » وهم رسل الله ، حاملين بشارة العذاب من الله ؟ لأنه ما عرفهم إلا أنهم شباب صباح ملاح ، وهو يعلم شئنة قومه ، فجيثتهم اليه - إذا - جيئة فجيدة خوفاً من قومه المجرمين : وإلى م تعطف و « قالوا » وهي استئناف لقولهم هنا ؟ إنها عطف على محذوف من قولهم معروف من هوذا : كما في علوم القرآن .

« ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم

(١) نور الثقلين ٤ : ١٥٧ في إلحادي بسند عن أبي زيد الحماد عن أبي عبد الله (عليه السلام) في تفصيل القصة فقال لهم إبراهيم : لماذا جئتم ؟ قالوا في أهلاك قوم لوط ، فقال لهم : ان كان فيها مائة من المؤمنين اتهلكونهم ؟ فقال جبرئيل (عليه السلام) : لا - قال : فان كان فيها خمسون ؟ قال : لا - قال : فان كان فيها ثلاثون ؟ قال : لا - قال : فان كان فيها عشرون ؟ قال : لا - قال : فان كان فيها عشرة ؟ قال : لا - قال : فان كان فيها خمسة ؟ قال : لا - قال : فان كان فيها واحد ؟ قال : لا - قال : فان فيها لوطاً قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجيه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » قال الحسن بن علي عليهما السلام : لا أعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم وهو قول الله عز وجل « يجادلنا في قوم لوط » .

عصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تحزوني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد . . قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا أمرأتك إنه مصيها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هي من الظالمين يبعيد « (١١: ٧٧ - ٨٣) ولماذا أصاب امرأته ما أصابهم ولم تكن فاعلة فحشاءهم ؟ لأن الدال على الشر كفاعله ، وقد كانت تدلهم على ضيوف لوط وسواهم ، إضافة الى كونها مشركة فاستحققت ما استحقوه .

﴿ إِنَّا مَنَزَلُونَا عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ٣٤ .

وذلك الرجز هو حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمجرمين كما فصلت في هود وسواها مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ٣٥ .

و « آية بنية » من قرية سدوم ، تبين أنها كانت حتى زمن نزول القرآن بيئة ظاهرة للمارة كما « وانها لسبيل مقيم » (١٥: ٧٦) « وإنكم لتمررون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون » (٣٧: ١٣٧) ولكنها اليوم مجهولة لا أثر عنها معروفاً ، وعليها غمرت في بحر لوط ، ولا يعني تركها أنها متروكة للناظرين مع الأبد .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْشَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ ٣٧ .

« اخاهم » هنا قد تعني أخوة النسب أو السبب إلى جانب الأخوة الوطنية والإنسانية ، إشارة إلى أنه كان عشيرهم عمراً من قبله ، معروفاً عندهم بالأمانة والصلاح ، مما تزيد حجة الآية الرسالية نصوعاً ونُضوحاً .
وحصيلة دعوته الرسالية هي عبادة الله لا سواه ورجاء اليوم الآخر على ضوء الإيمان ، ثم « ولا تعشوا في الأرض مفسدين » أيّاً كان الإفساد فيها وآيان ، والعمدة في إفسادهم بعد العقيدي منه هو البخس في المكيال والميزان ، إفساداً اقتصادياً تهدم به العيشة الجماعية ، خلقاً للطبقية العارمة الظلمة ، « فأخذتهم الرجعة » بديارهم « فاصبحوا في دارهم جائعين » : قاعدين باركين على الأرض ميتين .

﴿ وَعَادَا وَنمودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصدَّهمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ ٣٨ .
وليس فقط يزین سوء الأعمال فيرونها حسناً ، بل وحُسنها حيث يزینها لهم أكثر مما هي ، فيغترون بها ولا يبالون بما يعترضهم من سوء : « ولا يغرنك تزيينه الطاعات عليك فانه يفتح لك تسعة وتسعين باباً من الخير ليظفر بك عند تمام المائة ، فقابله بالخلاف والصد عن سبيله والمصاداة باستهوائه » (١) .

فكلما يزينه الشيطان من أعمال خيرة وشريرة ، هي ذريعة للصد عن السبيل ، فحذار حذار من تزيينه وتسويله كيلا تقعوا في فخه وأنتم تحسبون انكم تحسنون صنعاً وانتم مستبصرون تطلبون البصيرة ، وتعمى عليكم المسالك بما زين لكم الشيطان أعمالكم ، فانتم - إذاً - من الأخسرین اعمالاً « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

(١) مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) بعد ان ذكر الشيطان : . . .

وقد تعني « وكانوا مستبصرين » أن عاداً وثمود كانوا قبل أن « زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل » كانوا على بصارة وهدى فطرية وعقلية ، أم وشرعية ، إلا أنها ما كانت ناضجة قوياً ، وعلى أية حال فمسرّح التزيين من الشيطان خطير خطير ، لا ينجو منه إلا من عصمه الله وهداه ، وهو التارك هوأه إلى هده إلى الله « ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » .

﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ ٣٩ .

ذلك الثالث المنحوس ، القارونية الفرعونية الهامانية « استكبروا في الأرض » كل على حده ومذه ، استكبار الشراء والسلطة الملكية والوزارة الفرعونية ، ولكنهم مهما زعموا وأبرقوا وأرعدوا وعربدوا « ما كانوا سابقين » على مشيئة الله :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ٤٠ .

« فكلأ » من هؤلاء واضرابهم في الإستكبار « أخذنا » « بذنبه » هنا ، وأخذهم في الأخرى أخزى « فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً » وهم قوم لوط : « إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط » (٣٤:٥٤) فالحاصب - إذا - حجارة من طين « ومنهم من أخذته الصيحة » ومنهم ثمود « إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » (٣١:٥٤) ومنهم عاد : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين » (٩٤:١١) ومنهم أصحاب ياسين بانطاكية إذ

سورة العنكبوت / آية ٤١ - ٦٩ ٥٧

كذبوا المرسلين : « إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون » (٢٩: ٣٦)
« ومنهم من خسفنا به الأرض » كقارون « فخسفنا به وبداره الأرض »
(٢٨: ٨١) « ومنهم من أغرقنا » كقوم نوح وفرعون .

« وما كان الله ليظلمهم » بما أخذهم بذنوبهم « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » لم يظلمهم الله ولا هم ظلموا الله وإنما ظلموا أنفسهم بما استكبروا
فأخذوا هنا اخذة طفيفة بما ظلموا .

وهذه العذابات الأربع : بالصيحة وهي هواء متموج سريعة الإيقاع ،
قرعاً للأذان وإلى الأعماق ، وبالحاصب : حجارة من طين تبدل ناراً بسرعة
الإرسال ، وبالحسف: غمرأ في التراب ، وبالإغراق في الماء ، هذه هي
العناصر المخلوق منها الإنسان وهي الأربعة الشهيرة مهما كانت كل واحدة
تتضمن على جزيئات وذرات ، فقد أخذوا عذاباً بما خلقوا من رحمة ، وما
عذابهم إلا صورة واقعية من اعمالهم فـ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟

فهؤلاء هم الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، اصناماً وأوثاناً وطواغيت ،
وإليكم مثلاً واحداً في هوانهم هو العنكبوت ، فكما بيته أوهن البيوت كذلك
بيوت الإشرار أياً كانت هي كبيت العنكبوت :

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ

كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ

الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ

مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ

الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾
 خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتُلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ
 الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ
 اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ * وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ
 الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
 وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ الْبُكْرَ وَالْأُنْثَىٰ
 وَالْهَكَمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنزِلَتِ
 إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ
 بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا
 الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا
 تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَّا زَنَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَةٌ
 بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا
 إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

قُلْ إِنَّمَا أَلَاَيْتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٩﴾ أَوَلَمْ
 يَكْفِهِمْ أَنَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنِي
 وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦١﴾
 وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ
 الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٢﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ
 بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٦٣﴾ يَوْمَ
 يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ
 ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٤﴾ يٰٓعِبَادِیَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّا
 أَرْضِیْ وَاسِعَةٌ فَلْيَنِّیْ فَاعْبُدُونِ ﴿٦٥﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَٰقَةُ الْمَوْتِ
 ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
 فِيهَا نِعَمٌ أَجْرٌ لِّلْعَمَلِينَ ﴿٦٧﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَانَ مِنْ دَآئِبِهِ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا
وَلَا يَأْكُرُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَضَعَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ
فَإِنِّي يُؤْفِكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ
مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾
وَمَا هِيَ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ
لَهُى الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ
دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ
يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَطَّفُ النَّاسُ
مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا

جَاءَهُمُ الْيَسَّ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ
جَاهِدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ
أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ١ .

كل بيت انما يتخذ للرياح بيتوته وسواها ، آوياً أم ثاوياً ، فالبيت
ملجأ وماوى ومثوى ، وهنا مثل المشركين بالله كمثال العنكبوت ، ومثل توليهم
من دون الله مثل بيت العنكبوت ، وكما « إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو
كانوا يعلمون » كذلك أوهن الأولياء هم الأولياء من دون الله « لو كانوا
يعلمون » وللعنكبوت فضلها عليهم إذ تعبد الله ولا تتخذ بيتاً كولي من دون
الله ، فاين - إذا - بيت من بيت وثاوي من ثاو ، والمرغوب من المثل ليس إلا
البعض في الممثل به وهو هنا الوهن .

فكل خط او خيط سوى خيط الله وخطه هو كخيط العنكبوت ، لا
يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً ، اللهم إلا مكيدة الإصطياد لبعض الحشرات
طعمة للعنكبوت ، وكما يصطاد الذين يدعون من دون الله ضعفاء العقول .

وكما لا يحصل للعنكبوت أي حاصل من بيته كبيت كذلك لأمثاله من
الذين يدعون من دون الله لا يحصل أي حاصل من ولاية ، بل هم خاسرون
مهما لم يخسر العنكبوت من بيته !

فالولاية حقها إنما هي لله ليست لسواه ، لا تكوينية ولا تشريعية ، إلا
ولاية شرعية فرعية كما يأذن الله لحَمَلَة شرعته إلى العالمين ، فه الذين اتخذوا
من دون الله أولياء « ليسوا هم فقط عبدة الأوثان والطواغيت ، بل وعبدة

الملائكة والنبين وسائر الأولياء المكرمين ، لا فحسب بل والمسلمون الذين اتخذوا النبي أو الولي ولياً من دون الله ، وكالة أو نيابة عن الله ، أم مستقلاً بجنب الله ، كل اولاء مثلهم « كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهرن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون » مهما اختلفت دركات ذلك الإلتحاذ إلحاداً في الولاية أو إشراكاً قل أو كثر ، إذ لا ولي إلا الله ، أم من ولّاه الله حملاً لشريعته ، لا تكوينية ولا تشريعية ، قوة الله هي وحدها القوة ، وولايته هي وحدها الولاية ، وما عداها واهن ضئيل ، مهما خيل إلى الهائمين في سائر القوات والولايات أنها قوة أو ولاية ، فهي كبيت العنكبوت ، حشرة ضعيفة ضئيلة ، واهنة رخوة ، لا حماية لها من تكوينها ولا وقاية لها من بيتها الأوهن « لو كانوا يعلمون » تلك المماثلة المائلة بين أيديهم ، و« لو » هنا تحيل لهم ذلك العلم لعمق التجاهل وحمق التساهل ، فامتناع علمهم هذا مسنود إلى تقصيرهم المختار والإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار . وهل في الحق إن بيت العنكبوت أوهرن البيوت على الإطلاق ، وحتى من بيوت الجرائيم غير المرئية بالعيون غير المسلحة؟ عله نعم سناداً إلى عموم « البيوت » وعله لا حيث « البيوت » هنا هي التي ترى ، متناولة لكل راء ، دون ما لا ترى .

فأمثل الأمثال فيما يرى للذين اتخذوا من دون الله أولياء هو العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن حياة العنكبوت العجيبة ، المنضدة المنظمة ، مما تجلب النظر وتجذب إلى الله الذي خلقها ، ولا يعني ذلك المثل تنديداً بالعنكبوت وبيته ، بل القصد فقط تنظير ما يتخذ من دون الله من أولياء في وهره بيت العنكبوت ، وأما هو كخلق مما خلق الله ، بالغريزة البارعة في نسج بيته ، هو في ذلك الحقل من آيات الله البيّنات الدالة على كمال قدرته .

نسوج العناكب

فما تحير العقول وتقنعها باستحالة الصدف في الخلق نسوج العناكب ،
فدقة التنظيم والترتيب التي كشف عنها أبحاث العلم الحديث في ميادين
عديدة تدعو للعجب والتأمل والتفكير ، فقد كشف بعض العلماء الألمان عن
أن بعض العناكب تنسج خيوطاً دقيقة جداً ، إذ إنها تنسج بيوتها من خيوط ،
كل خيط منها مؤلف من أربعة خيوط أدق منه ، وكل واحدة من هذه الخيوط
الأربعة مؤلف من ألف خيط ، وكل واحد من الألف يخرج من قناة خاصة في
جسم العنكبوت وهذا يعني أن كل خيط ينقسم إلى $(4 \times 1000 = 4000)$
خيوطاً .

وذكر بعض العلماء الألمان الباحثين في هذا الميدان : أنه إذا ضُم أربعة
بلايين خيط (4000000000) بعضها إلى بعض ، لم تكن أغلظ من شعرة
واحدة من شعر لحيتته ، مع العلم أن متوسط شعر اللحية لا يتجاوز ١.٥
مليمترًا وبذلك فإن قطر مقطع الخيط الذي تنسجه العنكبوت يساوي (١)
على $(40,000,000,000)$ من المليمتر وإن الكيفية التي خلق الله بها في
جسم العنكبوت ألف ثقب يخرج منها ألف خيط في آن واحد ، حيث يخرج
الخيط الدقيق فيجتمع كل ألف خيط في خيط أغلظ ، ومن الخيوط الجديدة
وتتجمع كل أربعة سوية لتشكيل خيط أكبر ، وهكذا تتجمع الخيوط لتنشأ
مسكناً ومصيدة للعنكبوت ، وإنها لتدعو العاقل والعالم والمؤمن إلى التفكير في
عظمة الخالق ، وهذا ما يقول الله تعالى : «وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت
لو كانوا يعلمون » وقد أثبت البحث العلمي من تحليل وتجزئة حقيقية وهن
بيت العنكبوت ، فقد تجاوزت خيوط العنكبوت الحد المعروف في الدقة
وتناهت في التجزئة وجاءت برهاناً ساطعاً على النظام البديع والإتقان الفائق

للصنعة الإلهية^(١) كما جاءت مثلاً يندد بالذين يدعون من دون الله أولياء .

ترى هنالك خيوطاً متينة بشبكات محكمة الوضع هندسية الشكل ، لحد
لو اجتمع كل نساج وغزال في الدنيا وقولت صناعتهم بصناعات العنكبوت
لفاق هذا الحيوان كل غزال من الإنسان .
ومادة هذه الخيوط خفيفة الوزن للغاية ، فرطل منها يكفي ان تطوق به
الكرة الأرضية كلها !

العنكبوت البناء

كل عنكبوت في الدنيا غزال ونساج ، وبعض أنواعها تبني منازل
يشاهدها الناس في أماكن كثيرة بحجم (الكستبان) يقفلها من الداخل بقفل
لم يقف على كنهه أحد من علماء الحشرات ، حتى يأمن من دخول كل عدو
مهاجم أو سارق ، سبحان الخلاق العظيم !

عناكب البساتين

وهنا نوع من العناكب تسكن البساتين ، فتضطر إلى الانتقال من
شجرة إلى أخرى ومن غصن منها إلى آخر ، ولتسهيل التنقل تبني قنطرة بين
الشجرتين ، أو عشى بين الغصنين ، هي خيط واحد يخرج من فمه من
لعابه ، إذا لامس الهواء جمد ، فيمتد فيه بعد تثبيت أحد طرفيه ولا يزال
الطرف الآخر يغدو ويحيى حتى يمسك بورقة أو غصن فتتمر عليه العنكبوت ،

(١) يوسف مروة اللبناني في كتابه : العلوم الطبيعية في القرآن .

وبذلك تسهل المواصلات وتنجو من الخطرات والمفاجآت (١) .

إن العناكب - ككل - تنسج نسجها بمؤخر أرجلها دون حاجة إلى النظر بعينها فإذا قطعت خيطانها قبل الغروب ثم نظرت لها عند شروق الشمس في اليوم الثاني رأيت شبكتها منسوجة كما كانت ، وهي تأتي بقطع صغيرة من الأحجار والخشب فتضعها على نسجها حفاظاً له من التكسر وإطاعة الرياح الهابئة والأعاصير والزعازع ، وإنها تبحث عن صمغ وغراء من أماكنها في أشجارها وتلطخ بها خيطانها وشبكتها لتكسبها لزوجة فلا تتمزق إذا فاجأتها

(١) ومن ذلك ما حكى أنه وضعت عنكبوت على عود في ماء قريب من شاطئ جزيرة فنزلت من أعلى العود إلى أسفله فوجدت الماء محيطاً بها فرجعت إلى أعلى ثم أخذت تفكر في حيلة تهتدي بها إلى النجاة فغزلت خيطاً واثبتت أحد طرفيه في رأس العود ولا زال الطرف يغدو ويروح حتى أمسكت بغصن من الشاطئ الآخر فسارت عليه حتى نجت سالمة .

وهذا النوع البستاني من العناكب تنسج على الأغصان والأوراق شبكة عجيبة تقتنص بها الذباب وغيرها ، فتتخذ بها مركزاً تقيم فيه وتمد خيوطها إلى جميع الجوانب ، فشكل اطرافها يحيط ذلك على الأوراق والأغصان ، وتلك الخيوط أقطارها والعنكبوت رسامها وغازلها وناسجها ومهندسها والصائد بها ، وما أشبه تلك الخيوط بأعمدة العجلة (البسكليت) فإذا حكمت تلك الأعمدة بخيوطها المجدولة أخذت العنكبوت تجدل خيوطاً أخرى فأدارتها على هذه وربطتها ربطاً وثيقاً محكماً عليها مع التناسب في الوضع والإحكام والهندسة بحيث ترى بين كل خيطين من تلك الأعمدة وآخرين من الملفف عليها مسافات متساويات هندسية ومنها تكون شبكة للصيد عجيبة الصنع جميلة الوضع ، وهذه الشبكة قلدها الإنسان في صيد السمك للقوت وفي صنع زينة منسوجة من الحرير منقوشة مرصعة بالحلي اهتدى لها الإنسان المتمدين بعد الآلاف من السنين تفتخر به الفتيات الأفرنجيات في اتقان الصنعة وحسنها (تفسير الجواهر للشيخ الطنطاوي ١٤٣: ١٤٤ - ١٤٤) .

الرياح وهاجت عليها الأعاصير ، وإذا مر بها الذباب إلقتقطته بمادتها اللزجة ولم يؤثر على الشبكة حركتها^(١) ، ذلك طرف من إتقان العنكبوت في هندسة بيتها على أنه أوهن البيوت ، وضرب المثل هنا جاء من واجهة وهنه دون إتقانه ، وإذا كان أوهن البيوت المبنية بالغريزة الحيوانية بذلك الإتقان فكيف يكون - إذاً - أقوى البيوت ؟

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^٢ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ^٣ .

ولأنه يعلم تماماً ما يدعون من دونه من شيء ، فإنه هو الذي خلقها ، لذلك يحكم أنها كبيت العنكبوت أوهن البيوت ، لا وهناً في خلقه كفعله تعالى ، وإنما وهناً لكل مخلوق أمام الخالق العزيز الحكيم ، مهما كان من الإتقان ما يجير العقول .

و « ما » هنا تحتل أنها موصولة أو استفهامية أو مصدرية أو نافية ، ولكن « من » تنفي كونها نافية إلا إذا كانت زائدة ولا زائدة في القرآن بلا عائدة ، وحتى إذا كانت للتأكيد فالمعنى أن الله يعلم أنهم لا يدعون من دونه شيئاً أبداً ، رغم أنهم يدعون من دونه كل شيء حتى الموحدين غير الحقيقيين فضلاً عن الملحدين والمشركين .

ثم الثلاثة الأول قد تكون كلها معنية ، فهو يعلم الذي يدعون من دونه من شيء ، ويعلم ماذا يدعون . . ويعلم الدعوة من دونه ، علماً شاملاً لا يُبقي كائناً ولا يذر إلا ويشمله بكمه وكيفه ، بزمانه ومكانه ، بكونه وكيانه ، وذلك قضية عزته وحكمة « وهو العزيز الحكيم » وقد يعني النفي في « ما » بتأكيد « من » أنه يعلم أنهم لا يدعون من دونه من شيء ، إنه ليس شيئاً يدعى من دون الله ، فإن شيئاً ليس إلا عارية من الله دوناً استقلالاً

(١) المصدر ناقلًا عن كتابه جمال العالم .

فكيف تدعى من دون الله ، وهذا وإن كان في نفسه صحيحاً ولكن الصيغة الصالحة له صحيحةً فصيحةً هي « يعلم انهم لا يدعون من دونه من شيء » إلا ان عنايتها ضمن الثلاثة الأولى لا بأس بها ، فعل الأربعة كلها معنية ، وبها لها من جماع العلم المحيط لله « سبحانه وتعالى عما يشركون » .

وإن الأمثال المضروبة للناس في هذا القرآن بالغة لحد من التمثيل منقطع المثل أنها « ما يعقلها إلا العالمون » فرغم ان جماعة من المشركين المجاهيل يتخذونها مادة للسخرية والتهكم قائلين : ان رب محمد يتحدث عن الذباب والبعوضة والنحل والعنكبوت ، « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً » (٢٦ : ٢٧) .

فالعالمون هناك هم المؤمنون هنا ، كما الذين لا يعلمون في آيات عدة هم الذين كفروا ، فالإيمان بالله ينزّل الأغشية عن الأبصار والبصائر فأصحابها يعقلون تلك الأمثال الحكيمية القرآنية ، كما والعالمون العلوم التجريبية يعقلون ، فان كانوا مؤمنين فاحرى وأكثر ، وان كانوا كافرين فقد يهتدون بها ان ارادوا الهدى ، حيث العلم بنفسه طريق الهدى إذا لم تخلطه الردى .

والعقل الحرّ ايا كان يعقل هذه الأمثال مهما كان مجرداً عن علم الإيمان وسائر العلم ، إذا فالعقلية الايمانية ، ثم العلمية ، ثم العقلية المجردة ، هي شركاء ثلاثة في ان تعقل هذه الأمثال دون اختصاص بعقلية الإيمان ، وإلا لم تعد هذه الأمثال تنفع غير المؤمنين ، والذين اتخذوا من دون الله اولياء هم الموجه لهم في الأصل ذلك المثل الأمثل ، تحريضاً لهم ان يعلموا الحق منه ومن أمثاله بالتعقل ، وما القولة الكافرة « ماذا أراد الله بهذا مثلاً » إلا جاهلة تخالف العقل .

فالأمثال المضروبة في القرآن ، فضلاً عن حقائقه المجردة ، إنما تُعقل بالعلم على درجاته ، علم الفطرة والعقل والإيمان وسائر العلم الذي به تكشف الحقائق حسب درجات الفاعليات والقابليات ، فالعلم أياً كان مستخدم لعقل الحقائق ، كلما ازداد ازداد عقلها فالإيمان بها ، فتلك الأمثال ليست مجرد تمثيلات شعرية ودعاوى خاوية ، بل هي حجج بدورها توضح الحقائق البعيدة عن العقول .

ولأن التفكير والتذكر هما من شئون العقل والعلم : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » (٢٥: ١٤) « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (٢١: ٥٩) فالعالمون - إذاً - هم الذي يتفكرون ويتذكرون ، علماً فتفكراً فعقلاً فتذكراً فإيماناً ! وعلى حد تعبير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « العالم الذي عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه »^(١)

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢)

« خلق » - « بالحق » - « الله » - « بالحق » - « السماوات والأرض » - « بالحق » - « بالحق » لها هنا تعلقات ثلاث ، والباء فيها بين سببية وغائية ومصاحبة ، فما السبب والغاية في خلقها إلا الحق ، دون باطل هازل ، وما هما في خلقها إلا مصاحبتين للحق .
فحق الخلق فيها مصاحباً اتقاناً ونظاماً بارعاً وتصميماً حكيماً قاصداً

(١) المجمع روى الواحد بالاسناد عن جابر قال : تلا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الآية وقال : ...

دون تفاوت : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » ذلك دليل أن خالقهما واحد عزيز حكيم .

وحق الخلق فيهما سبباً وغاية دليل حياتنا الحساب بعد الموت ، فإن هذه الضئيلة القليلة ، الفانية الهزيلة ، البالية البلية ، هذه لا تستحق ذلك الخلق الطائيل الحكيم : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » (٤٤ : ٣٩) .

كما وحق الخلق لهما كخلق ينفي الولاية عنهما وما فيهما وما بينهما كخلق ، فإين الخلق والولاية الخاصة بالخالق في الآخرة والأولى « والله الآخرة والأولى » ؟

إذاً « ان في ذلك لآية » التوحيد والمعاد والولاية « للمؤمنين » .
ولماذا فقط « للمؤمنين » وكافة المكلفين يكلفون بالنظر فيهما حتى يعرفوا حق المبدء والمعاد ؟ « المؤمنين » هنا هم الذين يؤمنون بالآيات البينات ، فمن الناس من يؤمن بها مهما كان ملجداً أو مشركاً ، إذ بقيت له منافذ المعرفة ، وهو يتحرى عن الحق المبين ، فهم من المعنيين مع سائر المؤمنين المتفتحة قلوبهم لآيات الله آتية وأنفسية ، المشوثة في تضاعيف ذلك الكون البارع وحناياه ، المشهودة في تنظيمه وتنسيقه ، المنشورة المشورة في جوانبه حيثما امتدت الأبصار ومدت البصائر والأفكار ، ومنهم من يحجد بها مهما كان مدعياً للإيمان ، فهم «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» - « وما يحجد بآياتنا إلا الكافرون » المتعتنون المتعندون الذين « جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلو » !

﴿ أَتُلُّ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ .

هنا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يؤمر - بعد عرض مسارح

الغابرين ومصارعهم - ان يتلو ما أوحى إليه من الكتاب ويقيم الصلاة ، معللة بانها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتأكيذاً أن ذكر الله أكبر « والله يعلم ما تصنعون » إزاحة لما تخالجه من صعوبات الدعوة لقوم لد ، فما هي تلاوة الكتاب ؟ وما هو نهي الصلاة ، وما هو هنا ذكر الله ، ومم هو أكبر ؟

التلاوة ليست هي - فقط - القراءة ، بل هي - ككل - متابعة الشيء أن يجعله أمامه وإمامه ، فهو يكون تابعه وخلفه كما « الشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها » (٢: ٩١) « ويتلوه شاهد منه » (١٧: ١١) حيث القمر لا يقرء الشمس ، وشاهد من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يقرءه ، وانما هي متابعة المأموم إمامه ، ان يجعله أمامه في كل الحقول والحالات أم في قسم منها مقسم حسب قضية الإثتمام والإمامة .

فـ « اتل » هنا دون « اتل عليهم » نعم تلاوة الكتاب لنفسه ان يجعله إمامه ، وتلاوة الكتاب عليهم ان يقرءه عليهم ليجعلهم تالين الكتاب ، والأولى هي الأولى في طبيعة الرسالة ، فما لم يتلوا الرسول ما أوحى اليه من الكتاب ائتماماً به ككل ، ليس عليه ولا له أن يتلوه عليهم ، حيث الأمر بائتمام الكتاب عليه ان يأتمر من قبل حتى يأمر .

فهو يتلوا في نفسه الكتاب تعليماً وتزكياً ، ثم « يتلوا عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » كما « ورتل القرآن ترتيلاً » فإن « رتل » تقتضي ترتلاً أولاً ثم ترتيلاً لآخرين ، وهو فيها تحريك القلب بالقرآن كما يروى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) (١) .

ثم « ما أوحى اليك » تختص التلاوة بما مضى وحيه ، ولأن « أتل » أمر

(١) حيث يسأله ابن عباس عن معنى الآية فقال : يعني حركوا به القلوب .

رسالي يستمر طول رسالته ، فقد أمر بها أن يتلو كلما أوحى إليه طول الزمن الرسولي ، ولأن وحي الكتاب مستمر حتى ارتحاله إلى جوار ربه ، فالتلاوة أيضاً مستمرة كوحي الكتاب ، فهو دائم في مثلث الوحي وتلاوته لنفسه وتلاوته عليهم ، وقد قرّرت هذه التلاوة ككل رسالته « وان اتلو القرآن » (٩٢: ٢٧) .

« واقم الصلاة » هنا لها أبعاد عدة ، صلةً إلى حال الرسول ، وتلاوته الكتاب ، فحاله التأذية من تعند قومه اللد تقتضي راحة وهي الحاصلة بالصلاة ، لأنها صلوات بالرب ، واطمئنان للقلب المتأرجف برجفات المتخلفين عن شرعة الله ، وهكذا « كان إذا غمه أمر استراح إلى الصلاة » ويُعدّ ثان أن أنتج ما تنتجه تلاوة الكتاب لنفسه وعليهم هو إقام الصلاة فانها عمود الدين ، و « أقم » هنا تجعل الصلاة مقامة بشروطها واجزاءها وأركانها ظاهرة فقهياً وباطنة معرفياً ، فقد تؤن الصلاة دون إقامة ، وهي الصلاة في سكر أم في كسل ذلك بأنهم : « لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى يراءون الناس » (٥٤: ٩) فهي صلاة قاعدة ، متخلفة عن القاعدة فيها وهي اقامتها ، وهي - في الحق - ليست إلا التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، مهما شملت الصلاة كل صلاة بريئة عن النفاق ، وقد جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : ان فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق ؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : انه سينهاه ما تقول « (١) وهذا من اقل ما تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر واقل منه ان « الصلاة حجة الله وانها تحجز

(١) الدر المنثور ٥ : ١٤٦ - اخرج احمد وابن حبان والبيهقي عن ابي هريرة قال جاء رجل . . . وفي نور الثقلين ٤ : ١٦٢ عن مجمع البيان وروي ان فقي من الأنصال كان يصلي الصلوات مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويرتكب الفواحش فوصف ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : ان صلاته تنها يوماً ما .

المصلي عن المعاصي ما دام في صلاته»^(١) ، وكضابطة ثابتة للصلاة « من صلى صلاة لم تأمره بالمعروف وتنهه عن المنكر لم تزد صلاته من الله إلا بعداً»^(٢) و « من أحب أن يعلم قُبلت صلاته أم لم تُقبل فليُنظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر فبقدر ما منعت قبلت صلاته»^(٣) ف« لا صلاة لمن لم يقطع الصلاة ، وطاعة الصلاة أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر»^(٤) .

فكما تقام الصلاة ، فهي بقدرها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فيها وهو أقلها ، وفي كافة الحالات عن كل دركات الفحشاء والمنكر وهو قمتها وبينهما متوسطات .

فملابس المصلي تنهى عن اغتصابها ، وطهارته عن تحبث وحدث تنهى عن التصرف في ظهور من غير حله ، وطهارته ككل تنهى عن التقدر ككل ، واستقباله القبلة تنهى عن استقبال ما سواها ، وأفعال الصلاة من قيام لله وقعود وركوع وسجود تنهى عن كل ذلك لغير الله ، وأقوال الصلاة تأمره أن يعتقد « لا إله إلا الله » ولا يعبد ويطيع إلا الله .

ونية الصلاة تنهى أن ينويها لغير الله شركاً جلياً ، أم خفياً أن يصلي رثاء الناس ، كما تنهى أن ينوي أية عبادة أم وسواها لغير الله .

(١) المصدر ١٤٥ - أخرج الخطيب في رواة مالك عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . .

(٢) نور الثقلين ٤: ١٦١ في كتاب التوحيد وقد روى عن الصادق (عليه السلام) أنه قال : . . . قال الله عز وجل : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

(٣) نور الثقلين ٤: ١٦٢ عن المجمع وروى أصحابنا عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : . . .

(٤) نور الثقلين ٤: ١٦١ عن المجمع وايضاً عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . .

كما وأهم من كل ذلك اتجاه القلب إلى الله حضوراً عنده في الصلاة ،
ينهاه عن كل فحشاء ومنكر قلبي قدر ذلك الحضور والاتجاه .
وكضابطة عامة قالت الصلاة وفعالاتها وحالاتها ، إذا كانت مُقَامَةً ،
إنها بأقذارها وحدودها تنهى عن الفحشاء والمنكر قالاً وفعالاً وحالاً ، « وان
ليس للإنسان إلا ما سعى » . فالصلاة بكل أحوالها وأفعالها وأقوالها تنهى
عن الفحشاء والمنكر ، انتهى المصلي بنهيها أم لا ، فقد تُنهي الفحشاء والمنكر
بما تُنهي وذلك لمن ينتهي ، وقد لا تنهى رغم ما تُنهي ، فالنهي - إذا -
طبيعتها ، والإنهاء قد يتخلف عنها فإنها تنهى دون تسيير وكما الله ينهى ورسله
والدعاة إليه تخيراً دون تسيير .

وحين تقام الصلاة بكل ما يتوجب فيها بظاهرها وباطنها ، وتكون
مزيجاً لنفس المصلي بظاهرها وباطنها ، إذا فهي تُنهي بنهيها الفحشاء
والمنكر ، من فحشاء العقيدة والأخلاق والأعمال والأقوال ، وهي
المتجاوزة حدها في التخلف عن شرعية الله ، أو المتجاوزة إلى غير العاصي ،
أم المتجاوزة في بعديها ، والمنكر هو كل ما تنكره الشرعة صغيرة وكبيرة ، وهو
هنا أدنى من الفحشاء .

ولأن جوهر الصلاة هي ذكر الله ، وسائر ما فيها إنما هي تعبئة وتقديم
لذكر الله ، إذا « ولذكر الله » - وهو الصلاة ككل - « أكبر » من ذكر غير الله ،
وغير ذكر الله ، كما وان « ذكر الله » في الصلاة غير التامة في الذكر ، انه أكبر
من سائر اجزاء الصلاة ، كما وهو أكبر من كل ذكر وذكر كل كما « واقم
الصلاة لذكرى » (١٤: ٢٠) فذكر الله هو الرادع عن الفحشاء والمنكر، وكلما
كان ذكر الله أكثر وأقوى ، كان نهي عن الفحشاء والمنكر اشمل وأحوى ،
وليست المعصية على أية حال إلا بنسيان ذكر الله ، والغياب عن حالة
الحضور ، فـ « اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك » .

الله هناك مفعول الذكر حين تعني « ذكر الله » ذكرك الله « عندما احل وحرم » (١) عامة وفي الصلاة خاصة، وإذا كان فاعلاً فهي ذكر الله إياك و « ذكر الله لأهل الصلاة اكبر من ذكرهم إياه ألا ترى أنه يقول : « اذكروني اذكركم » (٢) ، فهو - إذاً - اكبر من الصلاة التي هي ذكرك الله كما أن ذكرك الله هو اكبر شيء في صلاة وسواها ، وقد امرت بالصلاة لذلك الذكر « واقم الصلاة لذكرك » .

فذكرنا الله بمنحنا روحية على قدر المستطاع لنا وهو محدود قد يحصل معها عصيان أو لم ، وأما ذكر الله إياناً أن يعصمنا عن الزلل فهو عصمة عن كل عصيان أو لم ، وعن كل جهل أو جهالة أو خطأ علمي أو عملي ، وهي المعبر عنها ببرهان الرب « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » (٢٤: ١٢) وهو التثبيت من الرب : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » (٧٤: ١٧) .

إذاً ذكر الله « هنا في مثلث : الصلاة - ذكر الله في الصلاة - أن يذكرنا الله بما نذكره فيتم الحضور ويظم كل كياناتنا فنعبد الله كأننا نراه .

فكما الصلاة هي قلب العبادات ، كذلك الذكر هو قلب الصلاة ، وليس هو إلا في قلب المصلي ، وليس ذكر الأفعال والأقوال إلا إذاعة عن ذكر القلوب والأحوال ، والمصلي الحقيقي يصبح كله ذكراً لله ، في حاله وقاله وأفعاله ، لا يغيب عن حضرة الربوبية في صلاته ، فالفحشاء هنا أن يتجاوز عن ذكر الله إلى سواه ، والمنكر أن يذكر نفسه وهو تارك ما سوى الله ، فكما

(١) نور الثقلين ٤ : ١٦٢ عن المجمع وروى أصحابنا عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ولذكر الله أكبر - قال : ذك الله ...

(٢) المصدر عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله : ولذكر الله أكبر ...

تزول عنه سائر الحجابات بينه وبين الله وهي الفحشاء ، كذلك يزول عنه حجاب نفسه بينه وبين الله وهو المنكر ، فلا يبقى بينه وبين الله أحد حتى نفسه :

بيني وبينك إني ينازعني فارفع بلطفك إني من البين
واعلى القمم من ذكر الله ما حصل لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في معراجه حين « دنى فتدلى فكاب قاب قوسين أو أدنى » ففي دنوه أزال حجابات الفحشاء وهي التوجه إلى غير الله ، وفي تدليه أزال حجاب نفسه وهو التوجه إلى نفسه ، فأصبح ب كله منمحيًا في الاتجاه إلى الله فلم يبق بينه وبين الله إلا حجاب ذات الألوهية الذي لن يرتفع لمن سوى الله .

مقام « دنى فتدلى » هو قضية أن يذكره الله فيعصمه ، وقبلهما من مقامات القرب والحضور هي قضية أن يذكر هو الله ، والعصمة حصيلة الذكرين أن تذكر الله كأعلى القمم المستطاعة لك فيذكرك الله ، ذكراً على غرار الذكر فانه فيهما درجات ، « فاذكروني أذكركم » تلمح أن قدر ذكر الله لك هو قدر ذكرك الله « وان ليس للإنسان إلا ما سعى » و « ان السابقين الذين يسهرون بذكر الله عز وجل ومن أحب ان يرتع في رياض الجنة فليكثر من ذكر الله عز وجل »^(١) . فالصلاة بدرجاتها تنهى عن الفحشاء والمنكر بذكراتها ، من فحشاء ومنكر قاليين قالاً وافعالاً ، وقلبيين أحوالاً ، إلى أن تصل إلى خرق الحجب ، ثم وخرق حجاب نفسك ، فتصل إلى القمة المعرفية وهي خاصة بصاحب المعراج .

(١) نور الثقلين ٤ : ١٦٢ عن معاذ بن جبل وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) يا معاذ ان السابقين . . . وعنه قال سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : ان تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل .

فكل ما سوى الله ومن سوى الله في صلاتك هي بين فحشاء ومنكر ، بين محرم في شرعة الفقهاء ، ومحرم في شرعة المعرفة ، فلا يحل الإتياء في الصلاة إلى غير الله ، ولا على أية حال . « والله يعلم ما تصنعون » في صَلَاتِكُمْ وسواها ، يعلم صَلَاتِ صَلَاتِكُمْ وانفصالاتها ، وكما يعلم من ذكركم فيها يذكركم ، وقد يعلم ان كلها انفصالات فلا يذكركم ، فلولا أن الله أمرنا بالصلاة لكانت اكثرية الصلوات محرمة لأنها تمس من كرامة الربوبية ، حين نصلي لله ، وقلوبنا خاوية عن ذكر الله ، نفتش عن سائر ضالاتنا في الصلاة وننسى ضالتنا المنشودة فيها وهو الله والصلاة كلها تصوغ بصيغتها « لا إله إلا الله » !

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ٤٦ .

يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : « نحن المجادلون في دين الله على لسان سبعين نبياً »^(١) فلقد كان يجادل اهل الكتاب وسواهم بالوحي الرسالي كله ، المجموع في القرآن كله ، فالقرآن برمته هو الجدال بالتي هي احسن في كل الحقول ، وبمستوى كل العقول ، فلا أحسن منه ولا يسامى ، فلنجدل اهل الكتاب كما يجادلهم الله في القرآن ، دون سائر الأساليب المختلفة المختلفة مهما كانت حسنة حيث الفرض هو الأحسن ، ومن جدالهم بالتي هي أحسن : « وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » وهي قولة المواصلة دون أية

(١) نور الثقلين ٤ : ١٦٢ عن الاحتجاج للطبرسي وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

مفاصلة ، فأحسن الجدل أن تتبني المواصلات بينك وبين مجادلِكَ ، فتخرج بذلك عن المفاصلات فتوصله إن استطعت إلى حقك ، أم ولأقل تقدير لا تبعده عنك أكثر مما هو بعيد عنك ، وقد يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا ... ونحن له مسلمون »^(١) ، وهنا « الذي أنزل إلينا » هو القرآن ، و« الذي أنزل إليكم » هو سائر الوحي النازل إلى أهل الكتاب توراَةً وانجيلاً وسواهما من كتاب ، وذلك لا يعم كل الذي عندهم من خليط الوحي بسواه وإنما « الذي أنزل إليكم » .

وأما « إلهنا وإلهكم واحد » فالمثلثون من النصارى وسائر المنحرفين منهم ومن اليهود عن حاق التوحيد وحقه ليس إلهكم إلهنا ، فكيف يكون « إلهنا وإلهكم واحد » ؟

الإله الأصل هو المتفق عليه بين كافة أهل الكتاب وهو الذي نوحده بيننا وبينهم ونؤمن به ، ثم الأقنوم الثاني والثالث ، والولد ، والجسمانية وأشباهها هي الفاصل بيننا وبينهم ، ونحن لا نتفق معهم إلا في المتفق عليه بيننا « ونحن له » لا لسواه « مسلمون » : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى

(١) الدر المنثور ٥: ١٤٧ عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... وفيه عن أبي غلة الأنصاري أن رجلاً من اليهود قال لجنازة أنا أشهد أنها تتكلم فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا ... « فإن كان حقاً لم تكذبوهم وإن كان باطلاً لم تصدقوهم » ، وفيه عن جابر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ما إن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني .

كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (٣: ٦٤) .

وفي حوار للإمام الرضا (عليه السلام) قيل له : أتقول إن الله واحد ؟ قال : قولك إنه اثنان دليل على أنه واحد ، والواحد متفق عليه والثاني مختلف فيه .

هناك يستثنى عن الجدال معهم بالتي هي أحسن « إلا الذين ظلموا منهم » وهم الذين لا يقنعهم وينفعهم تلك الجدال الحسنى ، بل ويتلقونه هواناً منها وضعفاً ومذلة ، إذا فالجدال معهم بالتي هي أحسن إساءة وتضعيف للحق ، وهنا يكون آخر الدواء الكي كلامياً أم واقعياً ذوداً عن حرمة الحق وكرامته .

فالكتابي بين متحيز عن الحق فليجادل بالتي هي أحسن لكي يهتدى بالتي هي أحسن ، أم لا يتحيز عن الحق ولا يتجرأ عليه إذا حصل عليه فيصدقه ، أم لا يصدقه ولا يكذبه ولا يعمل دعاية ضده ، أم يكذبه في حرب باردة أم وحارة ، فالآخرون هم من « الذين ظلموا منهم » فليس الجدال بالتي هي أحسن فرضاً معهم بل قد لا يجوز ، فإما تركاً لجدالهم ، أم بالحسنة أم بالسيئة أم بالتي هي أسوء ، كل ذلك رعاية لحرمة الحق وصدأ عن بأسهم ضد الحق .

فالأصل في الجدال - على أية حال - أن تكون بالتي هي أحسن تقريباً للهدى وتوصيلاً إليها ، وأما الذين « سواء عليهم » أنذرهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » فعليهم ما يستحقونه من الجدال أو تركها حسب ما تقتضيه المصلحة في ميزان الحق .

وانها لحقيقة ضخمة عظيمة رفيعة ، حقيقة ان يتبناها كل مؤمن بالله ،

ان دعوة الله التي تحملها رسالات الله هي واحدة الإنبعثات والإتجاه ،
والمؤمنون بكل رسالة حققة هم في الحق إخوة في دين الله ، أمة واحدة تعبد
إلهاً واحداً « يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون
عليم . وان هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فايأي فاتقون . فتقطعوا أمرهم
بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون » (٢٣: ٥٣) .

ثم ولا تحكم في زمن واحد لعامة المكلفين إلا شرعة واحدة من الخمس
للدين ، فعل كل المؤمنين بالله ان ينضموا إلى شرعة الحق الحاكمة في كل
زمن ، تاركين الخلافات المتخلفة عن الدين وعن شرعة الدين .

وقد يفترى على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه جادل أهل
الكتاب بالتي هي أحسن في العهد المكي وهو في ضغط المطاردة من
المشركين ، ثم في العهد المدني - وقد قويت شوكته - أخذ يحاربهم تركاً
للحسنى إلى السوائى !

وهذه فرية وقحة عليه يعالجها هذا النص حيث يأمره أن يجادلهم بالتي
هي أحسن على أية حال ، حال الضعف وحال القوة « إلا الذين ظلموا
منهم » فلا ، سواء في حال الضعف أم حال القوة ، ضابطة صارمة ثابتة في
كل الحالات والمجالات بإيجابيتها وسلبيتها ، والأصل فيها هو ضرورة الأخذ
بالصورة الأخيرة من صور الدعوة ، الموافقة لما قبلها ، المكملة لها كلها كما
أرادها الله .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ
هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ ٤٧ .

« وكذلك » الأسلوب الذي أنزلنا إلى من قبلك الكتاب « أنزلنا إليك
الكتاب » فالمصدر واحد والصادر وحي واحد مهسا اختلفت شرعة من الدين

عن شرعة في البعض من الطقوس الظاهرية ، حلقات متصلة من الوحي ، موصولة الهدى إلى الله ، والله اعلم حيث يجعل رسالته .

« وكذلك » البعيدة المدى ، الشاملة الهدى ، الصادرة الردى « أنزلنا إليك الكتاب » يا رسول الهدى ، الكتاب الذي يخلق وحيه على كل كتاب وزيادة ، مشابهاً وحيه وحيها وزيادة « فالذين آتيناهم الكتاب » هم بطبيعة الحال ، ونتيجة الاطلاع على وحي الكتاب والبشارات المودعة فيه بحق هذا الكتاب ونبيه « يؤمنون به » حيث الملامح نفس الملامح والمسارح والمصارح نفس المسارح والمصارح ، مهما تعنت عنه جماعة متعندة ! وبإشراف اقوى وإنافة أندى وأبدى ، ثم « ومن هؤلاء » المشركين البعيدين عن وحي الكتاب « من يؤمن به » حيث الكتاب بنفسه برهان لا مرد له أنه من الله ، مهما كانت الخبرة السابقة بوحي الكتاب تزيد برهاناً مشياً على برهانه الأصيل « وما يمحذ بآياتنا » كتاباً ورسولاً وحجة أخرى للرسالة غير الكتاب « إلا الكافرون » المذين عميت بصائرهم وأغلقت أبواب قلوبهم ، فتجاهلوا عن آيات الله البينات التي هي كالنار على المناروكالشمس في رابعة النهار .
وما يقرب الفريقين إلى الايمان به ، شاهداً ممن أرسل به اضافة إلى آية الكتاب :

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ يَمِينُكَ إِذَا لَا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ ٤٨ .

هنا « من كتاب » تستأصل كل كتاب سماوي أو أرضي « وما كنت » تستأصل كيانه كرسول القرآن ان يتلو من قبله من كتاب ، لا أنه ما تلاه وهو قادر على تلاوته تقيّة مصلحية الحفاظ على وحي القرآن ، فان « ما كنت » تُحمّل عليه كل تلاوة وكتابة لأي كتاب قبل القرآن إحالة تكوينية وتشريعية ، فلم يكن يستطيع أية تلاوة قبله ، ولا كانت مسموحة له لو استطاعها .

ثم و « تتلو » تنفي كل ائتمام بأي كتاب قبل القرآن ، قراءة وإقراء وتعلماً وتفهماً، وعلى الجملة سلبية التلاوة له مطلقة محلقة على كل تلاوة قلبية أو قلبية ، والأولى تعم تلاوة السمع والبصر واللسان ، وتلاوته بيمينه وهي الكتابة ، وقد افردت بالذكر بعد التعميم لأنها من المصاديق الخفية للتلاوة .
والثانية تعم التلاوة العقلية والقلبية ، ومن ثم التلاوة التطبيقية .

إذا فسلبية التلاوة كما تحلق على كل كتاب قبل القرآن ، كذلك تحلق على كل ائتمام واتباع لكتاب قبله ، فقد كان منفصلاً عن كل كتاب تلاوة له وخطأ بيمينه « إذا » لو كان يتلوا ويخط من قبله من كتاب « لارتاب المبطلون » لحجة القرآن عله مما تلاه من كتاب فجمعه خطأ بيمينه كتاباً سماوياً كما يرفعه الخارفون أنه جمعه من كتابات السماء ، ام كتاباً أرضياً ، كما يتقوله آخرون « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً » (٥: ٢٥) ، ولماذا « بيمينه » والكتابة بطبيعة الحال تكون « بيمينه » ؟ علها تعني - إضافة إلى يمين الجارحة وهي المتعود للكتابة - تعني يمين القدرة ، فلم يكن بمستطاعه أي كتب لأي كتاب سواء في سجلات القراطيس وأشباهاها ، ام في سجلات خاطراته المقدسة لو سمع شيئاً من كتاب ، وهكذا كان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ أن كان فطياً حتى أنزل عليه القرآن ، لم تُعرف منه أية تلاوة عن كتاب أم عن ظهر الغيب ، ولا مراجعة إلى أي من أهل الكتاب ولا مدارس لוחي الكتاب وسواه ، ومن هنا نتلمح كصرح أنه ما كان يتبع شرعة تقليدية من ذي قبل ، حيث السلبية المطلقة لتلاوة أي كتاب من قبل تنفي كل ائتمام واتباع لأي كتاب ، فاتباع كتاب الشرعة يتطلب قراءته، او اقراءه لمن لا يقرؤه، حتى يتطلع إلى فرائضه ومحافظه ، « وما كنت تلو » تستأصل أية قراءة وابتثاع ، ان لم ياتم بأي كتاب ولا أي صاحب كتاب ، فما قلده محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل القرآن أية شرعة

تقليدية ! إذا فما كانت شرعته - وهو افضل المصطفين - قبل شرعته وبعده ؟

حين نتأكد أنه ما كان يتلو من قبله من كتاب من ناحية ، وانه كان أعرف أهل زمانه وأعبدهم لربه قضية الإصطفاء للرسالة الأخيرة من أخرى، إذا فأمره محصور بين أمرين :^١ أنه كان يوحى إليه بنبوءة شخصية ، معرفية متصلة متواصلة،^٢ وعملية منفصلة الوحي، وكما يشهد له قول الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام) : « ولقد قرن الله به منذ ان كان فطياً أفضل ملك من ملائكته يسلك به سبيل المكارم ويرشده إلى افضل أخلاق العالم ليله ونهاره .. » (١) !

ومما يؤكد تلك السلبية الجامعة آية الشورى « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » (٥٢) .

ثم و « من قبله » هنا تحدد تلك السلبية إلى حد نزول القرآن ، حيث أصبح بعده أقرء القراء وأتلى التالين للكتاب والخاطين له بيمينه خطأ في أية سجله من السجلات ، فهل توجد تلاوة لكتاب بكل حواياه وزواياه مثل تلاوته القرآن لنفسه وعلى الناس كافة ؟ كما وكتابات (صلى الله عليه وآله وسلم) وتوقيعاته إلى الملوك والرؤساء والشيوخ معروفة ، ومنها ما هي مسجلة في كتاب فذ (٢) .

فهذه الآية تستأصل جذور الإرتياب في ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، إجابة عن شطحات القيلات الجاهلة القاحلة : « وقالوا اساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل أنزله الذين يعلم السر في

(١) لاطلاع اكثر على الموضوع راجع ج ٣٠ : ٣٤٧ من الفرقان وتفسير الآية « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » (٥٢ : ٤٢) .

(٢) مثل مكاتيب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) للشاهرودي وسواه .

السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ، (٦: ٢٥) ^(١) ، ولقد ذكرت امية محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في كتابات السماء بصيغ مختلفة كما في كتاب اشعيا ٢٨ : ٩ - ١٤ عن أصله العبراني :

« إِنْ مِى يُؤْرِى دِعَاةَ وَإِنْ مِى يَا بَيْنَ شُمُوعَا غِغْمُولِي بِحَالَابَ عِنِّيَمِي
مِشَادَايِم » (٩) : لمن ترى يعلم العلم ولم يفقه في الخطاب للمفطومين عن اللبن للمفصولين عن الثدي ، (٩) . . . ثم يستمر في مواصفات وحي القرآن (٢) .

وفي نص عبراني آخر من التوراة : « يَدْعُو يِسْرَائِلْ لِأَوِيلْ حَنْبِيَا مَشُوكَاغْ
إِيشْ هَارُوحَ عَلى رُوبَ عُونِخَا وَرَبَاهُ مَشْطَمَاهُ » :

بنو اسرائيل يعلمون ويعرفون ان النبي الأمي المصروع صاحب روح إلهامي وصاحب الوحي ، وهنا يقول « ربي حليم ويطال » في كتاب « عصحييم » أن القصد من النبي الأمي هنا إنما هو محمد بن عبد الله الذي بعث في عهد عبد الله بن سلام تحقيق كتاب علوم ربي

« بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ » ^(٣) .

« بل » هنا إضراب عن كل قبلة عليلة حول القرآن « هو » القرآن

(١) نور الثقلين ٤ : ١٦٤ في عيون الأخبار في باب مجلس للرضا (عليه السلام) مع أهل الأديان والمقالات في التوحيد قال الرضا (عليه السلام) في اثناء المحاورات : وكذلك امر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وما جاء به وامر كل نبي بعثه الله ومن آياته ان كان يتيماً فقيراً راعياً اجيراً لم يتعلم كتاباً ولم يختلف إلى معلم ثم جاء بالقرآن الذي فيه قصص الأنبياء عليهم السلام واخبارهم حرفاً وحرفاً واخبار من مضى ومن بقي إلى يوم القيامة .
(٢) راجع كتابنا « رسول الاسلام في الكتب السماوية » ١٠٨ - ١٠٩ .

« آيات » تدلنا بنفسها على انها إلهيات « بينات » الدلالات على ذلك : « في صدور الذين أوتوا العلم » : ما به يميز الآية عن سواها ، سواء في ذلك علم الكتاب كما لأهل الكتاب ، أم علم لغة الكتاب كما لسواهم كالمشركين وسواهم ، العارفين لغة الكتاب ، وحتى غير العارفين حين يترجم لهم الكتاب ، فالفطرة والعقلية السليمة تكفيان للإتقان أنها آيات الله ، مهما اختلفت درجاته حسب درجات « الذين أوتوا العلم » وأعلامهم هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأئمة أهل بيته عليهم السلام ، فكما آياته لهم بينات الدلالة على إلهيتها ، كذلك هي بينات الدلالة على مداليلها فانهم هم الراسخون في العلم في بعدي الدلالة والتدليل للقرآن العظيم ثم « بينات » تحلّق على كل بيعة في كافة الحقول المعرفية، بينات الدلالة وبينات التدليل لأعلى القمم العالية الكافية لمن يتحرى عن هدى .

فلا يختص « الذين أوتوا العلم » بالرعي الأعلّى من أهل بيت الرسالة المحمدية صلوات الله عليهم أجمعين ، حيث القصد هو العلم الذي يكون ذريعة للحصول على بينات الكتاب وهو درجات بين العبارة والإشارة واللطائف والحقايق ، فقد تكفي العبارة وهي المعاني المطابقة الترجمانية الساذجة ، دليلاً على بينات آياته .

و « أوتوا العلم » يعم العلم الفطري والعقلي المؤتيان لكل مكلف ، والعلم التعقلي المؤقّ لمن يطلبه بتفكير أو دراسة ، وعلم الإلهام ثم علم الوحي المؤتيان لـأهلين لها على درجاتهم ، فالعلم أياً كان طبيعته الكشف عن الحق ، فبقدر العلم المستخدم لتفهّم الكتاب « هو آيات بينات » درجات حسب الدرجات ، ان استعمل العلم في صالحه كشفاً عن الحق المرام .

« بل هو آيات . . وفي صدور الذين أوتوا العلم » وهم منازل وحي

القرآن ، دون وسيط كالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ام بوسيطه كما
الأئمة المعصومون عليهم السلام ، كما « هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا
العلم » ككل ، فمهما لم تكن آياته في صدورهم ، فهي بينات في صدورهم لما
تلى عليهم أم يتلونها .

إذا فـ « هو آيات بينات . . » - « آيات في صدور » و « بينات في صدور »
بينات الدلالة والتدليل « في صدور الذين اوتوا العلم » كله بالكتاب وهم
الرعيلى الأعلى (١) .

ثم في صدور الحفاظ لها لفظياً ومعنوياً كالعلماء الربانيين في علوم
القرآن ، في الدلالة والتدليل على أقدارهم ، ثم في صدور حفاظها معنوياً
مهما لم يحفظوها لفظياً ، في الدلالة والتدليل ، على أقدارهم .

واخيراً في صدور المستدلين بها على كونها إلهيات ، مهما اختلفت صدور
عن صدور ، وبينات بين الأدنى والأعلى وبينهما متوسطات .

فهنا مثلث : الحفظ لفظياً ، والدلالة على كل حقائقها ، والتدليل بها
على إلهيتها ، هي الخاصة بالمعصومين عليهم السلام (٢) .

ثم التدليل بها - فقط - على إلهيتها ، يعم كل من بإمكانه التعرف إلى
حالة المعنى وهالة المعنى منها ، وبينهما متوسطات في أبعاد الحفظ لفظياً
ومعنوياً ، والدلالة والتدليل .

(١) حسب هذا الاحتمال فالقرآن آيات بينات في صدورهم بكل مراحل دون ابقاء آيات
في صدورهم ، هي بينات في صدورهم ، ثم يتلوهم من هي بينات في صدورهم مهما
كانت آيات - كذلك - في صدورهم كالحفاظ ام ليست في صدورهم إلا بينات ، وكما
الصدور درجات فالبينات أيضاً درجات .

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٦٤ - روى بامانيد عدة عن الصادقين عليهما السلام انهم الأئمة
عليهم السلام .

« وما يَجِدُ بآياتنا آياتاً كانت : آفاقية وأنفسية ، رسولياً ورسالياً وكتابياً
« إلا الظالمون » أنفسهم والظالمون الحق الناصع ، تغافلاً عن فطرهم وعقولهم
وفكرهم ، وتجاهلاً عن العلم الذي أوتوه من ربهم ، فكل بصيرة - مهما
كانت قليلة - تبصر ربوبية السوحي الرسالي في القرآن ونبيه ، فما أظلمهم
وأجهلهم هؤلاء الأوغاد المناكيد الجاحدين لآية القرآن وسواه من آيات الله
البيّنات !

وهنا « الظالمون » قبال « الذين أوتوا العلم » بدلاً عن « الذين لم
يؤتوه » أو « الجاهلون » للتدليل على أن الجاحدين بآيات الله ليسوا يفقدون
العلم الذي به تُعلم آياته البيّنات ، بل هم ظلموا الذي أوتوه من العلم ،
تنازلاً عنه وتجاهلاً وتغافلاً عامداً أم متساهلاً ، فقد ظلموا بذلك ما أوتوه من
العلم فد جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » ام لم يدبروا القرآن لكي
يستيقنوا فيؤمنوا .

فليس الجاحد بآيات الله إلا ظالماً ، عالماً أو جاهداً، ما دام أنه مقصر في
ذلك الجحود، حيث لم يستعمل العلم المؤتي له في صالحه .

ولماذا « في صدور . . » ؟ لأنها أولى مقامات الإيمان الإتيقان ، حيث
يغربل العلم فطرياً وعقلياً وعلمياً وحسياً إلى الصدور ومنها إلى القلوب ، فما
لم يصل إلى الصدور لم تحصل بينة على ضوئه ، فكثير هؤلاء الذين يعلمونها
دون صدورهم وليست لهم بينات !

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتُ مَنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا
نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ .

« من ربه » هنا دون « الله - أو - رب العالمين » تعريضة عليه ساخرة ،
أنه لو كان ربه فكيف أمهله إذ أرسله دون آية تدل على رسالته ، فهل صنَّ به

أم غفل عنه ، أم هو كاذب في دعوى الرسالة ؟ ١٩ .

وهنا الآيات المقترحة عليه هي الملموسة المحسوسة المتعود عليها طيلة الرسالات السالفة جهلاً منهم أو تجاهلاً ان ليس على الله إلا الآية التي تثبت الرسالة ، وأما كون الآيات الرسالية على نسق واحد فلا ، بل المفروض في كل رسالة ان ثلاثها الآية الرسالية ، فالرسالة المحدودة تكفيها الآيات الوقتية المحدودة ككل الرسالات قبل الأخيرة ، والرسالة المحلقة على كل عصر ومصر لا تكفيها الآيات المحدودة ، بل الآية الخالدة التي هي اقوى من كل الآيات الرسالية مادة ومدة ، مادة تجذب كل العقلاء على مراتبهم وفي كل حقولهم العقلية والعلمية ، ومدة تستمر إلى آخر زمن التكليف .

فالآيات الرسالية المادية التي صاحبت اصحاب الرسالات من قبل في غضون البشرية وعنفوانات الوحي ما كانت حجة إلا زمن كل رسول حين تظهر على يديه ، وهذه الرسالة الأخيرة البالغة لأعلى القمم الرسالية ، من الضروري لها الحجة الحاضرة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، محلقة على كل المجالات في كل الحالات ، دون أية غيبوبة لشمسها ، بل ولتزدد إشراقة فوق إشراقة على غرار تقدم العقول والعلوم ، متفتحة كنوزها لكافة الأجيال .

فآيتها الرسالية « القرآن » دائبة الدلالة في كل زمان ومكان ، دون اختصاص بالحياة الرسولية كما في سائر الآيات الرسالية لسائر المرسلين ، بل وتحیی في الحياة الرسالية كما الرسولية قبل واقوى واندى-حيث تظهر منها حقائق ورفائق وتبهر ، ما لم يكن الجيل الحضور زمن الرسول ليدركوها فإن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن .

وهؤلاء المجاهيل حين يقترحون على هذا الرسول آيات مادية وقتية

كالسلفة ، قد يسخرون منه بقولتهم المتحدية « لولا انزل عليه آيات من ربه » إن كان ربه ، فكيف تركه ربه وهو يدعي خاتمة الرسالة وأقواها ؟!

والجواب القاطع القاصع يتشكل من سلب وإيجاب ، فالسلب يعني انه لا يملك من الله آيات حتى يبرزها أو يستزها : « قل انما الآيات عند الله » : كل الآيات الرسالية مادية ومعنوية هي عند الله لا سواء ، عند الله علماً وقدره وحكمة لإنزالها « ويقولون لولا انزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين » (١٠ : ٢٠) - فالآيات الرسالية هي من الغيب المخصوص بالله بكل أبعادها : « وانما انا نذير مبين » : رسالتي انا محصورة في « نذير » عن بأس الله « مبين » في نذارتي دون ابهام ، واما سند الرسالة ، فهو كاصلها ، فليس إلا عند الله ، فكما الله هو الذي أرسلني وأوحى الي ، كذلك هو الذي ينزل علي آية الرسالة المثبتة لها ، ثم الجواب الإيجابي هو آية القرآن الكافية عن كل آية :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ٥١ .

والواو هنا تعطف إلى محذوف هو بطبيعة الحال آية كما القرآن آية ، وليست إلا الرسول نفسه ، ألم تكفهم انت بما تحمل أعلى قمم التربية الرسالية « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك . . » وكما المرسلون دونه يستدلون لرسالتهم الإلهية بالتربية الرسالية اللامعة فيهم : « قالوا ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون » (٣٦ : ١٦) .

فقد يكفي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه ، بحاله وافعاله وأقواله وان لم يأت بالقرآن ، يكفي آية بينة رسالية برسوليته ، فهو هو القرآن ، متجسداً في كل احواله « وما علمناه الشعر وما ينبغي له إلا هو إلا ذكر وقرآن

مبين .. فهو القرآن نفسه تلهيناً كما كتابه المنزل عليه قرآن تدوينياً ! وقد تلى عليكم كتاب حياته رسالية قبلها ! وإذا لم تكفهم أنت آية لرسالتك لكل البصر وقصر النظر « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم .. » تلاوة هي على الأسماع أسهل ، وعمرها أطول ، فهي على هذه الرسالة أدل وأنبأ ، فقرآن محمد ومحمد القرآن آيتان بارعتان كل تؤيد الأخرى ، أم هما آية واحدة والثانية القرآن هي استمرارية للأولى : رسول القرآن ، حيث يعيش في كل الحياة الرسالية ويعيش بآيتها البارعة كل متحبر عن حق الرسالة وحاقها .

« أولم يكفهم » عن كل آية رسالية ان يخلق الوحي الآية الزمن الرسولي بنجومه ليل نهار ودوغما انقطاع نزولاً على الرسول ، ثم ويخلق الزمن الرسالي بما بين دفتيه مؤلفاً بوحي كما نزل بوحي ، شمساً مشرقة على قلوب وأفكار الكافرين إلى يوم الدين .

إن القرآن آية كافية ، آية خالدة وكتاب شرعة خالدة على حد قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « كفى بقوم حقاً أو ضلالة ان يرغبوا عما جاء به نبيهم اليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم .. » (١) وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم انا حظكم من النبیین وانتم حظي من الأمم » (٢) .

(١) الدر المنثور ٥ : ١٤٨ عن يحيى بن جعدة قال جاء ناس من المسلمين يكتبون قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « .. فتزلت هذه الآية وفيه عن أبي هريرة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) مثله .

(٢) المصدر اخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن الضريس والحاكم في الكنى والبيهقي في شعب الايمان عن عبد الله بن ثابت الأنصاري قال دخل عمر بن الخطاب على النبي

ويقول لعمر بن الخطاب حين قال له (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا رسول الله إن أهل الكتاب يحدثونا بأحاديث قد أخذت بقلوبنا وقد هممنا أن نكتبها ! يا ابن الخطاب ! أمتهوكون انتم كما تهوكت اليهود والنصارى

(صلى الله عليه وآله وسلم) بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال : هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب عرضها عليك فتغير وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تغيراً شديداً لم أر مثله قط فقال عبد الله بن الحارث لعمر أما ترى وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال عمر رضي الله عنه وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً فسرى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال : لو نزل موسى . . وفيه عن الزهري أن حفصة جاءت إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بكتاب من قصص يوسف في كنف فجعلت تقرأه عليه والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يتلون وجهه فقال : والذي نفسي بيده لو اتاكم يوسف وأنا نبيكم فاتبعتموه وتركتموني لضللت ، وفيه أخرج عبد الرزاق والبيهقي عن أبي قلابة أن عمر بن الخطاب مرَّ برجل يقرأ كتاباً فاستمعه ساعة فاستحسنه فقال للرجل اكتب لي من هذا الكتاب قال نعم فاشتري أديماً فهيأه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره ويطنه ثم أتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فجعل يقرأه عليه وجعل وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يتلون فغضب رجل من الأنصار بيده الكتاب وقال ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أما ترى وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ اليوم وانت تقرأ عليه هذا الكتاب فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عند ذلك انما بعثت فاتحاً وخاتماً وأعطيت جوامع الكلم وفوائحه واختصر لي الحديث اختصاراً فلا يهلككم المتهوكون ، وفيه عن عمر بن الخطاب قال سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن تعلم التوراة فقال : لا تتعلموها وآمن بها وتعلموها ما أنزل اليكم وآمنوا به ، و (٤٤) الثانية في نفس المصدر .

أقول : وهذه النواهي لا تشمل ما إذا قورنت آيات من الكتب السماوية بآيات قرآنية تثبتاً لوحى القرآن وصدقه وأنه أفضل وأكمل من سائر الوحي ، وقد الفنا في المقارنات كتبنا الثلاثة « المقارنات - رسول الإسلام - عقائدنا » والقرآن يأمرنا في آيات بتلك المقارنات التي فيها اثباتات وتأييدات لموقف القرآن .

أما والذي نفس محمد بيده لقد جئْتُكم بها ببيضاء نقية ولكني أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الحديث اختصاراً» (١).

اجل وفي هذا القرآن كفاية عن كلما دق وجل ، المذكورة في كل كتابات السماء والأرض ، وهو المحور الأصيل رداً لكل شارد وإيراداً لكل وارد ، لا يُقبل إلا ما وافقه ، ويُنكل بكل ما فارقه ، و«ان في ذلك» الوحي الآيية ، البالغ في بعدي وحي الرسالة وبرهانها ، النهاية «لرحمة» رحيمية ربانية خالدة على مدار الزمن «وذكرى» تذكُر كل منسي ومجهول «لقوم يؤمنون» بآيات الله ، حيث القرآن خير آية رسولية ورسالية قاصعة قاطعة لا ريب فيها ، ف«قوم يؤمنون» زمن الرسول وبعده إلى يوم الدين ، لهم في آية القرآن الكفاية التامة الطامة ، دون حاجة إلى آية أخرى بصرية أو بصرية ، فانها الشهادة الكاملة الكافلة الإلهية بين الرسول وكافة العالمين :

﴿ قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ٥٢ .

وليس هذا كلاماً خطيبياً ودعوى فاضية عن برهان ، بل هو اتقن برهان لוחي القرآن انه شهادة إلهية كافية بين الرسول وكافة العالمين ، فطالما لله شهادات لسائر الرسل في سائر الآيات الرسالية ، ولكنها ما كانت لتكفي إلا وقتية محدودة بحدودها المقررة لها ، واما القرآن - كما ورسول القرآن - فهو شهادة ذاتية كافية ما اكفاها لحق الرسالة بحاقها ، لا تختص بزمان دون زمان ، ولا بأهل زمان دون آخرين ، بل هي حجة رب العالمين إلى يوم الدين ، فكما الله «يعلم ما في السماوات والأرض» كذلك كتابه الشهيد يحوي من علم الله ما في السماوات والأرض ، علماً يختص بالله ، فالقرآن الحاوي لذلك العلم ليس إلا من الله : « لكن الله يشهد بما انزل اليك انزله بعلمه

٩٢ الجزء الحادي والعشرون

والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً « (٤: ١٦٦) والرسول بقرآنه هما بينة من ربه : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » (١١: ١٧) وهو شاهد « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً . . (٣٣ : ٤٥) كما القرآن شاهد : قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . . . » (٦ : ١٩) فكل من القرآن والرسول شاهد باني على هذه الرسالة السامية ، وهما متعاضان ، فـ « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » (٤٨ : ٢٨) .

« والذين آمنوا بالباطل وهو هنا وجاء الله كل ما سوى الله ، اللهم إلا إيماناً برسول الله وهو إيمان بالله . . آمنوا بالباطل وكفروا بالله » وبرسل الله الحاملين شرعة الله : « أولئك هم » لا سواهم « الخاسرون » نشأت الحياة مهما اختلف خسران عن خسران في الآخرة والأولى .

فالإيمان بالله كسب في ذاته ، وكسب في اتجاهاته وإنتاجاته ، فانه طمأنينة في الحياة ككل ، واستقامة في مكاسب الحياة ، وثقة على أحداثها ومتراس في أكرائها ، ويقين بالعاقبة الحسنى ، وكل ذلك يخسره الكافرون ، ومن خسارهم :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْضَةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ^٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ^٤ .

قائلين : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أتنا بعذاب اليم » (٨: ٣٢) : هم يتحدثونك إبطالاً لرسالتك

استعجالاً بالعذاب الذي تنذرهم به، هزةً بك وتعجيزاً لك « ولولا أجل مسمى » لأمد العذاب وهو الحياة الوسطى البرزخية والأخرى الآخرة « لجاءهم العذاب » كما يستعجلون ، وقد يعم العذاب هنا عذاب الآخرة والأولى ، ولكل أجل مسمى لا سيما الأخرى ، وليس الله ليخرق الضابطة الثابتة في « أجل مسمى » لأنهم يستعجلون « وليأتينهم » العذاب الذي يستعجلون « بغتة » إنا نهيئها كما في قرون هالكة مضت ، ام بعد الموت ، وكل ذلك فيه مباغتة العذاب، وهي عذاب فوق العذاب « وهم لا يشعرون » إتيانه المباغت ، ولا أصله ، وهم لا يشعرون الحق تجاهلاً وتغافلاً ، « وهم لا يشعرون » حين « يستعجلونك بالعذاب » أن « لولا أجل مسمى لجاءهم العذاب » .

ومن الغريب انهم « يستعجلونك بالعذاب » وهم في انفسهم بكفرهم جهنم العذاب « وان جهنم لمحيطة بالكافرين » تحملهم ويحملونها يوم الدنيا ، ثم تبرز لهم يوم الدين : *مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي*

﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ٥٥ .

فذلك العذاب الذي يغشاهم يومه ، هو الذي عاشوه بكفرهم قبل يومه ، فلذلك « يقول » الله لهم هناك « ذوقوا ما كنتم تعملون » فالأعمال السيئة التي قدمتموها هي عذاب الجحيم ، فـ « ان جهنم لمحيطة بالكافرين » باطنة يوم الدنيا وظاهرة يوم الدين فـ : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » !

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ ٥٦ .
« قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين احسنوا في هذه الدنيا

٩٤ الجزء الحادي والعشرون

حسنة وارض الله واسعة انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب «
(١٠: ٣٩) .

وترى إذا المخاطبون هنا هم « عبادي الذين آمنوا » فهم عابدون - إذا -
ويعتقون ، فكيف يؤمرون بهما ؟

ذلك لأن ارض الكفر والفسق تضيق عليهم مجالات الإيمان وجلوات
أعمال الإيمان ، فإذا استمروا فيها يقل فيهم الإيمان وعمل الإيمان ،
فليهاجروا منها إلى أرض أخرى بإمكانهم فيها ان يستمروا في الإيمان والعبادة
والتقى ، ام وزيادة فيها .

ثم وقد يصح امر المؤمن بالإيمان ويعنى مزیده على أية حال كـ « يا ايها
الذين آمنوا آمنوا ... » . وعلى الجملة « ان ارضي واسعة » لعبادي ، فلا
تضيق بكم بما رحبت ، فلا عذر لكم في المضايق إذ ضيقت ما دام الفرار إلى
غيرها ميسور ، وهو قطعاً ميسور ، وأدناه الفرار إلى الأقل مضايقة : « ان
الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في
الأرض قالوا لم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك ماواهم جهنم
وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون
حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فاولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفواً
غفوراً . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج
من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان
الله غفوراً رحيماً » (٤: ١٠٠) ، وقد يروى عن رسول الله (صلى الله عليه
 وآله وسلم) : « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيراً
 فأقم » (١) ، « هنا نتأكد من الحصر في « فإياي فاعبدون » متفرعاً على « ان

(١) الدر المنثور ٥ : ١٤٩ - اخرج احمد عن الزبير بن العوام قال قال رسول الله (صلى

ارضي واسعة « امكانية اخلاص العبادة ككل وحصرها في الله في واسعة
ارض الله ، اللهم إلا لمن لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً للفرار عن
ارض الظلم والضغط ، فعليهم - إذا - سنة التقية حفاظاً على البقية الممكنة
من عبادة الله وطاعته .

فما الطّفَةُ وأرافهُ الخطاب « يا عبادي الذين آمنوا » حفاظاً على ايمانهم
أياً كانوا ، وهجرة بايمانهم في ارض الله الى ما هي أومن لإيمانهم ، فانتم
عبادي وهذه ارضي تسعكم ان تعبدوني انا ، فإذا خفتم على ايمانكم أم على
عمل الايمان في جانب من ارضي فهاجروا إلى اخرى فـ ان ارضي واسعة «
فليس وطن المؤمن إلا ما يتوطن بايمانه ، قريباً فيها أم غريباً ، بعيداً عن اهله
أم قريباً ، فلا يهجرس المؤمن هاجس الأسى لمفارقة الوطن المولد ، أو الوطن
المسكن ، ما دامت الأرض كلها لله ، والمؤمن هو عبد الله ، فليعبد الله في
ارض الله مواطناً أم مهاجراً ، والهجرة في دين الله محنة وليست مهنة ، وأحب
البقاء إلى الله ما تعبد فيها الله كما يرضاه .
واخطر الخطر الذي قد يهجرس في بعض القلوب مانعاً عن الهجرة عن
أرض الوطن هو الموت ولكن :

الله عليه وآله وسلم) : . . وفيه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : سافروا تصحوا
وتغنموا .

وفي نور الثقلين ٤ : ١٦٧ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليها
السلام في الآية يقول : لا تطيعوا اهل الفسق من الملوك فان خفتموهم ان يفتشوكم عن
دينكم فان ارضي واسعة . . وفيه عن المجمع قال ابو عبد الله (عليه السلام) معناه إذا
عصى الله في ارض انت بها فاخرج منها إلى غيرها ، وفيه في جوامع الجامع عن النبي
(صلى الله عليه وآله وسلم) : من فر بدينه من ارض إلى ارض وان كان شبراً من الأرض
استوجب الجنة وكان رفيق ابراهيم ومحمد عليهما السلام .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾^{٥٧} (١)

« اينما نكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » (٧٨: ٤) ثم الموت في المهجر حياة ، كما الحياة في الوطن-حين يضيق على الايمان وقضاياه- هي موت ، و « كل نفس ذائقة الموت » لا أنها تموت موت القوت ، فذوق الموت عبارة عن الانتقال عن الحياة الدنيا الى الحياة البرزخية ، فالنفس تذوق الم الانتقال على أية حال ، ولا تعني « الموت » في آياتها إلا ذوق الموت دون القوت المطلق ، فإنما الموت عن الحياة الدنيا ، وكما تدل عليه آيات الحياة البرزخية وجنتها ونارها .

ولأن « نفس » لا تطلق على الله إلا إضافة إليه « نفسه » كما « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » فلا تشمل « كل نفس » حتي يخرج بأدلة خارجية عقلية ونقلية ، وانما تشمل نفوس ما سوى الله ومن سواه ، ما له نفس حية حيث تنتقل بالموت من حياة إلى أخرى « ثم » بعد ذوق الموت « الينا ترجعون » أحياء بحياة أخرى هي أخرى أن تسمى حياة من الأولى : « يقول يا ليتني قدمت لحياتي » (٢٤: ٨٩) كأن الأولى ما كانت حياة ، وترى « الموت » هو غير « القتل » ؟ فالقتل إذاً - في حق أو باطل - لا بد أن يرجع يوم الرجعة حتى يموت قضية هذه الشمولية له « كل نفس ذائقة الموت » ؟

١) في الدر المنثور ٥: ١٤٩ - اخرج ابن مردويه عن علي (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما نزلت هذه الآية « انك ميت وانهم ميتون » قلت : يا رب أيمسوت الخلايق كلهم وتبقى الأنبياء فنزلت « كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون » .

اقول : الآية الأولى صريحة في موته (صلى الله عليه وآله وسلم) فباحرى في موت سائر الأنبياء ، والثانية ظاهرة في موته وسائر الأنبياء ، فكيف يقنع بالآية الظاهرة دون الصريحة ، فالعكس قد يصح وقد حصل القلب خطأ من الراوي .

ولا يرجع يوم الرجعة إلا من محض الايمان محضاً أو محض الكفر محضاً
كما في مستفيضة الأحاديث ، على ضوء آيات الرجعة ، وهذه رجعة
بالإستعداد ، ثم من يستدعي من المؤمنين الرجعة ، وهي رجعة
بالإستدعاء ، ومن يُقتل في سبيل الباطل ليس - ككل - ممن محض الكفر
محضاً ، كمن يقتل في سبيل الحق ، فانه ليس - ككل - ممن محض الايمان
محضاً ، فضلاً عن يقتل في صُدفة غير متقصد لا في سبيل الايمان ولا
اللا إيمان !

ومهما عنت مقابلة الموت بالقتل ، الموت بغير القتل كما العكس ،
فليست الموت دون مقابلة لتعني - فقط - غير القتل ، مهما خص القتل بمعناه
دون حتف الأنف (١)

ثم الرجوع إلى الله يتطلب البداية منه أن كنا عنده ثم نرجع كما كنا ،
وهكذا كنا قبل ان تُمنح حيوية إنسانية مختارة ، ثم هبانا الله العقل والاختيار
للإختبار ، ثم نرجع دون اختيار نتيجة الاختبار ، وهذه لمسات تلمس
قلوبنا لتزيل عنها همسات واحتياطات لترك الهجرة والهجرانات في سبيل الله ،
فمن ذا الذي يساوره الخوف ، او يحاوره القلق بعد هذه اللمسات ؟ .

(١) نور الثقلين ٤ : ١٦٧ في تفسير العياشي عن زرارة قال : كرهت ان اسأل أبا جعفر
(عليه السلام) عن الرجعة واستخفيت ذلك قلت لأسألن مسألة لطيفة ابلغ فيها حاجتي
فقلت : أخبرني عن قتل أمات ؟ قال : لا ، الموت موت والقتل قتل ، قلت : ما احد
يقتل إلا وقد مات ؟ فقال : قول الله اصدق من قولك ، فرق بينهما في القرآن فقال :
فإن مات أو قتل ، وقال : « لئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون » وليس كما قلت يا
زرارة ، الموت موت والقتل قتل فان الله يقول : « كل نفس ذائقة الموت » قال : من قتل
لم يذوق الموت ثم قال : لا بد ان يرجع حتى يذوق الموت .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ٥٨ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ ﴾ .

فالمهاجرة في الله حفاظاً على الايمان وعمل الصالحات ، هي من أصلح الصالحات ، كما الصبر على مفارقة الأوطان وغضاضات الغربة في المهاجر ، والتوكل على الرب في كل ذلك ، هو من أصلح الصالحات ، وهؤلاء « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون « هم أولاء موعودون بواء من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم اجر العاملين » . الصالحات الصائبات المستصعبات .

ويا لها من لمسات التشجيع والتثبيت لهذه القلوب المؤمنة المطمئنة بالإيمان ، في مواقف القلق والخوف والحرمان .

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦٠ ﴾ .

« وما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها وكل في كتاب » (٦: ١١) ، وحين يهجر في النفس المهاجرة خاطر الإضطراب على الرزق في المهاجر قضية مغادرة الوطن والأهلين أقارب وأنسباء وأحباء ، وكذلك الأموال ومجالات الأعمال ، إذا يُطمئن الله تلك النفوس وأضرابها بانه هو الرزاق لكل مرزوق ايأ كانوا وآيان .

فإذا انت - بزعمك - يملك رزقك في الموطن فتخاف على عدمه أو قلته في المهجر ، فهـ كآين من دابة لا تحمل رزقها « بنفسها وفي اية محاولة منها «الله يرزقها» وهي دابة أدنى من المؤمن المهاجر « وإياكم » حملتم رزقكم أما

حملتم ، حين تؤدون واجب الاتجاهات الحيوية الايمانية « وهو السميع » لقالاتكم وقالات الآخرين منكم، السميع دعاءكم « العليم » بحالاتكم وحاجياتكم .

فليست هذه الآية واضرابها تسمح للبطلنة والبثلة عن طلب الرزق ، بل هي تعني الذين يطبقون واجبههم في المهاجرة وسواها بايمانهم فتقطع عنهم أسباب الرزق في تقديراتهم ، فإنا يأتي دور الرزق من حيث لا يحتسب : « .. ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً » (٣: ٦٥) .

وليست المهاجرة المضمون فيها الرزق من حيث لا يحتسب مختصة بترك الأوطان في الله ، بل هي كل مهاجرة في الله، وأفضلها من يهاجر عن المكاسب المادية اقبالاً على تعلم دين الله وتعليمه ككل الطلاب الربانيين لعلوم الدين ، فان الله هو الرزاق ذو القوة المتين تحقيق كتاب علوم إسلامي

وليس الرزق المضمون لأهله هو الكثير الغزير دوماً ، إنما هو أقله أم يزيد ، ما يقيم الأود وهو لقمة القوت ، البقية على حياة ، كيف لا والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على محتده العالي في تقوى الله مضى عليه ما لم يذق طعاماً لأيام ، وعلى حدّ قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسري وقيصر . . » ^(١)

(١) الدر المنثور ٥ : ١٤٩ - اخرج عبدوا بن حميد وانب ابى حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عمر قال خرجت مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي يا ابن عمر مالك

إذا فالأصل المضمون من الرزق لأقل تقدير هو القوت ، وفي الدعوة الزيادة حسب الفاعليات والقابليات .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ٦١

فحين يصدق المشركون أنه تعالى خالق السماوات والأرض ، لا سواء ، وهو مسخر الشمس والقمر لا سواء « فأنى يؤفكون » إتجاه الإفك الكذب إلى غير الله ، طلب الرزق أم سواء ؟ .

﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ٦٢ .

فما بسط الرزق معللاً - ككل - بسط السعي وقدره ، ولا قدره - ككل - بقدر السعي وقدره ، فكم من باسط السعي قدير عليه رزقه ، وكم من قدر السعي مبسوط له رزقه ، فما التعرض للرزق بأسبابه إلا سبباً من أسبابه وليس كل الأسباب ، فإنما هو ليد مسبب الأسباب ، « إن الله بكل شيء عليم » سعياً وسواء ، وقدر الحاجة والحكمة في بسط الرزق وقدره .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ٦٣ .

فحين يصدقون ان منزل الماء من السماء ويحيي الأرض من بعد موتها

لا تأكل ؟ قلت : لا اشتبهه يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لكني اشتبهه وهذه صبح رابعة . . . فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يجشون رزق ستهم ويضعف اليقين ، قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت : وكأين من دابة . . . فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ان الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ألا واني لا اكنز ديناراً ولا درهماً ولا ادخر رزقاً لغد .

هو الله ، فكيف ينكرون إحياءهم بعد موتهم وهو أولى من الأولى وأحجى ؟
 « قل الحمد لله » ككل لأنه الله الخالق المسخر المنزل المحيي « بل أكثرهم لا يعقلون » ان الدار الآخرة هي الحيوان ، فهم رغم عقل الفطرة المفطور فيها ، وعقل العقل وسائر العقل والدرك « لا يعقلون » اخذاً للمعقول مأخذ القبول .

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ٦٩ .

« الحياة الدنيا » وهي أدنى الحياة دنواً ودناءة ، هي محصورة في « لهو ولعب » لمن أبصر اليها واخلد عليها فانها تعميه ، ولكنها لمن ابصر بها مبصرة فذريعة للدار الآخرة الحيوان .

وهذه آية ثانية تختص الحيوان بالدار الآخرة أولها آية الفجر : « يقول يا ليتني قدمت لحياتي » (٢٤) بما يبرهن أنها اصل الحياة « لو كانوا يعلمون » لكنهم « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (٣٠ : ٧) .

وفي مقابلة حيوان الدار الآخرة بلهو الحياة الدنيا ولعبها تلميحة مليحة ان حياة اللهو واللعب موت ، وهي في الحق موت للإنسانية السامية وفوت لمحاصيلها العالية ، المقصودة بالحياة الدنيا ، وهي التذرع بها للآخرى .

فمن انتهى فيها بلهوها ولعبها فهو الميت حقاً ومن وراءه « جهنم لا يموت فيها ولا يحيى » (٢٠ : ٧٤) ومن تركها فيها وابتغى مرضات الله فهو الحي حقاً ومن وراءه الجنة خالداً فيها أبداً و « هي الحيوان » الحياة الدائمة المتحركة دوماً نحو الجمال والكمال بما قدمته أيديهم من جمال المعرفة وكمال العبودية . حيث « الفعلان » تلمع إلى حركة ، فكما اصل الحياة حركة ، كذلك حركة الحياة حركة فوق حركة ، وهي الكافلة كل مزاياها

الكاملة بكل زواياها ، الحافلة كل الغايات المسرودة لها ، المترقبة المرغوبة منها ،
دائبة الارتقاء إلى كمالاتها دون أية وقفة في تلك الحيوية الأخروية العالية وترى
كيف تحصر الحياة الدنيا في هو ولعب وهي مدرسة الصالحين والسابقين
والمقربين ؟ وحين تُحصر هي فيها كما خلق الله فما هو تقصير الملتهمين بها
اللاعبين فيها ؟

« هذه » هنا المشيرة إلى حياة المشركين وسائر الكافرين ، تخصهما بهم
بسوء اختيارهم ، فهي - إذاً - الدنيا الدنية ، ولكنها الدنيا الدانية - وهي
اقرب حياة إلينا - والعالية الزاكية للصالحين الذين يشرون الحياة الدنيا
بالآخرة ، إذا فهم دنياهم آخرة ، والطلّاحون هم آخرتهم دنياهم ، وابن دنيّ
من دنيا وآخرة من آخرة !

فأهل الآخرة هم في الدنيا : « جزناها وهي خامدة » فنار الآخرة لهم
خامدة هامة ، وأهل الدنيا هم في الآخرة ليست لهم خامدة ، بل هي زائدة
مايدة .

اجل والحياة الآخرة هي الفائضة بالحيوية الفائقة التصور ، دون حجب
وزحامات وموتات واصطدامات ، مهما كانت الحياة الدنيا حياة إيمانية محضرة
لها فضلاً عن الملّية ، فبين الحياتين بون بعيد ، والله من وراءنا رقيب عتيد ،
ف« يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الحيوان وهو يسعى لدار
الغرور »^(١) ، وكما ان الحياة الجنينية هي حياة التحضير للدنيا ، كذلك
الحياة الدنيا هي حياة التحضير للآخرة ، وكما ان هذه الأدنى هي الحيوان

(١) الدر المنثور ٥ : ١٤٩ - اخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جعفر
رضي الله عنه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا عجباً . .

سورة العنكبوت / اية ٤١ - ٦٩ ١٠٣

للأجنة ، كذلك تلك الأخرى العليا هي الحيوان لولائد الدنيا ، وهي خير مدرسة بافضل المدرسين ليستكمل فيها المكلفون حتى يحصلوا على محاصيل الحياة العليا فـ « الحياة الدنيا » هي الدانية إلينا دنواً أكثر من كل حياة عقلية ، لولاها لما كانت الحياة الآخرة هي الحيوان ، كما وهي الدانية دناءة أكثر من كل دانية في الحياة لمن اخلد اليها واتبع هواه وكان أمره فرطاً .

فلا هي ذميمة ذميمة في حد ذاتها لأنها مدرسة الصالحين ، ولا هي خيرة في حد ذاتها لأنها - فقط - ذريعة للدار الحيوان ، فهي حين تتخذ أصلاً يُبصر اليها ذميمة ذميمة ، وهي نفسها حين تتخذ فرعاً يُبصر بها صالحة مُبصرة .

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ٦٩ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٧٠ ﴾ .

انهم يعيشون تناقض العقيدة ، أو تناقض الفطرة والعقلية والعملية « فاذا ركبوا في الفلك » كمثال على ظرف تقطع الأسباب إلا الله « دعوا الله مخلصين له الدين » مهما كانوا به كافرين « فلما نجَّاهم إلى البر إذا هم يشركون » عقيدياً ام - لأقل تقدير - عملياً، ان ينسبوا نجاتهم إلى غير الله من الأسباب التي ضلت عنهم وتقطعت وهم في خضم البحر على الفلك !

وهذه التناقضة هي طبيعة الحال لكل من لم يكمل إيمانه مهما كان مؤمناً فضلاً عن المشرك والملحد ، فـ جرس الفطرة يُسمعه أن لا إله إلا هو ، ثم شرس الغفلة والإنجذاب الى الطبيعة يصمّه فـ « إذا هم يشركون » ولماذا ؟ « ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا » اشراكاً قاصداً للكفر بالنعمة ، ولكي يأخذوا حرياتهم في التمتع بمتع الحياة « فسوف يعلمون » ماذا قدمت انفسهم وبه يعذبون .

واللام هنا قد تعني الغاية ، بياناً للغاية من إشراكهم تقصداً ، حيث
الإشراك خلاف الفطرة فلا بد من التخلف عنها من غاية .
واخرى تعني امر التهديد كـ « اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير »
(٤١ : ٤٠) « اعملوا على مكانتكم إني عامل » (١١ : ٩٣) والجمع بينهما اجمع
واجمل .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ٦٧ .

ألم يروا آيات الله ونعمه في الأفاق وفي أنفسهم ؟ فان لم يروها « أولم
يروا أنا جعلنا حرماً آمناً . . » ؟ جعلاً تكوينياً وتشريعياً مهما حصل فيه أو
يحصل من اللأمن واقعياً خلاف الشرعة الإلهية ، حيث واقع الأمن فيه - على
أية حال - أكثر مما سواه ، وشرعة الأمن فيه لا تقاس بما سواه !
« حرماً آمناً » نفسه عن الهجمات والتهديدات ، وآمناً فيه كل عاكف
وباد « و » الحال انه « يتخطف الناس من حولهم » تخطفاً دونما أي تعطف في
أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ، فلقد كان أهل الحرم المكي - ويكونون - يعيشون
آمنين ، يعظمهم الناس من أجل الحرم المحترم ، ومن حولهم القبائل تتناحر
وتتخطف ، فلا تجد الأمان إلا لجأ إلى الحرم ، فيا عجباً أن يجعلوا من بيت
الله مسرحاً ومأماً لباطل الأصنام إيماناً بها « أفبالباطل » معبوداً سوى الله أياً
كان « يؤمنون » ثم « وبنعمة الله يكفرون » والكفر بنعمته هو الذي أدخلهم
جحيم الكفر بوحدته افتراءً عليه كذباً :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ ٦٨ .

اللهم لا أظلم « ممن افتري على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه »

وهم افترؤا عليه شركاء وأنداداً ، ثم إذا جاءهم الحق التوحيد بوحى منه كذبوا به « أليس » إذا « في جهنم مثوى » ومأوى ومقاماً « للكافرين » كما كانوا آوین إلى جهنم الكذب والتكذيب، ثاوين في كفرهم بالله العظيم ! وهنا خیر ختام في السورة بخیر الأنام وهم المجاهدون في الله ، المحسنون :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٦٩ .

وقد يختلف « جاهدوا فينا » عن « جاهدوا في سبيلنا » حيث الأول أخص ، والجهد في جهاده امس، وعبرة أخرى عن « جاهدوا فينا » : جاهدوا في الله كما « وجاهدوا في الله حق جهاده » المخاطب فيها أهل الله الخصوص حيث تتلوها - « هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس .. » (٢٢: ٧٨) (١) .

ففي (٣٠) موضعاً من القرآن المذكور فيها المجاهدة بصيغها المختلفة لا نجدها في الله إلا في هاتين ، ثم البقية بين في سبيل الله ام مطلقها بالأموال والأنفس أماذا ؟ مما يدل على أن المجاهدة في الله هي القمة المرموقة منها بين درجاتها .

فهنا جهاد في سبيل الله يؤمر به كل من يؤمن بالله ، ثم جهاد في الله يؤمر به أهل الله الخصوص ، فيعدهم هنا « لنهدينهم سبيلنا » وهي غير سبيل الله الواضحة لكل من يجاهد فيها .

فالسبل الربانية الغامضة التي لا يهتدى اليها إلا بالجهاد في الله ، وهي عدة حسب عِدَات الجهاد في الله عِدَاتِهِ ، إنها ليست سبيل الله المعروفة لكافة

(١) في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : هذه الآية لآل محمد عليهم السلام ولأشباعهم .

المكلفين بالمأمورين بالجهاد فيها .

إذا فللجهاد ترتيب ثلاثي : في سبيل الله - في الله - ثم الاهتداء إلى سبيل الله ، والمحسون هنا هم « الذين جاهدوا فينا وان الله لمح المحسنين » معية الرحمة الواصلة التي فيها هداية سبيل الله معرفية وعلمية وعملية أماهيه ، وهي بصيغة أخرى جنة معرفية .

ثم « في الله » و « فينا » كما تختلفان رتبة عن « في سبيل الله » كذلك بينهما ، فقد يفوق الجهاد في الله - كما في آية الحج للوسطاء الشهداء بين الرسول والأمة - يفوق الجهاد فينا كما هنا .

فهو في الله لا يعني إلا الله لأنه الله ، جهاداً معرفياً أو عملياً ، وهو فينا قد يعني صفات الله كما واسمائه الحسنى حيث الجمع في « فينا » كاضرابها يعني جمعية الصفات ، ثم هو في سبيل الله أدنى الجهاد مهما عم التكليف به لكافة المكلفين .

فه « الذين جاهدوا فينا » هم الوسط بين الذين جاهدوا في الله والذين جاهدوا في سبيل الله ، والجهاد في الله بجمعية صفاته ، ألا ينحرف فيه المجاهد إلا منحاه ، تغافلاً عن نفسه ومناها إلا إياه ، متدنياً إلى الله متدلياً بالله ، وعند ذلك « لنهدينهم سبلنا » ككل ، لأنه استخدم جهاده « فينا » ككل ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

وهكذا يعدنا ربنا - ومن احسن من الله وعداً - ان الجهاد في الله يخلف الإهتداء إلى سبيل الله، وهي سبيل السلام على ضوء نوره وكتابه المبين ، بتبيين رسوله الأمين : « ... قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » (١٦: ٥) .

فالجهد في الله هكذا سبيل إلى « سبلنا » وهي سبيل إلى « صراط مستقيم » وهو الغاية المرموقة المقصود للسالك إلى الله ، والطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق ! فهناك سبل المرسلين : « وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون » (١٤: ١٢) .

وهنا سبلهم وكافة المجاهدين « لنهدينهم سبلنا » « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، ثم : « إن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (٦: ١٥٣) . فالمجاهدات والإرثياضات غير الموافقة لشرعة القرآن هي كلها هباء وخواء ، قاله أم حالة أم فعالة ، ف« لا قول إلا بعمل ، ولا قول ولا عمل إلا بنية ، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنة » وهي سنة الله على ضوم القرآن والسنة .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

(۳۰) سیوارة الیوم فکینہا
وآبائہا سببون
مركز تحقیق کالمیویر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ
مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بَضْعِ سِنِينَ ④ لِلَّهِ الْأَمْرُ
مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ⑤ يَنْصُرُ
اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑥ وَعَدَ اللَّهُ
لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ⑦
يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ
غَافِلُونَ ⑧ أُولَئِكَ يَتفَكَّرُونَ ⑨ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ⑩
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ يَلْقَآي رَبَّهُمْ لَكَفِرُونَ ⑪ أُولَئِكَ

يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِهِمْ ۖ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا
 أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ
 لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ
 الَّذِينَ اسْتَفْتَوْا السَّوَائِيَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا
 بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
 تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾
 وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ ۖ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ
 كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ بَتًا ﴿١٤﴾
 فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ
 يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
 الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَتُحْضَنُ
 اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

سورة « الروم » هي المنقطة النظير بين سائر السور القرآنية تسمياً باسم قطر من أقطار الأرض ، في حين لم تُسمَّ سورة بقطري الوحي القرآني مكة والمدينة ، وعَلَّ ذلك الإختصاص للابسة خاصة وقت نزولها تقتضي تلك التسمية ، هي ان غَلَبَ الروم الموحدين في أدنى الأرض من المشركين الإيرانيين كان قد قوى ساعد المشركين في الجزيرة أن غَلَبُوا إخوانهم ، وكسر ساعد المسلمين ان غَلَبَ إخوانهم من أهل الكتاب ، فليسمَّ الروم غالباً ومغلوباً جبراً لذلك الكسر في نفوس المسلمين ، وزيادة تحمل ملحمة غَلَبَ الروم على الفرس في بضع سنين .

وليست لتقف السورة - بعد - على تلك الغلبة الموعودة في حدود ذلك الحادث الجلل ، فانما هو مناسبة وقتية لينطلق بهم فيها إلى آماذ أوسع من غَلَبَ المسلمين مشركي الجزيرة ، ويا له ولغَلَبَ الروم من قران عجيب إذ غَلَبُوا في بدر وهم أذلة ، وغَلَبَ معهم الروم بعد تسع من ذلك الوعد على الفرس، وهم أذلة و « الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

ويا له من غزير النصر الموعود والمسلمون في مكة مهذدون مستضعفون ، تتواتر عليهم النوازل السوء في كل الحقول ، وليسوا يعتمدون إلا على نصرٍ من الله وروح ورضوان !

﴿ الم ﴾^١ .

هي الثانية في المكيات الأربع حسب ترتيب التأليف ، والثالثة بعد الأولى منها وهي البقرة المدنية الوحيدة في « الم » والمجموع خمس رمزاً إلى ما يعرفه من خطوط بها فانها من مفاتيح كنوز القرآن .

﴿ غَلَبَتِ الرُّومُ^٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ^٣ .

« الأرض » هنا هي أرض الحجاز بقرينة الروم ، وهم قوم كانوا يسكنون ساحل البحر الأبيض المتوسط بالمغرب ، لهم امبراطورية شاسعة إلى اعماق الشامات وهي سوريا والأردن والقدس ولبنان والعراق الحالية .

ف« أدنى الأرض » هي الأدنى من الروم إلى الحجاز ، فقد غلب الروم في عُقر بلادهم بأبعد الأعماق ، أن حَلَقَتْ حربُ الفرس على الروم كله فغلبت عليهم في أدناها إلى الحجاز وهي أبعدُها من الفرس ، مما يدل على آماذ الإنكسار الشامل كل بلادهم : و« غلبهم » هنا مصدر بمعنى المفعول إذ احتفت بـ« غلبت الروم ... سيغلبون » ، و« غلبهم » عليهم بعدما غلبوا ، في أصلها وفي الوقت المحدد « بضع سنين » تحمل ملحمتين اثنتين ، أن يقوم هؤلاء المكسورون المحطّمون عن بكرتهم على سوقهم لحدّ سيغلبون كما غلبوا ، وذلك في أقل من عشر سنين وهي التسع الموافي لغلب المسلمين في بدر ، قراناً منقطع النظير في غلب الضعفاء المؤمنين على الأقوياء الأغوياء المشركين ، وهذان لا يلائمان التقويمات العسكرية في نفس الوقت الذي غلبت الروم انهم « سيغلبون » في بضع سنين .

﴿ فِي بَضْعِ سِنِينَ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾
يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ .

« بضع » هي مادون العشرة ، من ثلاثة إلى تسعة ، كما في السنة^(١) وفي اللغة ، وهذه نبوة صادقة باثقة تبشر بتلك الغلبة الفائقة ، يعرف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مداها ، مهما لم يجد في « بضع سنين » إلا تقريباً قريباً ، وعله كيلا يفاجأ الوحي بتكذيب في عَجالة عارمة ، فلقد

(١) في الدر المنثور ٥: ١٥١ - اخرج في احاديث عدة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان البضع ما بين الثلاث إلى العشر ، رواه عنه نيار بن مكرم وقتادة .

كانت فارس ظاهرة على الروم مما كان يحبه المشركون ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم على الفارس لأنهم أهل كتاب يشاركونهم في التوحيد والایمان الكتابي ، فلما انزلت « غلبت الروم » قالوا - فيما قالوا - : يا ابا بكر إن صاحبك يقول : ان الروم تظهر على فارس في بضع سنين ؟ قال : صدق ، قالوا : هل لك ان نقامرك ؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين فمضت السبع ولم يكن شيء ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين فذكر ذلك للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : ما بضع سنين عندهم ؟ قالوا : دون العشر - قال : اذهب وازدد سنتين في الأجل ، قال فما مضت الستتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس^(٢) وقد غلب المسلمون حينه ببدر ففرح بذلك المؤمنون فرحتين^(٣) .

(٢) المصدر اورد بهذا المضمون أو ما يقرب منه احاديث عدة عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٣) المصدر وما اخرجه فيه بهذا الصدد ما عن ابن عباس في الآية قال : قد مضى كان ذلك في اهل فارس والروم وكانت فارس قد غلبتهم ثم غلب الروم بعد ذلك والتقى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع مشركي العرب والتقى الروم مع فارس فنصر الله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن معه من المسلمين على مشركي العرب ونصر اهل الكتاب على العجم ، قال عطية وسألت ابا سعيد الخدري عن ذلك فقال : التقينا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومشركي العرب والنقت الروم وفارس فنصرنا على مشركي العرب ونصر اهل الكتاب على المجوس فذلك قوله : ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . وفيه (١٥٢) اخرج ابن جرير عن عكرمة ان الروم وفارس اقتتلوا في اذن الأرض - قال : واذن الأرض يومئذ اذرعان بها التقوا فهزمت الروم فبلغ ذلك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واصحابه وهم بمكة فشق ذلك عليهم وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يكره ان يظهر الأميون من المجوس على اهل الكتاب من الروم وفرح الكفار بمكة وشتموا فلقوا اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا انكم اهل

وذلك مما يوحي بترابط وثيق عميق بين الكفر والشر أياً كان وإيان ، وكذلك الترابط بين كتلة التوحيد والايان .

وهكذا انتبه المؤمنون على عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على ضوء دعوته الشاملة أن ليس الايمان محصوراً بحصار زمان أو مكان كما الشرك ، فالكفر ملة واحدة كما الايمان ، فهما خارجان عن كافة الحدود التاريخية والجغرافية والجنسية والقومية أماهيه ؟

فالمعركة في صميمها هي معركة الايمان والكفر بين حزب الله وحزب الشيطان أياً كانوا وإيان ، والمسلمون يد واحدة على من سواهم تسعى بذمتهم أدناهم ، دون ان تفصل بينهم حدود الزمان والمكان وسائر الأبعاد والألوان ، حيث تجمعهم كلمة التوحيد ، فلهم إذاً توحيد الكلمة في كافة الأعصار .
الأمصار .

وما أحوج المسلمين اليوم أن يدركوا طبيعة المعركة المتواصلة بين الكتلتين ، فلا تلهيهم أعلام مزينة خرفه زائفة من الضفة الكافرة ، المخيلة إليهم أنهم أحزاب متفرقة ، فانهم ككل يحاربون الموحدين على العقيدة مهما تنوعت ألوان العلل وقضايا الأسباب .

هنا « يومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله » إياهم في الحربين المقارنتين ، كما « بنصر الله ينصر » الله « من يشاء » فقد حصل بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حرب المسلمين الفرس فتغلبوا عليهم وهذا من تأويل

كتاب والنصارى اهل كتاب وقد ظهر اخواننا من اهل فارس على اخوانكم ان قاتلتمونا لنظهروا عليكم فانزل الله « ألم . غلبت الروم » فخرج ابو بكر الى الكفار فقال : فرحتم بظهور اخوانكم على اخواننا فلا تفرحوا - إلى آخر القصة - .

آية النصر^(٤) ثم نصر متواصل للمسلمين ما قاموا بشرائط الاسلام : « لن يضرركم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا يُنصرون » (١١١:٣) .

« ينصر من يشاء » الله فيشاءه الله ، ومن يشاء منهم النصر بتقديم اسبابه فيشاء الله له النصر بأسباب غيبية ، « وهو العزيز » الغالب « الرحيم » بكتلة الايمان القائمة بشرائطه ، فهناك - إذا - على طول الخط انتصارات متصلة

(٤) نور الثقلين ٤: ١٦٨ في روضة لكافي ابن محبوب عن جميل بن صالح عن ابي عبيدة قال : سألت ابا جعفر (عليه السلام) عن هذه الآية فقال : يا ابا عبيدة ان لهذا تأويلاً لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما هاجر إلى المدينة واطهر الاسلام كتب الى ملك الروم كتاباً وبعث به مع رسوله يدعوه إلى الاسلام وكتب إلى ملك فارس كتاباً يدعوه إلى الاسلام وبعثه اليه مع رسوله فاما ملك الروم فعظم كتاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) واكم رسوله واما ملك فارس فانه استخف بكتاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله وسلم) ومزقه واستخف برسوله وكان ملك فارس يومئذ يقاتل ملك الروم وكان المسلمون يهونون ان يغلب ملك الروم فارس وكانوا لتأخيره ارجى منهم لملك فارس فلما غلب ملك فارس ملك الروم كره ذلك المسلمون واغتموا به فانزل الله بذلك كتاباً قرأناً : « آلم . غلبت الروم . . » يعني غلبتها فارس في ادنى الأرض وهي الشامات وما حولها و « هم » يعني فارس يغلبهم المسلمون « في بضع سنين . . » فلما غزى المسلمون فارس وافتتحوها فرح المسلمون بنصر الله عز وجل .

قال : قلت : إليس الله عز وجل يقول : في بضع سنين « وقد مضى للمؤمنين سنون كثيرة مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي اشارة ابي بكر وانما غلب المؤمنون فارساً في اشارة عمر ؟ فقال : ألم اقل لك ان لهذا تأويلاً وتفسيراً ، والقرآن يابا عبيدة ناسخ ومنسوخ اما تسمع لقول الله عز وجل « لله الأمر من قبل ومن بعد » يعني اليه المشية في القول ان يؤخر ما قدم ويقدم ما أخر في القول الى يوم يحتم القضاء بنزول النصر على المؤمنين وذلك قوله « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » اي يوم يحتم القضاء بالنصر .

الجهات ، متشابهة في شروطات حسب القابليات والفاعليات ثم « العاقبة للمتقين » .

وعلى آية حال فد الله الأمر « في النصر » من قبل ومن بعد « لا سواء ، كما « له الأمر من قبل أن يأمر به وله الأمر من بعد أن يأمر به بما يشاء »^(٥) تكوينياً أو تشريعياً .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^٦ .

« وعد الله » قد يكون مفعولاً مطلقاً لـ « وعد الله » ام مفعولاً لمثل « صدقوا » وهو على اية حال تأكيد أن : « سيغلبون » وعد من الله محتوم و « لا يخلف الله وعده » حيث الخلف ليس إلا عن جهل أو عجز أو بخل أو ظلم أو نسيان أماذا من نقص فيمن وعد ، والله بريء عن كل ذلك فلا خلف لوعده ، فانه صادر عن علمه وإرادته الطليقة وحكمته العميقة ، قادراً على تحقيقه ، ولا راد لإرادته ، ولا معقب لحكمه ، « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وعد الله ، ولا أنه لا يخلف الميعاد ، وهم غير المؤمنين بالله ، انهم لا يعلمون كناس منقطعين عن الإيمان ووحية وعد الله وإنجازه ، فحقاً إنهم لا يعلمون ، وإنما :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾^٧ .

هنا « يعلمون » بديلاً عن « لا يعلمون » إعلان صارخ أن علمهم هذا جهل أمام العلم الحق الحقيقي بالإنسان ، ثم هي استثناء عن « لا يعلمون » تستثني ضئيلاً من العلم يختص ظاهراً من الحياة الدنيا فأصل العلم هو العلم

(٥) نور الثقلين ٤ : ١٧٠ في الخرائج والجرائح في اعلام الحسن العسكري (عليه السلام) ومنها ما قال ابوها سأل محمد بن صالح ابا محمد (عليه السلام) عن قوله تعالى « لله الأمر من قبل ومن بعد » فقال : ...

الإيمان بالإيقان بالمبدء والمعاد وما بين المبدء والمعاد ، من الواجب معرفته أخذاً من المبدء وحيّاً وسواء ، وانتهاءً إلى المعاد لقاءً للرب .

ثم العلم بالحياة الدنيا إذا كان ذريعة إلى الشعور الكامل بزوالها ، ومنظاراً للنظر إلى عواقبها ، ومعياراً للعمل الصالح فيها لأخراها ، فهو علم يباطنها إبصاراً بها حيث تُبصر أصحابها ، دون الإبصار اليها كمنتهى وغاية فانها - إذا - تعميهم .

هؤلاء الأغبياء إنما « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » فقد يُعلم باطنها بملكوها ويُركن - رغم ذلك العلم - اليها ، أو يعلم كل ظواهرها ومظاهرها دون باطنها فأجهل بالحق وأنكى ، ذرهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، ألم يعلموا أن لها مبدءً ومعاداً ؟ .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾^١ .

فقضية تكوينهم ان يفكروا كيف كُونُوا ومن كُونَهُمْ ولماذا ؟ وان يفكروا في انفسهم - دون اقتصار على ظاهر من الحياة الدنيا - يتفكروا أنه « ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق » : بسبب الحق وغايته ومصلحته ومصاحبته ، وإلا به « اجل مسمى » حيث الكون بنفسه دليل على ضرورة نهايته كما يدل على بدايته للفقر الذاتي فيه ، « و » لكن « إن كثيراً من الناس » وهم النسناس منهم « بقاء ربهم » في ربوبية الجزاء يوم الآخرة « لكافرون » كفراً مصلحاً عامداً ، ام تجاهلاً وتغافلاً .

وَيُكَانُهُمْ منفصلون عن نفوسهم الإنسانية إذ انقطعت عن انفسها وانجذبت إلى ظاهر من الحياة الدنيا ، فلا تسمح لهم أن يبصروا بها حتى يتبصروا ؛ وإنما يبصرون إليها فيعمهون ؛ كل عاقل ذي نفس إنسانية لما يسبر

أغوار نفسه وهو يرى خلق الكون ، لا بد وأن يرى له غاية مقصودة ترجع إلى الكون نفسه وأنفس نفيسه وهو الإنسان ، فلو لم تكن حياة أخرى بعد الدنيا لكان الخلق لغواً ، أم لغاية جاهلة قاحلة هي الحياة الدنيا ! فكيف إذا هم « يعلمون ظاهراً » دون كل ظواهرها ، ظاهراً من حيونة الحياة ضئيلاً زهيداً قليلاً هزياً ، متبهجين بها ، مغلدين اليها ، متمتعين بها ، مستريدين متزايدين بشهواتها وزهواتها ، ملتهين بلهواتها ، كأنها هي الحياة لا سواها « وهم عن الآخرة هم غافلون » .

« هم » الثانية هنا تأكيد أنهم لا سواهم غافلون عن الآخرة ، حيث العالم بكل ظواهرها ، والعالم بباطن لها أم كل باطن لها ، لا بد وأن يذكر الآخرة المتلمعة منها .

ولأن الغفلة ليست إلا عن أمر حاصل ، فلا بد أن العلم بالدنيا كما يحق يضم العلم بحق الأخرى ، فالحياة الآخرة علماً بها وتحقيقاً لها هي من محاصيل الحياة الدنيا ، حيث النظير الصائب اليها يذكر الناظر الحياة الأخرى ، والعمل الصالح فيها يحضر حياة الحيوان في الأخرى .

كل ظواهر الحياة الدنيا محدودة معدودة ، فضلاً عن « ظاهراً من الحياة الدنيا » مهما بدا لأهلها شاسعاً ناصعاً ؛ والآخرة هي الحلقة الأخيرة الدائبة في سلسلة النشآت الحيوية ، فكلما بعدت آماذ العلوم والأنظار في هذه الحياة ، طليقة عنها إلى حقيقتها الحاضرة والمستقبل ، واتسعت الأفاق في تلك المطلعات والنظرات ، كانت حصيلة العلم بالآخرة أزهى وأضحى ، واصحابها أبصر بالحق الطليق وأبعد عن العمى ، وعلى حد قول الامام علي (عليه السلام) في وصفها : « من أبصر بها بصرته ومن أبصر اليها أعمته » .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُ الْأَرْضِ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرُ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ .

وإذا لم يعلموا هم في أنفسهم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا إذ لم يتفكروا فيها فغفلوا عن الأخرى « أولم يسيروا في الأرض » سيراً آفاقياً بعد التغافل عن السير الأنفي « فينظروا » نظر التعقل والتفكير والإعتبار « كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » من المشركين أضرابهم ، أن اخذهم عذاب الهون بما كانوا يكسبون وقد « كانوا أشد منهم قوة » عِدَّةٌ وَعُدَّةٌ « وأثاروا الأرض » إثارة الزرع والعمار « وعمروها » بمختلف العمار « أكثر مما عمروها » وهم كما انتم « جاءتهم رسلهم بالبينات » فجحّدوا بها « فما كان الله ليظلمهم » أن يعذبهم دون حجة « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » بما كذبوا وما عذبوا .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السَّوْءَى أَنْ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ .

« عاقبة » خبر مقدم لـ « كان » فقد يكون اسمها « السَّوْءَى » ام « ان كذبوا » و « السَّوْءَى » مفعول أساءوا ، وهي كالحسنى وضدها في المعنى ، مؤنث الأسوء : « ولنجزينهم أسوء الذي كانوا يعملون » (٢٧: ٤١) « ليكفر الله عنهم أسوء الذي عملوا » (٣٩: ٣٥) .

فالمعنى على كونها الاسم المؤخر أن عاقبتهم أسوء من حاضرتهم ، فحياتهم الحاضرة سيئة بكفرهم وعذاب الاستئصال ، والحياة العاقبة لهم من الرجعة والبرزخ والقيامة هي السَّوْءَى ، أن كذبوا بآيات الله ، فقد كان السَّوْءَى عاقبتهم بما كذبوا ، وليست السَّوْءَى هي الأسوء من سوءهم لأنه خلاف « جزاء سيئة سيئة مثلها » بل هي الأسوء من دنياهم ، رغم انها دار الحيوان .

وعلى الثاني ، ثم كان التكذيب بآيات الله عاقبة الذين اساءوا السوائى ، ان خلفت سواهم في سيئاتهم أن كذبوا بآيات الله .
ولكن « السوائى » لا تصلح مفعولاً لـ « اساءوا » فانها لا تُساء إلا تحصيلاً للحاصل بل الأحصل ، ثم التأنيث لا يناسب المقام ، بل هو - إن صح - أساء الأسوء ، اي : عملوا الأسوء ، كما « لنجزيم أسوء الذي كانوا يعملون » .

فالتعبير الصحيح الفصيح عن مفعولية « السوائى » هو « عملوا الأسوء » تبديلاً لكل من الفعل والمفعول ، ثم يبقى - إذاً - « وكانوا بها يستهزئون » عطفاً لا يناسب السبب « ان كذبوا » لأنه مع « السوائى » ردفاً مفعولياً ، لا مع « كذبوا » ردفاً سببياً .

إذاً فالإسمية لها هي المتعينة ، ان الحياة السوائى هي عاقبتهم في رجعة ثم برزخ ثم القيامة الكبرى ، رغم ان الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون ، وقد بدلوها بسوائى الحياة بما كانوا يعملون .

ان التكذيب بآيات الله والإستهزاء بها هما الحياة الجهنمية في الأولى ، حيث يخلفان أسوء الأعمال بأسوء الأحوال ، فعاقبتهم هنا عذاب الإستئصال ، وهي الجهنمية الأولى ، « ثم كان عاقبة الذين اساءوا » هكذا وابتلوا باستئصال هي « السوائى » التي تعقبهم بعد الموت ، برزخاً ورجعة وقيامة كبرى ، خلاف ما « للذين احسنوا الحسنى وزيادة » .

و « ان كذبوا . . » قد تكون بياناً لـ « اساءوا » دون حاجة إلى تقدير ام سبباً لـ « السوائى » ام هما معنياً شجعاً بينهما ، ان اساءتهم هي تكذيبهم واستهزاءهم ، وهي هي السبب ان كان عاقبتهم السوائى ، وهي أسوء العواقب على الإطلاق دون مفضل عليه هو السوء في الدنيا ، ام بمفضل عليه

هو عذاب الاستئصال بتكذيبهم ، وعلّهما معاً معنيان ، ولمعرفة العقوبة السيئة للذين اساءوا وكذبوا بآيات الله ، يؤمرون ان يسيروا في الأرض ، دون انعزالية عن ذلك السير المبصر المذكر ، ساكنين في امكنتهم كالقوقعة ، ام سائرين في الأرض حيوانياً وشهوانياً ، وانما هو السير الإنساني العاقل الكافل بالإبصار لهؤلاء الغافلين عن المسائر والمصاير .

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ١١ .

منه البداية ومنه الإعادة والرجوع اليه في النهاية ، إعادة إلى حياة في الأخرى ، ثم رجوعاً إلى الله جزاء حساباً ، ثواباً وعقاباً ، والبداية هنا هي أعم من الإعادة حين يُعنى منها الإعادة للحساب كما تؤيده « ثم إليه ترجعون » أم هما سيان ، حيث يبدأ كل خلق ثم تقوم قيامة الإمامة والتدمير ، الشاملة لكل خلق ، ثم يعيد الله كل الخلق قسماً للرجوع إليه حساباً ، وقسماً بلا حساب ، بل هو أمكنة السكنى لهم كما في الحياة الدنيا ، مهما كانت أوسع كما الآخرة هي أرحم منها .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ١٢ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ ١٣ .

الإبلاس هو الإياس مع حيرة وتراه كيف يختص بـ « يوم تقوم الساعة » وهم آيسون في البرزخ كما عند الساعة ؟ علّ الساعة هنا هي ساعة الموت مستمرة إلى ساعة الساعة فهم فيها ككل مبلسون ! ام ان إبلاسهم في البرزخ برزخ من الإبلاس وهو إياس مع رجاء ، إذ لم يجزوا بعد جزاءهم الأوفى ، فقد يبقى لهم رجاء إلى رحمة الله حيث يرون خفيف العذاب ، ويوم تقوم الساعة يتم إبلاسهم بما يرون من شديد العذاب ومديده ، فالיום إذاً هو يوم الإبلاس الإفلاس وقد فات رجاء الخلاص ولات حين مناص ، ولم يكن في

البرزخ كامل الإبلّاس ، ولم يكن إياسه - إذاً - إبلّاساً ، إذ كان معه رجاء !
واضافة إلى ذلك الإبلّاس الإياس « ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء » وقد
كانوا يرجون شفاعتهم فانقطع الرجاء ، إياساً بعد إياس .

وقد تعني « يبلّس » كلا الإبلّاسين ، من الله ومن شفعاّتهم « وكانوا
بشفعاّتهم كافرين » اتراهم كانوا بهم كافرين يوم الدين ؟ وصحيح التعبير
وفصحيه « كفروا بشركائهم » أو « يكفر بعضهم ببعض » !

أم « كانوا » قبل الساعة « يوم الدنيا » وقد كانوا بهم مؤمنين يرونهم
شفعاءهم عند الله ! قد تعني « كانوا » بين النشأتين وهم في البرزخ حيث
يكفرون هناك بشركائهم ، ولكن كفرهم معه رجاء حيث الشفاعة سلبية وإيجابية
لا تظهر إلّا يوم القيامة ، ففيه « ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء » والحال
أنهم « كانوا » قبله بشركائهم كافرين .

أم ان « كانوا » تعبير ماض عن مستقبل متحقق الوقوع ، عناية إلى
كفرهم بهم يوم الدين ، أم هي تشمل كفرهم بهم في البرزخ والأخرى .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُورَثُونَ ﴾ ١٤ .

هؤلاء المجرمون يتفرقون عن المؤمنين : « وامتازوا اليوم ايها
المجرمون » (٥٩: ٣٦) خلاف ما كانوا يحسبون : « ام حسب الذين اجترحوا
السيّات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصّالحات سواء محياهم ومماتهم ساء
ما يحكمون » (٢١: ٤٥) .

كما هم يتفرقون فيما بينهم وبين شركائهم ، وبينهم وبين انفسهم ،
تفرقاً عن الحب يوم الدنيا ، حيث « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلّا
المتقون » (٦٧: ٤٣) فتفرق الفرار بعضهم عن بعض « يوم يفر المرء من اخيه
وامه وابيه . وصاحبه وبنيه » (٣٦: ٨٠) وتفرقاً في دركاتهم هناك حسب

دركاتهم في الأولى ومن التفرق الأول :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ ١٥ .

الروضة هي مستنقع الماء والخضرة وهي في الجنة : « ... » والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير » (٢٢: ٤٤) و « روضات الجنات » هي محاسنها وملاذها بمياهها وخضرتها وسائر مشتياتها مادية وسواها .

و « يُحْبَرُونَ » من الحبر : الأثر المستحسن ، فقد تعني انهم يظهر عليهم جبار نعيمهم ككل من ملاذ سمعية وبصرية وذوقية ولمسية وشمية أمأهيه من مادية أو روحية دون ابقاء ، فانهم هناك ضيوف الله وفي دار كرامة الله ، فلا حد لحظوتهم .

ليس انهم يلتذون بما كان محرماً عليهم يوم الدنيا ، بل بالحل المستدام بكل وثام وإكرام وقد « قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : إذا كان يوم القيامة قال الله : أين الذين كانوا ينزّهون أسماعهم وأبصارهم عن مزامير الشيطان ميزوهم في كتب المسك والعنبر ثم يقول للملائكة أسمعوهم من تسبيحي وتحميدي وتهليلي ، قال : فيسبحون باصوات لم يسمع السامعون بمثلها قط » (٦) .

(٦) الدر المنثور ٥: ١٥٣ - اخرج الديلمي عن جابر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ... » وفيه اخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة قال قال رجل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اني رجل حبيت إلى الصوت الحسن فهل في الجنة صوت حسن ؟ فقال : اي والذي نفسي بيده ان الله يوحى الى شجرة في الجنة ان اسمعي عبادي الذين اشتغلوا بعبادتي وذكرى عن عزف البرابط والمزامير فترفع بصوت لم يسمع الخلائق بمثله من تسبيح الرب وتقديسه ، وفيه اخرج الحكيم الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من استمع إلى صوت

اجل وليس الصوت الحسن محرماً هنا لحسنه ، وانما هو الملهي حسناً وسواه ، وهو مزمار الشيطان^(٧) دون ذكر الرحمن في قرآن وسواه حيث التحسين فيه مرغوب مرحوب ، وتلك هي صفة الايمان :

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾^{١٦}

واين محضرون في العذاب ومحبرون في روضة الثواب ؟ رحمة على رحمة وعذاباً فوق العذاب ؟

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾^{١٧} وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾^{١٨}

« سبحان » اسم مصدر وهو التسبيح وقد جعل علماً له ويستعمل استعماله ، ولكن حاصل المصدر ملحوظ معه على أية حال ، وهو هنا مفعول محذوف هو طبعاً سَبَّحُوا أو أَسْبَحَ ام هما ، ان الله يسبح نفسه تنزيهاً عما لا

غناء لم يؤذن له ان يسمع الروحانيين في الجنة ، قيل ومن الروحانيون يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : قراء أهل الجنة .

(٧) نور الثقلين ٤ : ١٧١ عن المجمع بسند متصل عن ابي امامة الباهلي ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجلية ثنتان من الحور العين تغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ، ولكن بتمجيد الله وتقديسه . وفيه عن ابي الدرداء قال كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يذكر الناس فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم وفي القوم اعرابي فجثا لركبته وقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هل في الجنة من سماع ؟ قال : نعم يا اعرابي ، ان في الجنة نهراً حافتاه الأبنكار من كل بيضاء يتغنين باصوات لم تسمع الخلائق بمثلهما قط فذلك افضل نعم الجنة ، قال الراوي سألت ابا الدرداء بم يتغنين ؟ قال : بالتسبيح .

يناسب ساحته ، ويأمرنا كذلك ان نسيحه كما سبح هو نفسه ، ولكن « حين تمسون » تؤصل تسييحنا له إذ هو تعالى لا يسبح نفسه - فقط - في هذه الأوقات ، وإنما نحن نسيحه فيها كما هو يسبح نفسه دوماً ودواماً انقطاع بآياته الأفاقية والأنفسية أماهيمه من خلقه تسييحاً منفصلاً ، كما وان ذاته وصفاته ذاتية وفعلية تسييحات لنفسه المقدسة .

« فسبحان » هنا تفريع على ما قَدَّم من مشاهد الدنيا والآخرة لضفّي الايمان والكفر ، بفوز المؤمنين أنهم « في روضة يجبرون » وخوض الكافرين في الجحيم انهم « في العذاب محضرون » . إذا كانت عاقبة الذين اساءوا السوأى وعاقبة المؤمنين الحسنى « فسبحان الله » ايها المؤمنون . . .

« سبحان الله » هنا يخلق على الأوقات الرئيسية المؤقتة للمفروضات الخمس الرئيسية ، وعلى هوامشها سائر الأوقات حيث تتبعها .
« وله الحمد » تختص الحمد لله بالله في كل مكان المعبر عنه بالسموات والأرض ، وقد توسطت « له الحمد » لأمكنها بين سبحان الله في أزمتها ، تحليقاً للحمد له على كل زمان ومكان دون إبقاء ، فهي جملة معترضة في أدب اللفظ ، وصحيحة بدورها في حذب المعنى .

ولأن « سبحان الله » هي بإمكان المكلفين بها ككل ، تأتي هنا بظاهرة الأمر ، ولكن الحمد لله ليست هي بإمكان الكل لأنها وصف له ايجابي فـ « سبحان الله عما يصنعون » . إلا عباد الله المخلصين « (١٥٩: ٣٧) » تأتي هنا الظاهر الخبر « وله الحمد » وما اجملها في صيغة التعبير ، وما ارتبهما في ترتيب الذكر العبير ، مهما دلت آيات اخرى على فرض التسبيح بالحمد ، وقد تعني هذه الإوقات الأربع الخمس من أوقات الفرائض الخمس بضم العشائين مع بعض في « عشياً » الشامل لطول الليل ، الحاوي لفرضيه ، دون « تعشون »

١٢٨ الجزء الحادي والعشرون

المختص ببداية الليل الخاصة بفرضه الأول : المغرب ، وهذا هو السبب لاختلاف « عشيّاً » اسماً عن الثلاثة الأخرى « تمسون - تصبحون - تظهرون » أفعالاً .

فه « حين تمسون » هي العصر المحدد في النهاية بغروب الشمس ، كما « حين تصبحون » هي الفجر المحدد بطلوعها : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » (٢٠: ١٣٠) - . . وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » (٥٠: ٤٠) .

هنا وهناك نؤمر بالتسبيح بالحمد ، حيث التسبيح وهو الأصل في ذكر الله في صلاة وسواها ، انه يُستكمل بالحمد ، ان نحمده مسبحين اياه عما لا يُحمد حمده به من صفات زائدة على الذات ، أو محدودة بحدود أفكارنا وعقولنا ، فحين نقول « لا يجهل » فقد سبحناء مجرداً ، وحين نقول « هو العالم » علينا ان نحوله إلى أنه لا يجهل ، فالأصل الشامل في حمدنا له هو تسبيح بالحمد ، الراجع إلى سلب ، كما التسبيح المجرد سلب ، فلا غم لك تجاه الله إلا معرفة السلبيات ولا سبيل لنا إلى تفهم ايجابيات الصفات لا الذاتية منها ولا الفعلية ، اللهم إلا طرفاً منها سطحياً حين نسبر اغوار الكون في آياته الأفاقية والأنفسية .

« حين تمسون » هنا هي وقت العصر ، وعله يتقدم هنا على سائرهما حيث الإنسان خالص - في الأكثر - عن أشغاله فيه ، فعليه أن يسبح الله فيما حصل وما هو حصل ، أن ليس من الله في أي منها قصور أو تقصير .

ثم « وحين تصبحون » علينا أن نسبحه حين ندخل في الصباح وهو الفجر الصادق ، ونتبنى الفجر الى العصر وإلى فجر آخر تسبيحاً لله .

ثم بينهما وهما ركنا الأوقات الخمسة « وعشياً » بالعشائين المفصول بينهما بقدر وهو ساعة أو سويعات كما يستفاد من آية النور « ومن بعد صلاة العشاء . . » ، ثم بين الفجر والعصر « وحين تظهرون » والإنسان غارق في خضمّ الأشغال ، مارق عن عبادة ربه بطبيعة الحال ، فليخلق التسبيح بحمد الرب هذه الأوقات الرئيسية على مختلف درجاتها ودرجات الصلوات فيها ، وأفضلها حسب آية الأسرى قرآن الفجر ، وضمن آية الصلاة الوسطى صلاة الظهر ، أم صلاة الجمعة الوافية للظهر ، وعلى حد المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية هي الصلوات التي امرني ربي بها^(٨) .
كما يخلق حمده على كل الكائنات « وله الحمد في السماوات والأرض » .

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ
أَنۢ خَلَقَكُمْ مِّنۢ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنۢتُمْ بَشَرٌ تُنشِرُونَ ﴿٢٠﴾
وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنۢ خَلَقَ لَكُم مِّنۢ أُنۢفُسِكُمْ أَزۡوَاجًا لِّتَسْكُنُوا
إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحۡمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلَقُ السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ اللَّسٰنُكُمۡ وَاللَّوۡنُكُمۡ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ لِّلْعٰلَمِیۡنَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُمۡ بِاللَّیْلِ وَالنَّهَارِ

وَأَتَّبَعُواكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ
أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً
مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ
أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ
فِي مَارْزَقِكُمْ فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ فِيهِ سَوَاءٌ لَّخَفَاوْنَهُمْ تَكْبِفُونَ أَنْفُسَكُمْ
كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ

الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ
وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ ١٩ ۝ ﴾

سنة دائبة ربانية لا تني وتفشل لحظة واحدة ، خارقة مكرورة على اية
حال قد لا نحسبها خارقة لطول الألفة ، وهي إخراج الحي - نباتياً أو حيوانياً
أو انسانياً - من الميت ، وإخراج الميت كذلك من الحي ، بصورة عامة في كل

(٨) نور الثقلين ٤ : ١٧٢ في من لا يحضره الفقيه وروى عن الحسن بن علي بن ابي طالب
عليهما السلام انه جاء نفر من اليهود إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فسأله اعلمهم
عن مسائل فكان فيها سأل قال : اخبرني عن الله عز وجل لأي شيء فرض هذه الخمس
الصلوات في خمسة مواقيت على امتك في ساعات الليل والنهار - الى ان قال (صلى الله عليه
وآله وسلم) : فوعدني ربي ان يستجيب لمن دعاه فيها وهي الصلوات التي امرني ربي بها في
قوله : فسبحان الله . . .

وفي الدر المنثور ٥ : ١٥٤ جاء نافع بن الأزرق الى ابن عباس فقال : هل تجد
الصلوات الخمس في القرآن ؟ قال : نعم فقرأ هذه الآية - واخرج ابن ابي شيبة وابن جرير
وابن المنذر عن ابن عباس قال : جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة .

كائن ميت وحي ، ثم بصورة خاصة : « ويحيى الأرض بعد موتها » حسب اختلاف الفصول « وكذلك » الذي يخرج الحي ويحيى الأرض انتم « تخرجون » من أجداثكم أحياء ، ثم وكما أنه يحيى الأرض هنا لصالح الحيوية الدنيوية بصورة عامة ، ثم خاصة هي إحياءها بالعدل^(٩) ، كذلك يحييها بعد قيامتها لصالح الحيوية الأخروية بكل عدل « ان الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون » .

فإحياء الأرض بمن عليها بالحياة الحيوان أخرى من إحياءها بالحياة الدنيا « وكذلك تخرجون » عند إحياءها بعد إمامتها ، إخراجاً لكم أحياء عن أرض تُحيى بعد موتها .

إذا فليس الإحياء بعد الموت بدعاً من الإحياء غريباً يستغربه الناكرون ، بل هو قريب لكل من ألقى السمع وهو شهيد ، فيستقر به المؤمنون انكم : « كذلك تخرجون » :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ٢٠ .

ومن آيات إخراجكم كذلك بعدما تموتون « ان خلقكم . . » فمن الذي يقدر ان ينكر خلقه من تراب ، إخراجاً له حياً من ميت التراب « ثم إذا » بمفاجأة تعيشونها على مدار الحياة « أنتم بشر تنتشرون » لحاجياتكم الحيوية .

و « ثم » هنا كما في « ثم انشأنه خلقاً آخر » (٢٣: ١٤) تراخي بين خلقه من تراب ونفخ الروح فيه ، والمفاجأة هي حصول أمر غير متروك :

(٩) نور الثقلين ٤: ١٧٣ في الكافي عن أبي إبراهيم (عليه السلام) في « يحيى الأرض بعد موتها » قال : ليس يحييها بالفطر ولكن يبعث الله رجالاً فيحيون العدل فتحى الأرض لأحياء العدل وإقامة العدل فيه انفع في الأرض من الفطرار بعين صباحاً .

سورة الروم / آية ١٩ - ٢٩ ١٣٣

انتشار البشر الحي من التراب الميت ، ولكنها متواترة طول الحياة وكذلك تُخرجون ، و « خلقكم » هنا الخلق الأول وهو آدم حيث خُلِقَ طِفْرة دون تحولات من تراب ، وكذلك خلق بنيه فانهم ككل مخلوقون من عناصر ترجع إلى التراب بتحويلات ، بل وهو القدر المعلوم هنا من « خلقكم » لمكان « ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » !-

تري أن أصل الإنسان - فقط - التراب ؟ ولزامه في خلقه في كل أطواره السالفة - لإنشاء خلقاً آخر - الماء ، وكما في آية أخرى « خلقكم من طين » ؟
علّه لأن التراب هو الأصل بينه وبين الماء ، ولا تعني « من تراب » إنحصار أصله فيه ، وإنما كأصل ميت كما الماء ميت مثله ، ثم انتشر البشر بين الميتين حياً .

ثم التراب يعم رطبه - وهو الطين - ويابسّه وهو غير المبتلّ ، فلا يخص الثاني حتى يكون نصاً في غير المزيج بالماء .
أوليس بأحرى أن يخلقكم بعد موتكم وأرواحكم حية ، رجعاً لها إلى أصول أبدانكم فإذا أنتم إلى ربكم تُحشرون لتحصلوا على محاصيل حياة التحصيل : « لتجزى كل نفس بما تسعى » ؟ !

فهذه الخارقة الربانية المتواترة المتلاحقة آية من آيات القدرة الباهرة كأصل ، وآية انكم « كذلك تخرجون » لأنه فرع تلك القدرة .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ٢١ .

هذه آية للقدرة الرحيمية الإلهية وانكم تخرجون ، تحمل آيات لقوم يتفكرون ، وهذا تعبير رقيق عن أعماق العلاقات بين الزوجين بما جعل الله ، التقاطاً لصورتها من أعماق القلب وأغوار الحس كما ألهاها الله ، إلفاتاً

إلى أعظم النعم الحيوية المعيشية لقبيل الإنسان أياً كان وأيان « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ »

« أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً » و « كم » هنا تعني كل البشر من انثى وذكر ، فقد خلق لكل من نفسه زوجاً ، فللذكر زوج الانثى وللأنثى زوج الذكر ، حيث الزوج هو القرين وأقرن القرناء للحياة الإنسانية هم الأزواج ، تأسيساً للحياة البيئية العائلية ، التي تنشأ منها كل المجتمعات الإنسانية الأخرى .

واللام في « لكم » للإنتفاع حيث يتنفع كل زوج من زوجه مختلف منافع الزوجية ، دون اختصاص بالذكور من الأناث ، كما ان « كم » تشملهما دون اختصاص ، فقد جهز كل بجهاز لا يتم فاعليته إلا بقرنه بالآخر ، لواقع اللذة المرغوبة جنسياً ، وحاصل الولائد التي هي استمرارية حياتها وأنس لهما وعضد في حاجيات الحياة ، وبالكمل منهما من تركيب نفسي وعصبي وعضوي ، لوحظت فيه رغائب كل بتلبياتها ، اثتلافاً وامتزاجاً على طول الخط ، ولإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد يستمر به الوالدان وذلك الافتقار لكل إلى الآخر جنسياً وولادياً هو الذي يحرك كلاً إلى الآخر ، ويحمل كلاً عبء الحياة الزوجية للآخر وهما يتقبلانها بكل إقبال وإجمال .

و « من » هنا جنسية تعني المجانسة بين الزوجين ، لا النشوية إذ لم ينشأ كل من الآخر ، والزواج محرم بين ناشيء من آخر وهو الولادة قريبة أم بعيدة .

ولماذا « خلق لكم من انفسكم ازواجاً » ؟ « لتسكنوا إليها » حيث الزوج لا يسكن إلى زوجه من غير جنسه ، مهما انفلت اليه احياناً كما في زواج بين

الإنس والجن ، فانها فلتة لا تدوم ، والحياة الزوجية هي حياة السكن الدائمة .
فقد « خلق » : لتسكنوا « لكم » : لتسكنوا « - من انفسكم » -
« لتسكنوا » فالسكن الحيوي عن ضربات الحياة الدنيوية واضطراباتا هو
- بالفعل - الغاية المقصودة من « خلق لكم من انفسكم » مثلث من الآيات
الرحمات تنحو منحى سكون الحياة عن اضطرابات ، ولأن مجرد الخلق لكم
لتسكنوا لا يكفي وثاماً تاماً بين الزوجين تاماً ، والرابطة الجنسية غير كافلة
بتحمّل مشاق الحياة العائلية ، لذلك :

« وجعل بينكم مودة ورحمة » تحكيماً لتلك العلاقة الوطيدة بين
الزوجين ، فالمودة - كما يتلمح من آياتها - هي المحبة الظاهرة في العمل ،
وكصّراح لهذه اللمحة « ان ربي رحيم ودود » (١١ : ٩٠) حيث الودّ بعد الرحمة
ليس رحمة مجردة ، إذاً فهو الرحمة البارزة واقعياً .

والمودة المفعولة بين الزوجين ظاهرة في عشرينها إن لم يحصل مانع في
البين ، فالحياة الزوجية الودية تشغل - لولا الموانع - مشاعرهم وأعصابهم ،
قالاتهم وفعالاتهم وكل اتصالاتهم وانفصالاتهم ، وحقاً يروى عن رسول
الهدى انه « ما يعدل الزوج عند المرأة شيء » (١٠) ، ثم « ورحمة » قد تعني

(١٠) نور الثقلين ٤ : ١٧٤ في الكافي احمد بن محمد عن معمر بن خلاد قال سمعت ابا
الحسن (عليه السلام) يقول : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لابنة جحش :
قتل خالك حمزة ، قال : فاسترجعت وقالت : احتسبه عند الله ثم قال لها : قتل اخوك
فاسترجعت وقالت احتسبه عند الله ثم قال لها : قتل زوجك فوضعت يدها على رأسها
وصرخت فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما يعدل الزوج عند المرأة
شيء ، وفيه عن الكافي محمد بن يحيى عن احمد بن محمد عن علي بن الحكم عن معاوية بن
وهب قال : سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول : إنصرف رسول الله (صلى الله
عليه وآله وسلم) من سرية قد كان اصيب فيها ناس كثير من المسلمين فاستقبلته النساء
يسألن عن قتلاهن فدنّت منه امرأة فقالت يا رسول الله ما فعل فلان ؟ قال : وما هو

بعد « مودة » الرحمة الزائدة بعد الولادة بالولائد وبين الوالدين ، أم هي تأثر نفساني إيجابياً بمودة ، وسلبياً حين يرى الزوج زوجه بحاجة مدقعة أمأهيه من حرمانات ، فيحاول في جبرها قَدْرَ المستطاع ، كما بالنسبة للولائد الصغار ولافتقارهم وصغارهم .

ومن ناحية أخرى كلما ولّى الشباب توارى معه الجمال ، وضعفت القوة الجنسية ، والذرية تجبر ذلك التواري والإنكسار حيث تظهر انوار الرحمة المتوارية وراء ظلمة الشَّبَق والشهوة فلا تزال الرحمة تزداد عطفاً بينهما بشأن الذرية وبشأنهما كمنشأين للذرية ، وهذه هي الرحمة بعد المودة .

ثم « لآيات لقوم يتفكرون » في « أن خلق لكم . . » هي آية الرحمة الرحمانية خلقاً لنا ، وآية الرحمة الرحيمية أن جعل لنا أزواجاً من أنفسنا ، وأخرى هيه « وجعل بينكم وبينهم مودة ورحمة » وثالثة أن خلق لنا بزواجنا مواليد ، إخراجاً لأحياء من ميئات المياه المتوية ، وهذه الأخيرة هي من آيات المعاد انكم « كذلك تخرجون » .

فالحلق العجيب الإنساني بكل حذافيره فردية وجماعية ، جسمية وروحية أمأهيه ، إنه آية تحوي آيات آفاقية وأنفسية بشتات رحمت الله « لقوم يتفكرون » فيها ، ثم بعد هذه الآيات القريبة في أعماقنا ، التي نعيشها في ذواتنا وذاتياتنا وصفاتنا وكل حيوياتنا ، هنا نقلة إلى واسع الكون ككل :

منك ؟ قالت : اي ، قال : احمدي الله واسترجعي فقد استشهد ، ففعلت ذلك ، فقالت يا رسول الله وما فعل فلان ؟ فقال : وما هو منك ؟ فقالت : اخي فقال : احمدي الله واسترجعي فقد استشهد ففعلت ذلك ثم قالت يا رسول الله ما فعل فلان ؟ فقال : وما هو منك ؟ قالت : زوجي - قال : احمدي الله واسترجعي فقد استشهد فقالت : واويلي فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما كنت اظن ان المرأة تعبد بزوجه هذا كله حتى رأيت هذه المرأة ! .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ٢٩ .

اختلافات ثلاث كل تدل بدورها على تخليق قاصد ، دوغما صدفة عمياء ، ام ارادة محصورة بلون واحد من الخلق ، ف« خلق السماوات والأرض » بمختلف أشكالهما وأحوالهما ، « واختلاف الستكم واللوانكم » وانتم كلكم مخلوقون من تراب ، كل ذلك دليل التصميم الحكيم في كل خلق « ان في ذلك » الخلق المختلف المؤتلف « آيات للعالمين » فطرياً وعقلياً وفكرياً ، فلسفياً وتجريبياً ، أم أي حقل من حقول العلم الإنساني ، فانه ايأ كان يُستخدم لهذه المعرفة الغالية نظراً إلى الخلق ككل بمختلف اطواره وتطوراته ، ونظراً إلى اختلاف الإنسان في الألسنة والألوان^(١١) وكما ان اختلاف الألسنة والألوان آية القدرة الحكيمة الرحيمية « للعالمين » المفكرين فيها ، كذلك هو آية للتعرف إلى اصحابها ، فقد تشير الألوان والقالات إلى الحالات « للعالمين »^(١٢) كما وان في معرفة الألوان والألسن المختلفة « آيات

(١١) نور الثقلين ٤ : ١٧٣ في علل الشرايع باسناده الى عبد الله بن يزيد بن سلام انه سال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال اخبرني عن آدم لم سمي آدم ؟ قال : لانه خلق من طين الأرض وادعها ، قال : فأدم خلق من الطين كله أو من طين واحد ؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : بل من الطين كله ، ولو خلق من طين واحد لما عرف الناس بعضهم بعضاً وكانوا على صورة واحدة ، قال : فلهم في الدنيا مثل ؟ قال : التراب فيه ابيض وفيه اخضر وفيه اشقر وفيه اغبر وفيه احمر وفيه ازرق وفيه عذب وفيه مالح وفيه خشن وفيه لين وفيه اصهب ، فلذلك صار الناس فيهم لين وفيهم خشن وفيه ابيض وفيهم اصفر واحمر واصهب واسود على ألوان التراب .

(١٢) نور الثقلين ٤ : ١٧٤ في أصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) انه قال : ان الامام إذا ابصر الى الرجل عرفه وعرف لونه وإن سمع كلامه من خلف حائط عرفه وعرف ما هو ان الله يقول « ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف الستكم واللوانكم ان

للعالمين » بها^(١٣) وقد يعرف العارف بها وحدتها في اصلها .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاءُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ٢٣ .

هنا « منامكم بالليل والنهار » يعم النوم لهما، كما « وابتغاءكم من فضله » يعني بهما تعميماً آخر ، وآيات أخرى تختص الليل بالنام والنهار بابتغاء فضل

في ذلك لآيات للعالمين ، وهم العلماء فليس يسمع شيئاً من الأمر ينطق به الا عرفه : ناج أو هالك فلذلك يجيبهم بالذي يجيبهم « وفيه عن توحيد المفضل بن عمر عن الصادق (عليه السلام) في الرد على الدهرية : تأمل يا مفضل ما انعم الله تقديست اسماء به على الانسان من هذا النطق الذي يعبر عما في ضميره وما يخطر بقلبه ونتيجة فكره ، به يفهم غيره ما في نفسه ولولا ذلك لكان بمنزلة البهائم المهيمة التي لا تخبر عن نفسها بشيء ولا تفهم عن غير شيء . . . ان الإنسان وان كان له في الأمرين - الكتابة واللغة - جميعاً فعل او حيلة فان الشيء الذي يبلغ به ذلك الفعل والحيلة عطية وهبة من الله عز وجل في خلقه فانه لو لم يكن له لسان مهياً للكلام وذهن يهتدي به للأمور لم يكن ليتكلم ابداً . . فاصل ذلك فطرة الباري جل وعز وما تفضل به على خلقه فمن شكر أثبت ومن كفر فان الله غني عن العالمين .

(١٣) المصدر في بصائر الدرجات احمد بن محمد عن علي بن الحكم عن حماد بن عبد الله الغرا عن معتب انه اخبره ان ابا الحسن الاول لم يكن يرى له ولد فأتاه يوماً اسحق ومحمد اخواه وابو الحسن يتكلم بلسان ليس بعربي فجاء غلام سقلاوي فكلمه بلسانه فذهب فجاء بعلي ابنه فقال لأخوته : هذا علي ابني فضموه اليه واحداً بعد واحد فقبلوه ثم كلم الغلام بلسانه فذهب به ثم تكلم بلسان غير ذلك اللسان فجاء غلام اسود فكلمه بلسانه فذهب فجاء بابراهيم فقال : هذا ابراهيم ابني فكلمه بكلام فحمله فذهب به فلم يزل يدعو بغلام بعد غلام ويكلمهم حتى جاء بخمسة اولاد والغلمان مختلفون في اجناسهم والستهم ! « وفيه عن عمار السباطي قال قال لي ابو عبد الله (عليه السلام) يا عمار ! : « ابو مسلم وظلله وكسا فكسحه مسطوراً » قلت : جعلت فداك ما رأيت نبطياً أفصح منك ، فقال : يا عمار ويكل لسان .

الله « إنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً » (٢٧: ٨٦) « وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً » (٧٨: ١١) ومن الأولى خلطاً بينهما « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » (٢٨: ٧٣) .

والجمع يلمح بأصالة الليل سكناً والنهار مبصراً ، وفرعية المعاكسة عند الحاجة ، وطبعاً إبصاراً بالليل بضياء ، وإظلاماً بالنهار بستر ، حيث النور تمنع الرياحة كما الظلمة تمنع السعي للمعيشة ، « وابتغاءكم من فضله » في النهار ظاهرٌ تكسباً للمعيشة التي هي على أية حالة من فضل الله ، فليست المساعي لتحصيلها إلا أسباباً قررها الله لإدراك فضله كما يشاء ، فقد يكون السبب طلب المعيشة ، وأخرى هو التقوى لمن يترك طلب المال إلى طلب العلم تعلماً وتعليماً وتطبيقاً يجمعها علم التقوى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » (٦٥: ٢ - ٣) .

كما ابتغاء فضله بالليل يعمها ، ولا سيما صلاة الليل التي هي ابتغاء لفضله روحياً ومادياً ، إذ لا يخص ابتغاء فضله بليل أو نهار بالمادي المعيشي ، بل والروحي ، فليعيش الإنسان دوماً ليل نهار ابتغاءً من فضل الله في يقظته ، ورياحة عن ابتغائه بنومه ، بل والنوم ايضاً من فضل الله حيث يريح الإنسان عن عبء الطلب ويعدده لمواصلته ابتغاءً لفضل الله أياً كان .

وليس النوم مما يتغنى إذ قد يُهمل فيه فينهل الجسم وتنحل القوى ، فـ « فيه راحة البدن وإجمام قواه . . . ولو كان إنما يصير إلى النوم بالتفكر في حاجته إلى راحة البدن وإجمام قواه كان عسى أن يتشاغل عن ذلك فيدفعه حتى ينهل بدنه » (١٤) .

(١٤) نور الثقلين ٤: ١٧٧ في توحيد المفضل عن الصادق (عليه السلام) والكرى يقتضي النوم الذي فيه راحة البدن . . .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْضِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ٢٤ .

هنا « يريكم » هي من آياته ، حيث الفعل الآية من الآية ، كما ومتوجه البرق آية ، وتقدير « أن » خلاف الفصيح حيث ذكرت قبل في أفعال « أن خلقكم - أن خلق لكم » فتركها هنا ترك مقصود دون حذف ، وقد تكون « يريكم » نازلة منزلة المصدر كما « تسمع بالمعيدي خير من أن تراه » ولكن الأول - عله - أولى أن « يريكم » نفسها كفعل بمفعولها ، هما من آياته ، فهناك « أن خلقكم - أن خلق لكم » ليستا بانفسهما مرثيتين ، كما « أن تقوم السماء والأرض بأمره » حيث الخلق يسبقنا فكيف نتمكن من رؤيته ، وقيام السماء والأرض بأمره أمر يُدرك بامعان ولا يرى ، ولكن البرق يُرى ، و « يريكم » نفسها هي من آياته .

وظاهرة البرق هي من نشأت النظام الكوني بما يكونها الله ، انتشاء من شرارة كهربائية بين سحابتين محمليتين بالكهرباء أو بين سحابة وجسم أرضي كقمة جبل أم شجرة أماهيه ، ينشأ عن هذه الشرارة تفريغ في الهواء متمثلاً في الرعد الذي يعقب البرق ، ويصاحبه في الغالبية تساقط المطر نتيجة لذلك التصادم .

ورؤية البرق تُطمع كما تخوف ، طمعاً في « وينزل من السماء ماء » وتخوفاً عن تحريقات وتحريقات أرضية بصدام البرق ، فإماتة لأهلها ، فنحن إذا أمام البرق بين خوف الموت وطمع الحياة « فيحيي به الأرض بعد موتها » على طول خط الحياة « إن في ذلك » الإراءة والتنزيل والإحياء « لآيات لقوم يعقلون » أنكم « كذلك تخرجون » .

فللعقل مجالات في هذه الآيات تدليلاً على رحمت منها الحياة بعد

الموات ، فانها تعقل وتؤخذ من أمثالها في تواتر الموت والحياة .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ ٢٩ .

قيام السماء والأرض - وهما الكون المخلوق كله - هو قيامهما على حالتهما الحيوية كما هي منذ خلقنا وأكملنا بما خلق فيهما وما بينهما ، و« ثم إذا دعاكم » تراخٍ بين قيامهما وهذه الدعوة المحيية بقيامة الإمامة الشاملة للسماء والأرض .

وكما أنهما تقومان بأمره ، كذلك تنفطران بأمره ، وأنتم - كذلك - تخرجون بأمره ، وهو كلمة « كن » التكوينية ، وبالنسبة للمكلفين إضافة إليها « كن » التشريعية .

فكما السماء والأرض من آياته ، كذلك قيامهما بأمره وخرابهما بأمره ، فلتكن هذه القدرة الشاملة شاهدة صدق له انتم تخرجون .

وبماذا تتعلق « من الأرض » ؟ بـ « دعاكم » ؟ وليس الله الداعي في الأرض حتى « إذا دعاكم من الأرض » ! أم بـ « تخرجون » ؟ فلماذا قدمت على متعلقها ؟

التقدم في المحتمل الثاني لغاية الحصر ، انكم تخرجون - فقط - من الأرض التي فيها تدخلون ، وعمل الأول معنى ضمنه لا بمعنى ان الداعي هو في الأرض ، وإنما دعوته لإخراجنا من أجداننا صادرة منه من الأرض ، كموضع لتجلي الدعوة ونفاذها حيث ينفخ في الصور والناقور فيصل فيما يصل إلى المدفونين في الأرض فيحيون ، ولا ضير أن يُعنى ضمن المعنى دونما استقلال والأصل هو الآخر .

و« إذا » الثانية للمفاجأة قائمة مقام فاء الجزاء لشرط « إذا » الأولى ،

فالخروج من الأرض حياً بعد موت مفاجئة في متاه ومُدهاه ، وليس بدعاً من الحياة بعد الموت المتواترين المتلاحقين على مر الزمن دون ابقاء ، كيف لا ؟ :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ ٢٦ .

« له » ملكية ومِلْكِيَّة حقيقية ذاتية دوغما زوال ولا انتقال « من في السماوات والأرض » فضلاً عنهما ، « كلٌّ » منهما ومن فيها ، « له » لا لسواه « قانتون » خاضعون لإرادته ، فالقنوت هنا - ككل - هو الطاعة الخاضعة الخاشعة التكوينية ، مهما كان المؤمنون له « قانتون » تشريعياً كما هو تكوينياً .

فـ « من في السماوات والأرض » ككل - عصاة ومؤمنين ، هم له قانتون في كل كونهم وكيانهم مهما عصت عقول بعضهم وأعمالهم ، وليست النقلة إلى الحياة الأخرى فعلة لهم مختارة حتى يتمكنوا من عصيانها ، فكما أحياهم دون اختيار لهم إذ لم يكونوا أحياء ، كذلك يحييهم بعد موتهم « لتجزى كل نفس بما تسعى » .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَذَّقُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ٢٧ .

ولأن « له ما في السماوات والأرض » و « كل له قانتون » دوغما استقلال لشيء وتمنّع عن إرادته ، فـ « هو الذي يبدء الخلق » أياً كان البدء وآيان ، بدء لا من شيء كالخلق الأول ، وبدء من شيء هو الخلق الأول وسائر الخلق في المراحل الأخرى ، وبدء لخلق الانسان ، وإذا كان البدء منه فالإعادة أولى « ثم يعيده وهو أهون عليه » .

فالبدء أياً كان هو إنشاء من غير مثال سبق ، والإعادة إنشاء سبق مثاله في البدء ، سواء أكانت الإعادة بعد الإعدام المطلق كما قبل مطلق الخلق ، أو الإعادة بعد مطلق الإعدام ، كما قبل الإعدام ، فالإعادة لما بدء ثم أعدم هي

سورة الروم / آية ١٩ - ٢٩ ١٤٣

على أية حال أهون من البدء قياساً بينهما ، وقياساً إلى القدرة المحدودة ، واما بالنسبة للقدرة غير المحدودة فلا مراحل في الهون كما الصعب ، فلا صعب لها ولا أصعب ، ولا هين ولا أهون ، فكل هين تجاه القدرة المطلقة الإلهية على سواء كما « قال ربك هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » (١٩:٩) .

والخلق الثاني أهون من الأول في نفس الذات وبالنسبة للقدرة المحدودة ، ولكنه هنا « عليّ هين » لا أهون ، ثم « قد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » تعطى أولوية لهذا المنيّ هنا ، ويعبر عنها في آيتنا بـ « هو أهون عليه » ولا تعني إلا تنازلاً في التفضيل ، وليس في الحق عنده في قدرته تفضيل .

إذاً « وهو أهون عليه » قد تعني الأهون في نفس الذات وبالنسبة لقدراتكم ؟ ولكن « عليه » قد تمنع عنايتها لخصوص هذين الأهونين ! أم « هو أهون عليه » تنازلاً في التفضيل في حقل القدرة : « وهو العزيز » وحقبة في التفضيل في حقل العدالة « وهو الحكيم » .

فالبدء للخلق - أيأ كان - هو قضية الفضل ، واما الإعادة - للمعاد الحساب - فهي قضية العدل ، والعدل أهون من الفضل وأوجب في مثلث المقاييس : بينهما ، وبالنسبة للعزة والحكمة المحدودتين ، وبالنسبة للعزة المطلقة والحكمة اللامحدودة .

أضف إلى كل ذلك كهامش في المعنى المعنيين الأولين للأهون حقيقياً ، والثالث تنازلاً في الحوار .

فقد تعني « وهو أهون عليه » سداسية المعاني ، والأصل في الثلاثة الأول التنازل في التفاضل : لو كان له هين وأهون فـ « هو أهون عليه » ، ثم

الأصل في الثلاثة الأخرى ان العدل أهون على الله من الفضل من حيث الحكمة ، لا القدرة .

إذا « وهو العزيز الحكيم » قد تشيران إلى تنازل التفاضل بجانب القدرة العزة ، وحقيقة التفاضل في مقياس الحكمة ، حيث العدل أوجب على الله من الفضل ، كما الفرض أولى من الندب ، أولوية حقيقية دونما تأويل ، خلاف الأولوية التنازلية في حقل القدرة .

وهنا يتبين المعني من « وله المثل الأعلى في السماوات والأرض » حيث المثل في الأصل هو الصفة ، فعلية كما هنا حيث السماوات والأرض وما فيها هي فعليات صفات الله ، ام وذاتية كما في النحل « للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم » (٦٠) .

فمثله المطلق كما هنا يعم صفات ذاته إلى صفات فعله ، ومثله في السماوات والأرض يخص صفات فعله .

فأمثال الله في السماوات والأرض بدء وإعادة كلها عالية ، ولكن الإعادة هي من المثل الأعلى وهو العدل فانه أعلى من الفضل وأهون ، وكما أوليائه المقربون السابقون وقد يروى عن أسبقهم وأقربهم إلى الله محمد (ص) قوله : نحن كلمة التقوى وسبيل الهدى والمثل الأعلى والحجة العظمى والعروة الوثقى « (١٥) ، فهم مثل أعلى عن دونهم من المؤمنين ، والعدول من

(١٥) نور الثقلين ٤ : ١٨٠ في عيون الأخبار بإسناده الى ياسر الخادم عن ابي الحسن علي بن موسى الرضا عليها السلام قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام) يا علي ! انت حجة الله وانت باب الله وانت الطريق الى الله وانت النبا العظيم وانت الصراط المستقيم وانت المثل الأعلى ، وفي العيون في الزيارة الجامعة السلام على الأئمة الهدى . . وورثة الأبياء والمثل الأعلى ، وفيه (٨١) عن العيون عن عبد الله بن

هؤلاء مثل أعلى ممن لا يعدل تماماً وهكذا ، ثم المثل يعم من ناحية أخرى صفات الفعل التشريعية إلى صفات فعله التكوينية ، فالشريعة التوراتية مثل أعلى من الشريعة الإبراهيمية ، كما الشريعة القرآنية هي مثل أعلى من كل شريعة إلهية .

وكما الإنسان ككل هو مثل أعلى من الناحية التكوينية « فتبارك الله أحسن الخالقين » ومن الناحية التشريعية إذ شرع له أحسن الشرائع بين كافة العقلاء ، وحين يشاركه بعضهم كالجن وسواه في شرعته فهو الأصل فيها رسالة ومرسلاً إليه .

ثم « الأعلى » في « المثل الأعلى » قد تكون كما هنا ، الأفضل بين أمثاله تعالى ، كما الإعادة مثل أعلى من البدء ، أم الأعلى من مثل غيره ، فصفاته الفعلية - وهي كل خلقه بمختلف أمثاله الأدنى والوسطى والعليا - هي أعلى من صفات خلقه ، وكما ان صفات ذاته وذاته أعلى ممن سواه .
وأمثال الله تعالى بكل مراتبها حسنة وفق طليق العزة والحكمة ، وأمثال غيره بين سيئة وحسنة هي طبعاً دون أمثال الله : فـ « للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء » إذ يرجحون البدء الفاني وهو من فضله ، على الإعادة الباقية وهي من عدله ، ترجيحاً للفضل المؤقت في ذلك الخلق العظيم دوغماً غاية مقصودة إلا حياة ضئيلة هزيلة هي في الحق خلاف الفضل ، ترجيحاً على العدل في الإعادة وهي الغاية المقصودة من البدء « لتجزى كل نفس بما تسعى » عدلاً وفضلاً بواقعها الطليق العميق .

العباس قال قام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فينا خطيباً فقال في آخر خطبته :

وكما انه « ليس كمثله شيء » كذلك ليس كمثله مثل ، « وله » السابقة على « المثل الأعلى » تفيد الحصر ، فهو « رب المثل الأعلى عما به مثله - والله المثل الأعلى - الذي لا يشبهه شيء ولا يوصف ولا يتوهم ، فذلك المثل الأعلى » (١٦) .

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ٢٨ .

« ضرب لكم » المتخذين لله شركاء « مثلاً من أنفسكم » مثل قريب وهل هناك مثل أقرب من أنفسكم ، دون حاجة إلى رحلة قريبة أو بعيدة ام تفكير عميق فإنه مثل كأبسطه وأقربه اليكم بين كافة الأمثال وهو :

« هل لكم من ما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم » يشاركونكم فيما تملكون ، رغم أنهم أنفسهم مما تملكون « فأنتم فيه سواء » كشركاء سواء فيما يتصرفون ، ثم « تخافونهم » في المزيد من التصرف فيما تملكون « كخيفتكم أنفسكم » أنتم المالكين في أموال مشتركة بينكم ؟

وذلك سؤال التنديد التجهيل عمن يشركون بالله خلقه فيما يختص بالله من ربوبية ، لهم ما لله من التصرف في ملكه ، فيخافهم الله كما يخاف من شريك ، رغم ان الشركة بين المالكين والماليك امر ممكن ، وبالنسبة لله

(١٦) نور الثقلين ٤ : ١٨٠ في كتاب التوحيد بإسناده الى حنان بن سدير عن ابي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه : وقوم وصفوه بيدين فقالوا : يد الله مغلولة - وقوم وصفوه بالرجلين فقالوا : وضع رجله على صخرة بيت المقدس فمنا ارتقى الى السماء ووصفوه بالأنامل فقالوا : ان محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : اني وجدت برد انامله على قلبي ، فلمثل هذه الصفات قال : رب العرش عما يصفون - يقول : رب المثل الأعلى ...

مستحيل ذاتياً وصفاتياً .

« كذلك نفصل الآيات » الدالة على التوحيد « لقوم يعقلون » آياته تعالى ويتدبرون .

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ٢٩ .

ليس انهم اتبعوا عقولهم في اتخاذهم لله شركاء « بل اتبع الذين ظلموا » في هذه القسمة الضيزى ألا يرتضوا لأنفسهم شركاء من عماليك ، ثم يفرضون لله شركاء .

اتبعوا هؤلاء « أهواءهم » دون عقولهم ، إتباعاً « بغير علم » فحتى لو اتبعوا أهواءهم بعلم ما كانوا مشركين ، وذلك هو الضلال البعيد .

إذا « فمن يهدي من أضل الله » فانهم زاغوا باتباعهم أهواءهم بغير علم مقصرين « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » واضلها أن ختم عليها بكفرهم فهم لا يهتدون « وما لهم » حين يضلهم الله « من ناصرين » يهدونهم الى الحق .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

فَطَرَتْ اللَّهُ آلَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

* مُبِينٌ إِلَيْهِ وَآتَقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا

كُلِّ حَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ
دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا
فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ
فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا
فَهُوَ يَنْكَرُهُمْ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا
النَّاسَ رَحْمَةً فَارْحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَعَاتِبِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ
السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ
فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ
رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ

مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٠﴾
 ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ
 لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
 الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ
 يُصَدِّعُونَ ﴿٣٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا
 فَلَا نَفْسٍ بِهِ يَمْهَدُونَ ﴿٣٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ
 لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَدِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٣٠ .

تأتي « فطر » بمشتقات لها في آياتها العشرين ، وما أتت « فطرت الله »
 إلا في هذه اليتيمة المنقطعة النظير ، مهما نجد الكثير من احكام الفطرة كما هنا
 في الآية (٣٣) ثم واشباهها في سائر القرآن .
 لذلك فحق لها ان تنفرد ببحث فذ وقول فصل ، تحوم حولها كافة

البحوث حول الفطرة وميزاتها وأحكامها ، حيث تظهر في مسارح البراهين كأقوى برهان يصدع به القرآن ، حيث لا تقف له القلوب ، ولا تملك رده النفوس ، تلك الحجة البالغة التي تتبناها الفكر والعقول ، ومن ثم كافة الرسائل الإلهية في كل الحقول ، ولولاها لسقطت الحجج عن بكرتها ، وتساقطت البراهين عن برهنتها ، ولأنها أعمق الآيات الأنفسية واعرقها ، حيث تتبناها سائر آياتها ، كما تتبناها الآيات الأفقية كلها .

فالفطرة هي رأس الزاوية من مثلث الإنسانية بدرجاتها ، ثم الزاوية العاقلة تتبناها وتتكامل على أسسها وأساسها ، ومن ثم الثالثة : الشرعة الإلهية هي صبغتها الكاملة السابقة .

الإنسان أياً كان حين يفقد العقل - وبطبيعة الحال يفقد الشرعة المتبنية للعقل - ليس ليفقد الفطرة على أية حال ، حال أن العاقل قد يفقد الشرعة ويضل عنها ، فالفطرة حجة ذاتية لا تتخلف ولا تختلف في أصحابها ، ثم العقل تستبطنها وتستنبطها وتوسع مدلولها ، ومن ثم الشرعة الإلهية ترشدهما إلى تفاصيل مجهولة لديهما وتكملهما جملة وتفصيلاً ، فالفطرة حجة اجمالية بسيطة ، والعقل حجة متوسطة وبسيطة ، والشرع حجة موسعة محيطية ، تصل بهما إلى أعلى معاليهما (١٧) .

(١٧) الدين واحد والشرعة هي عدة متشعبة عن الدين الواحد ، ثم الدين أصله دين الفطرة ومن عمالها العقل ، ثم أقوى منها دين الوحي المخطيء للعقل والمكمل لأحكام الفطرة وقد زُود به آدم (عليه السلام) إذ لم تشرع له شرعة تفصيلية .

ثم المرحلة الثالثة من الدين هو دين الشرعة ، المحتفظ بأحكام الفطرة ، المقررة باثبات الواجبات والمحرمات ، والمفرع لكل شرعة ومنها حسب الحاجيات الوقتية حتى الشرعة الأخيرة التي هي الدين كله بكل التفاصيل الخالدة .

هنا « فطرت الله » ذات نسبتين واربع صفات ، نسبة إلى الله :
 « فطرت الله » وأخرى إلى الناس : « التي فطر الناس عليها » وقد احتفتها
 اربع صفات : « الدين حنيفاً » قبلها و « لا تبديل لخلق الله ذلك الدين
 القيم » بعدها .

فنسبة الفطرة الى الله توحى بانها ليست إلا من صنع الله ، لا صنع ولا
 تأثير ولا تبديل فيها لغير الله ، كيف وهي - فقط - خلق الله و « لا تبديل
 لخلق الله » فهي وحي تكويني الى اعمق اعماق ذوات الناس ، كظرف صالح
 للوحي التشريعي ، وهنا التطابق التام بين كتابي التكوين والتشريع بحق
 الناس ، فالتشريع الإلهية كلها تفاسير وتفاصيل لما أجمل في الفطرة ، لذلك
 فالحق يقال : إن دين الله فطري إذ بتنى الفطرة ، ومؤلف الكتابين خلقة
 وشرعة هو الله الواحد القهار !

ومن ثم نسبة الفطرة الى الناس وهذه الصيغة السائغة « فطر الناس
 عليها » توحى أنها الأصل والناس فرع عليها ، فكما النطفة هي أصله في
 البعد الجسماني ، كذلك الفطرة هي أصله في بعده الروحي الانساني .

إم إن « عليها » ايحاء بان الفطرة ليست مجعولة بجعل ثان بعد الروح ،
 بل هي مجعولة بجعل الروح ، وعمل الأول أوحى حيث يتضمن أصلاتها
 والروح فرع لها وإن كانا مجعولين بجعل واحد ، بل هما أصلاً وفرعاً واحد
 إذ لا يتفارقان .

وقد امرنا بإقامة الوجه لها رخاء ولا نكون من المشركين هنا ، وبصيغ
 أخرى كما في غيرها : « فاقم وجهك للدين من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من

= فاول نبي بعث بشرعة من الدين هو نوح وآخرهم الرسول الخاتم محمد (صلى الله
 عليه وآله وسلم) .

الله « (٣٠) » وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين «
(١٠: ١٠٥) » أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا
يعلمون « (١٢: ٤٠) .

وهنا عرفنا سبع تصد عن جهالات سبع ، تحملها آية الفطرة
بمواصفاتها الست ، فرضاً لمنطلق الدعوة : الرسول الأعظم محمد (صلى الله
عليه وآله وسلم) « فاقم وجهك .. » وإلى الناس اجمعين كضابطة سارية
تعم كافة المكلفين : « فطر الناس عليها » .

والصاروخ الركوب ، المنطلق به بينها في هذه الرحلة للطائر القدسي
الإنساني هو « فطرت الله التي فطر الناس عليها » وسائر السبع زاده في طريقه
الشاقة الطويلة المليئة بالأشلاء والدماء .

وهذه الست المستفادة بسابعها من آية الفطرة هي : ١ - معرفة
النفس ، ٢ - حبها ، ٣ - ومعرفة الوجه ٤ - ودينه ، ٥ - وحنافته ، ٦ -
 وإقامته ،^{٢٧} وسابعها هي الفطرة .

فما لم تعرف نفسك كما هي حسب إمكانيتك لم تحبها كما يصح ويحق ،
ومن ثم تتعرف إلى الدين القيم ، وإلى الوجه وإقامته ، وإلى الحنافة نفساً
وديناً ووجهاً وإقامةً أماهيه ، فتكمل سفرك إلى الله بمنطلق الفطرة التي فطر
الله ، فإلى التنقيب عن آيتها جملة وتفصيلاً ، ابتداءً بجملتها :

« فاقم » يا رسول الهدى في معترك العقائد والآراء بين هابطة حابطة
خابطة ، وبين صالحة عاقلة رائعة بما لها من حجج بالغة ، فانه « هو الذي
يبدء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض
وهو العزيز الحكيم »^{٢٧} ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت
إيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم
كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون^{٢٨} بل اتبع الذين ظلموا أهوائهم بغير علم

فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين « ٢٩ - « فاقم وجهك للدين حنيفاً . . . » كأول قيام وأولاه وأعلاه فانك « أول العابدين » وأولى القائمين : « يا أيها المدثر . قم فانذر . . » - يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً . . . » فقيامك هو الذي يقوم الجماهير ويقيمهم . .

« فاقم . . منيبن اليه » واقامة تجعلك اول القائمين ، ومن ثم الى الناس اجمعين . .

« فاقم وجهك » ايها الإنسان السالك الى ربك « للدين » الذي ارتضاه لك « حنيفاً » : مائلاً عن الضلالة الى الإستقامة ، فانه الحنف خلاف الجنف ميلاً عن الإستقامة الى الضلالة ، « حنيفاً » في نفسك وفي وجهك وفي إقامتها وفي الدين الذي تدين به ، فانها مربع الحنافة في هذه الإقامة البارعة ، ومن الدين الحنيف :

« فطرت الله التي فطر الناس عليها » فالدين الحنيف الذي هو الغاية القصوى في هذه السفرة الإلهية ، هو التوحيد ، وافضل ركوب في تلك الرحلة هو « فطرت الله التي فطر الناس عليها » لا أنها - فقط - الدين الحنيف ، لذلك « فاقم وجهك للدين حنيفاً » لا « إلى الدين » وإنما إقامته « إلى » تنطلق من « فطرت الله » .

وعلى النصب في « فطرت الله » خلاف الجر في « للدين » للتدليل على أنها ليست هي - فقط - الدين حنيفاً ، وإنما هي من الدين ومنطلقه الأول ، كآية أنفسية أولى ، ليست قبلها ولا معها أية آية أنفسية يبتدئ السالك منها ، وينطلق عنها إلى الدين القيم الحنيف ، الشرعة الإلهية الكاملة ، والتوحيد الخالص الناصع .

فقد يعني نصبه نصبه المنصب الأول في إقامة الوجه للدين : أعني

فطرت الله - إلزم فطرت الله - أخص من الدين الحنيف فطرت الله ، أماذا من ناصبات مناسبات ؟

« لا تبديل لخلق الله » - « خلق الله » هنا ليس كل خلق الله فان منها ما يبذل بحق أو باطل كما هدد الشيطان : « ولأمرهم فليغيرن خلق الله .. » . فما هو إلّا دين الفطرة حيث الدين الشرعة هو من الأمر وليس الخلق « ألا له الخلق والأمر » فمهما كان في مائر الدين تبذل أو تبديل ، كدين العقل والشرعة من الدين ، في حق أو باطل ، كالعقل الضائع أو الذي تصيبه جنة قاصدة أو قاصرة ، وكالشرعة المحرفة أو المنسوخة ، ولكن دين الفطرة لا تبذل فيه ولا تبديل ، لأنه المنطلق الأصل الدائب لدين العقل والشرعة .

« لا تبديل لخلق الله ذلك » الإقامة بوسيط الفطرة هو « الدين القيم » الذي لا زوال له ولا اضمحلال ، إذ لا ريب فيه ولا نقصان أو بطلان يعتريه « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » مثلث الدين ، فطرة وعقلية وشرعة ، ولا وجهاً ولا إقامة ولا حنافة ولا قيمومة ، متورطين في مسبع الجهالات ، ولذلك لا ينجون في الحياة مهما شرّقوا أو غربّوا ، حيث غربت عقولهم وحجبت فطرهم .

هذا اجمال عن مغزى الآية ومن ثم التفصيل ، ولنبدء برأس الزاوية في مسبع العرفات : « فطرت الله » وهي كلها رثوس الكمالات الإنسانية وجماع فضائلها وفواضلها :

الفطرة هي حالة خاصة من الفطر ، وهو الشق « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير » (٦٧: ٣) والفطور هو الفروج

والشقوق والفتوق والخروق ، انفصالات متهافة متفاوتة في خلق الرحمن تحيلها آية الفطور ، والفطر بين شق طالح فوصله صالح ، وبين شق صالح عن فصل طالح ، وخلق الرحمن كله شق صالح كما فلق الحب والنوى « وقد فلق حب الإنسان ونواه فطراً صالحاً بفطرة هي الدين الخفيف القيم .

ثم ذلك الشق في الفطر له مَيِّزُ الإبتداء الإبتداع^(١٨) دون مجرد الخلق الأعم من مُبتدئ مبتدع، ففيه - إذاً - أوليان اثنتان بدءً وبدعاً ، خلاف سائر الخلق بعد الأولية وغير المبدعة إذ تخلق على مثال ما خلق مثله أول مرة ، ولمحة صارخة صارخة لهذه الميزة في الفطر : « فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة » (٥١: ١٧) حيث الفطر المقابل للإعادة يناسبه البداية ، وليست الإعادة فطراً كما « ومالي لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون » (٢٢: ٣٦) حيث الرجوع العود يقابل الفطر فهو البدء « كما بدأنا أول خلق نعيده » (١٠٤: ٢١) ، ثم الفطرة هي هيئة وحالة خاصة من ذلك الفطر خُصت في آيتها بالناس كما اختصت بالله : « فطرت الله التي فطر الناس عليها » .

إذاً فللفطرة في خلق الناس الأولية المتينة المكيئة ، المبدئة المبدعة المزيجة بأصل ذاته ، المدغمة في إنياته لمكان « فطر الناس عليها » دون « فطرها على الناس » أو « فطر معها الناس » أماذا من تعابير تجعلها فرعاً على ذوات الناس ، أم موازية في فطر الناس ، وإنما « فطر الناس عليها » مما يبرهن أنها رأس الزاوية من كون الناس وكيانهم ، القاعدة الأصيلة من الإنسان أياً كان بقلبه وقالبه .

فكما أن للإنسان كياناً حيوانياً أصيلاً تتبناه أجزائه وأعضائه ، وهي

(١٨) لسان العرب عن ابن الأثير الفطر الابتداء والاختراع والفطرة منه الحالة .

النطفة التي خلق منها ، كذلك - وبأحرى - له كيان إنساني أصيل تتبناه روحه وعقله وصدره وقلبه ولبه وفؤاده ، ألا وهي « فطرت الله التي فطر الناس عليها » .

وهذان البُعدان هما جوهر إنسانية الإنسان كمزيج من حيوان وإنسان ، والبُعد الأصيل بينهما هو بُعد الفطرة ، ومن ثم بُعد النطفة ، وقد تعنيها آية الذر في « ذريتهم » : « وإذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين . أوتقولوا إنما اشرك آباءنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » (١٧٣:٧) فذريتهم هي فطرتهم تعبيران عن حقيقة واحدة كما في روايات متظافرة^(١٩) وتلمح لذلك كصرامة آية الذرية ، وقد نأتي على بحثها كما يناسب بحثنا حول آية الفطرة .

وانها ذرية الأرواح ، أعمق اعماقها وهي الفِطر، فكما للأجسام ذريات هي النطف التي خلقت منها ، كذلك للأرواح ذريات هي الفِطر التي فطر الناس عليها ، ومن الفارق بين الذريتين ان ذرية الفطرة لا تتبدل وذرية النطف تتبدل ، وقد فطر الله الأجسام على ذريات النطف، وفطر الأرواح على ذريات الفِطر ، والذريتان هما أصل الإنسان في بُعديه ، وسائر أجزاءه الروحية والبدنية فروع ، مهما تأصلت في فترة التكليف .

وميثاق : « الست بربكم » بإجابته : « قالوا بلى » هو ميثاق تكويني

(١٩) نور الثقلين ٤ : ١٨٤ ح ٥٣ عن اصول الكافي بإسناده عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال سألت عن قول الله عز وجل : « فطرت الله التي فطر الناس عليها » ما تلك الفطرة ؟ قال : هي الاسلام فطرهم الله حين اخذ ميثاقهم على التوحيد قال الست بربكم وفيه المؤمن والكافر .

على فطرة الله التي فطر الناس عليها حيث « فطرهم على التوحيد عند الميثاق »^(٢٠) ، وهو رؤيته تعالى بالقلب^(٢١) .

فطرة الإنسان باقية ما دامت له باقية مهما فقد جسمه وعقله ، فانها لزام الروح الإنساني حيث « فطر الناس عليها » ولولاها لم يكن ناسٌ ، فهي تلازم حياته الإنسانية تعيشها وتعيشها كإنسان ، ولذلك تجب إقامة الوجه لها بكل وجوهه ، فانها أصل الدين الخفيف القيم وجذره « لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

(٢٠) المصدر ٩٦: ٣ ح ٣٥٢ في كتاب التوحيد بإسناده المتصل عن زرارة قال قلت لأبي جعفر (عليه السلام) اصلحك الله قول الله عز وجله في كتابه « فطرت الله التي فطر الناس عليها » ؟ قال : فطرهم على التوحيد عند الميثاق وعلى معرفة انه ربهم قلت : وخاطبوه ؟ قال : فطاطا رأسه ثم قال : لولا ذلك لم يعلموا من ربهم ولا من رازقهم .
اقول : لولا ذلك يعني فطرهم على التوحيد ، فليس مقولة ومسألة فانها لا تضمن المعرفة ، وانما تبني الذات على المعرفة هو الذي يتضمن المعرفة .

(٢١) المصدر ٩٧ في كتاب التوحيد بإسناده الى أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قلت له اخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمن يوم القيامة ؟ قال : نعم وقد رأوه قبل يوم القيامة فقلت متى ؟ قال : حين قال لهم « الست بربكم قالوا بلى » ثم سكت ساعة ثم قال : وان المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة الست تراه في وقتك هذا ؟ قال ابو بصير فقلت له جعلت فداك فأحدث بهذا عنك ؟ فقال : لا فانك اذا حدثت به فانكر منكر جاهل بمعنى ما تقول ثم قدر ان ذلك تشبيه كفر وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون .

اقول : وليست الرؤية المعرفة القلبية بصرف المسألة .

وفيه ج ٣٦٢ عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله : الست بربكم قالوا بلى « قالوا بالستهم ؟ قال : نعم وقالوا بقلوبهم فقلت واي شيء كانوا يومئذ ؟ قال : صنع منهم ما اكتفى به .

والدين الحنيف القيم الذي لا تبدل له ولا تبديل هو كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » كما وآية الفطرة وآيات إقامة الوجه للدين الحنيف القيم ، فيها كلا السلب والإيجاب التوحيدي ، فهنا « حنيفاً .. ولا تكونن من المشركين » هما سلب : لا إله - و « منيبين إليه واتقوه » هما الإيجاب : إلا الله .

اجل - إن « فطرت الله التي فطر الناس عليها » هي « دين الله » (٢٢) الحنيف القيم الذي لا بديل عنه ولا تبديل له ، وهي المعرفة (٢٣) وهي التوحيد (٢٤) وهي الاسلام (٢٥) وهي الولاية (٢٦) وهي كلها واحدة :

عبارتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير
فه « دين الله » هو معرفة الله ، وهي ولاية الله ، وهي الاسلام لله ،

(٢٢) الدر المشور ٥: ١٥٥ - اخرج عن جماعة قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فطرة الله التي فطر الناس عليها قال : دين الله .

(٢٣) نور الثقلين ٤: ١٨٤ - القمي باسناده عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : سألت عن قول الله عز وجل : حنفاء لله غير مشركين به قال : الحنيفة من الفطرة التي فطر الله عليها لا تبديل لخلق الله - قال : فطرهم على المعرفة به ..

(٢٤) المصدر ١٨٣ - اصول الكافي باسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في آية الفطرة قال : فطرهم على التوحيد ورواه مثله عنه هشام بن سالم وعبد الله بن سنان والعلاء بن فضيل ، وفيه عن زرارة عنه (عليه السلام) مثله باضافة « جميعاً » .

(٤٥) المصدر باسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (عليه السلام) عن الآية ما تلك الفطرة ؟ قال : هي الإسلام فطرهم الله حين اخذ ميثاقهم على التوحيد قال : الست بربكم وفيه المؤمن والكافر .

(٢٦) المصدر - اصول الكافي باسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : هي الولاية .

وهي توحيد الله ، فلا تعني خماسية العبارة إلا أنه « لا إله إلا الله » (٢٧) ثم المعاد والرسالة ومن ثم ولاية الأئمة (٢٨) و« إلى ههنا التوحيد » (٢٩) كلها محور

(٢٧) و (٢٨) المصدر الكافي عن القمي حدثنا الحسين بن علي بن زكريا قال حدثنا الهيثم بن عبد الله الرماني قال حدثنا علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عن أبيه عن جده عن أبيه محمد بن علي (عليه السلام) في الآية قال : هو لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين ولي الله إلى ههنا التوحيد ورواه مثله في بصائر الدرجات عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية فقال « على التوحيد ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي أمير المؤمنين (عليه السلام) وفي التوحيد رواه مثله عن عبد الرحمن مولى أبي جعفر عن أبي عبد الله (عليه السلام) .

(٢٩) الدر المنثور عن جماعة عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه وينصرانه كما تنتج الأبل من بهيمة جمعاء هل تحس من جدعاء قالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أفرأيت من يمتوت وهو صغير؟ قال (ص) : ما من مولود إلا يولد على الفطرة فابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء .

وفي تفسير الطبري بإسناده عن الأوسد بن سريع من بني سعد قال : غزوت مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاشتد عليه ثم قال : ما بال اقوام يتناولون الذرية فقال رجل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اليسوا أبناء المشركين؟ فقال : أن خياركم أبناء المشركين إلا أنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فابواها يهودانها وينصرانها قال الحسن : لقد قال في كتابه « وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم » .

ولقد روى حديث الفطرة باختلاف يسير كما هنا في صيغها ووحدة في سوقها جماعة كما في المعجم المفهرس للحديث النبوي ج ٥ : ١٨٠ : « ما جاء في » كل مولود يولد ، ولد على الفطرة ، كل نسمة تولد على الفطرة في جنائز ٩٤ دسنة ١٤ - ت قدره ، ط جنائز ٥٢ ، حم ٣ ، ٢٣٣ ، ٢٧٥ ، ٣٩٣ ، ٤١٠ ، ٤٨١ ، ٣ ، ٣٥٣ ،

على محور ولاية التوحيد ومعرفته ، منه تصدر وإليه تعود ، فنكران سائر الأصول ليس إلا حصيلة نقصان أصلها الأصل : معرفة الله بتوحيده بولاية الله في الإسلام له ، وجماعها « دين الله » كما تدل عليه فطرت الله ، كأصيل ، والعقل كوسيط ، والشرعة تفصيل .

ولقد أجملها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : في قوله « كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه . . » وهذه ثالث الشوك بمختلف صورته ، تجسداً لله وتبنياً منه تهويداً ، وتثليثاً معها تنصيراً ، وتثنية له انه والنار إلهان اثنان تمجيساً ، فكافة الخرافات الشوكية لاصقة لاحقة على أهلها ، والأصل الثابت والدين الحنيف القيم لها هو التوحيد قضية « فطرت الله التي فطر الناس عليها » .

وقد تعني « الولاية » هنا ولاية التوحيد والعبودية وولاية التكوين والإعادة وولاية التشريع ، فهي تجمع الأصول الثلاثة ، ثم ولاية الأئمة كفرع من ولاية الشرعة الرسالية ، و« إلى ههنا التوحيد » كما مضت في رواية .

فآية الفطرة تأمرنا بمطالعة كتابها ، ومن ثم الآيات التي تستجيش العقول ان تعقل ، تأمرنا بمطالعة كتاب العقل ، والوجه الروحي المأمور باقامته للدين حنيفاً هو وجه الروح والعقل والصدر والقلب واللب والفؤاد ، وعلى هامشها وجه الحس ، وهذه السبع تقام للدين حنيفاً ابتداءً بكتاب الفطرة وإنهاءً الى كتاب الشرعة ، والعقل هو الوسيط في هذه الرحلة ، مهما كان وجهاً من الوجوه السبعة .

نحن نجد أصول المعارف الإلهية في كتاب الفطرة ، كما ونجد كل صغيرة وكبيرة من عقائد وأقوال وأعمال خيرة وشريرة ، مرتسمة في كتاب

سورة الروم / آية ٣٠ - ٤٥ ١٦١

الذات ظاهرة وباطنة حين الحساب « وكل انسان الزمناء طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، إقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (١٧: ١٤) وبين الكتابين كتاب الشرعة الإلهية « فاقراءوا ما تيسر منه .. » (٧٣: ٢٠) « ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

للفطرة احكام ثابتة لا مرد لها كما هي نفسها : « لا تبديل لخلق الله » إذا فهي أمتن قاعدة وأحسنها لتبني الكمالات الإنسانية ، وعلى السالك الى الله أن يعتبرها أولى المنازل في سيره وأولاهها .

ولكي تكون هذه السفرة ناجحة، عليه أن يتزود براحتها « الفطرة » وزادها الستة الأخرى من عرفات آية الفطرة ، وقد عرفنا الفطرة بعض المعرفة واليكم الستة الأخرى :

١ - معرفة النفس ، ٢ - وجهها ، ٣ - وإقامتها ، وهي المطوية في « فاقم » ، ٤ - ثم « وجهك » ، ٥ - « للدين » ، ٦ - « حنيفاً » هي الأخرى من الفاظها الأخرى .

معرفة النفس كما هيه حسب الطاقة البشرية هي اولى الخطوات في هذه الرحلة وعلى حد قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

فلتعرف أولاً من أنت ، هل أنت - فقط - هذا البعد الحيواني ، وكما اكثر الناس يظنون ، « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (٣٠: ٧) أولئك الذين يستعمرون كافة طاقاتهم المادية والمعنوية للشهوات والحيونات ، إذ ضلوا عن أنفسهم فظلوا عاكفين على حيواناتهم فـ « لكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه وكان امره فرطاً » (١٨ : ٢٧) وذلك رأس كل خطيئة .

أم انت الروح الانساني كما هو مكتوب في كتاب الفطرة ، فما الإنسان إلا عقلاً فاهماً ، وما قيمته إلا قدر عقله ، فلتكرس كافة طاقاتك مادية ومعنوية في ترقية روحك .

ولما وجدت نفسك من انت ، تحب نفسك كما أنت ، وذلك الوجدان والحب يدفعانك إلى محبوب مطلق وموجود مطلق ، هو المنطلق لكل محب وموجود ، وهو الله تعالى شأنه .

فمعرفة النفس بالحيوانية فحبها بها هي الكفر بالله وبغضه ، ولكن معرفتها بالروحانية وحبها بها هي معرفة الله ووجهه .

فمن وجد نفسه كواقع الحق فقد وجد ربه ، ومن ضل عن نفسه فقد ضل عن ربه ، وكلما ازداد الإنسان معرفة صالحة بنفسه ازداد معرفة بربه ، فحين يعرف نفسه أنه لا شيء في ذاته ، يعرف الله وأنه مصدر كل شيء ، فقر مطلق يتعلق بغنى مطلق : « يا ايها الناس انتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد » - « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » .

ثم الوجه من كل شيء ما يواجه به شيئاً أو يواجهه إليه ، فتختلف وجوهه حسب اختلاف كيان المواجه والمواجه إليه .

فإذا كان المواجه إليه من عالم المادة فوجه الإنسان الموجه إليه هو بعده المادي ، سواء الوجه المعروف منه كعضو بين الأعضاء كـ « اذهبوا بقيمصي هذا فآلقوه على وجه أبي يرتد بصيراً » (١٢: ٩٣) .

أم ظاهر المقادير من بدنه كما يتجه إلى القبلة « فول وجهك شطر المسجد الحرام » (٣: ١٤٤) ، أم البدن كله حيث يواجه حريقاً شاملاً يحرقه ظاهراً وباطناً ، فكما وجه النار هنا هو كلها كذلك وجه الإنسان المحترق بالنار هو كله ، ووجه الأرض ككل هو ظاهر الكرة الأرضية ، وهو بوجه اخص

الأفق الذي انت فيه حيث تواجهها بعين مجردة أو مسلحة .
وقد يعني وجه الشيء أوله لأنه في أول المواجهة ، كوجه لنار : « آمنوا
بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره » (٧٢:٣) .
وإذا كان الموجّه إليه أمراً معنوياً كعلم أو عقيدة أو شرعة ودين فالوجه
إليه هو المعنوي من المواجه ، وأخرى مصداق له هو الله « بلى من أسلم وجهه
لله وهو محسن فله أجره عند ربه » (١١٢:٣) والعبد كله ، بظاهره وباطنه
وجهٌ لله حيث يواجهه بعلمه وقدرته ، ووجهٌ إلى الله ، حيث يتجه إليه
بكله ، بجسمه وروحه وعقله وصدره وقلبه ولبه وفؤاده .

إذاً فللوجه وجوه حسب مختلف الوجوه ، فالوجه المقام « للدين حنيفاً »
هو الإنسان ببعديه ، بظاهر الخواص الخمس ، وباطن المدركات الست روحاً
ككل ، وعقلاً ثم صدرأ ثم قلباً ثم لباً ثم فؤاداً ، فانها المراتب المتدرجة
المتفاضلة لادراكات الروح ومعتقداته واتجاهاته .

وهنا الفؤاد أعمق أعماق الروح المتكامل حيث يتفاد بنور المعرفة
واليقين كما للرسول الصادق الأمين : « ما كذب الفؤاد ما رأى . افتمارونه
على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة
المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى » (٥٣: ١١ - ١٦) .

هذه وجوه سبعة للإنسان يجب ان يقيمها « للدين حنيفاً » ابتداءً
بـ فطرت الله التي فطر الناس عليها .

تجب اقامتها ، دون توجيهها غير مقامه ، حيث الروح الخامل ،
والعقل المتكاسل ، والصدر الضيق الشاغل ، والقلب المقلوب القاحل ،
واللب او الفؤاد غير المتكامل ، لا توجه للدين إلا أن تبوء بخسار ، وكما
الحسن وهو الخطوة الأولى والبلد الأول من هذه الرحلة في بلاد العرفات ، لا
يأتي بغير قيامه إلا بالبوار .

إلى هنا ، وقد عرفت نفسك وأحببته مشياً على صراط مستقيم دون إكباب على وجهك ، ثم عرفت وجهك بوجوهه وإقامته فيها ، يجب ان تعرف « الدين » المتوجه إليه كخامسة الخطوات فما هو الدين ؟

الدين في أصله هو الطاعة ، وهو هنا طاعة الله لأعلى مراتب التسليم ، فهو الاسلام ، ولا اسلام إلا بالتوحيد فهو التوحيد ، ولا توحيد إلا بولاية الله تكويناً وتشريعاً ، بدءاً وعوداً ، وولايته عبودية و « إلى ههنا التوحيد » حيث يشمل دين التوحيد والتوحيد الدين : اصول الدين بفروعه .

وإلى سادسة هي عشيرة العشرة « حنيفاً » فلتكن حنيفاً مائلاً عن الضلالة الى الاستقامة في معرفة نفسك وحبها ووجهها وإقامتها والدين المتوجه إليه ، حيث الجَنَفُ في أي من هذه يُحْسَرُك في رحلتك ، والجَنَفُ يُرْبِحُك فيها ، ومهما كان الانسان حنيفاً بذاته فقد يقصُر أو يقصُرُ فيبدل حَنَفَهُ إلى جَنَفٍ :

« الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » ثم وبصيغة سائغة واجب الحنافة ان تكون في هذه الرحلة عشيرة لعشرة كاملة بين العرفات السبع والوجوه السبعة ، باستثناء الحنافة نفسها لأن حنافتها تحصيل للحاصل اللهم إلا كشفاً عن غطاءها حيث تحسب الجَنَفُ حنفاً إذ يحسب ضلاله هدى ! وباستثناء الفطرة لأنها حنيفة في ذاتها ، والوجه فانه منقسم الى سبعة محسوبة في العشرة ، ووجه الروح فانه وجهان من الوجوه السبعة ، فهذه العشرة العشيرة مع الحنافة هي الروح : ١ - بمعرفته ، ٢ - وحبها وهما وجه الروح ، ٣ - وإقامته ، ٤ - ومعرفة الدين ، ٥ - ووجه الحس ، ٦ - والعقل ، ٧ - والصدر ، ٨ - والقلب ، ٩ - واللب ، ١٠ - والفؤاد .

تلك عشرة كاملة مكملة إذا كانت عشيرة الجَنَفُ معها كانت درجات ،

ثم هي عشرة ناقصة ناقضة إذا كانت أسيرة الجَنَف وعشيرته ، مهما كانت دركات .

درجات لتلك الكاملة ، ودركات لهذه الناقصة ، تأمرنا آية الفطرة ان نزودها كلها بحنف ، و « ذلك الدين القيم » .

فمن حنف الحس بادراكاته الخمس ان يحس بالدنيا ورائها دون إخلاد عليها ونظرة قاصرة اليها ، فالدنيا أمام الحس اثنتان على حد المروي عن الامام علي (عليه السلام) « من بَصُرته ومن أبصر إليها أعمته » .

فجَنَف الحس ان يقصر ^{بصرها} استعماله في الشهوات فتصبح عيناً لا تبصر وسمعاً لا يسمع ، كما وجنف القلب فاصحابها كما قال الله : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » (١٧٩:٧) .

ولأن القلب هو قلب الروح فيشمل صدره قلبه ولباً وفؤاداً بعده وعقلاً معها والروح كامها ، وكذلك العين والسمع هما أهم الحواس الظاهرة ، فالآية تشمل حنف الحواس الخمس الظاهرة والادراكات الست الباطنة .

والحنافة من قضايا الفطرة الإنسانية في أعماق أعماق الإدراكات ، والجَنَف ليس مقصوداً بنفسه إلا لمن يخطأ اليه الحنف قاصراً أو مقصراً وكما يروى عن الامام علي امير المؤمنين (عليه السلام) « إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً فلو أن الحق خلص لم يخف على ذي حجب ولو ان الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيثان معاً فهناك استحوزا الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى » .

ومن حَنَفَ النفس معرفتها كما هي حسب الطاقة البشرية ، ومن جنفها تجاهلها كأن النفس هي البدن ، وهناك - إذاً - حنف في حبها فحب الله ، أم جنف في حبها فحب اللهو ، وكذلك حنف إقامتها وجنفها ، وحنف الدين وجنفه ، وحنف الحس وجنفه .

ومن حنف العقل أن يعقل ما يحق عقله : « كذلك يبين الله آياته لعلمكم تعقلون » (٣٤٢:٣) .

ومن جنفه ألا يعقل : « صم بكم عمي فهم لا يعقلون » (١٣١:٣) « أن شر الدواب الصم البكم الذين لا يعقلون » (١٢:٨) .

أم يصرف عقله في خدمة : الشيطانات والحيونات « وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون » (٦٠:٢٨) .

ومن حنف الصدر انشراحه لتقبل الحق المعقول : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » (١٢٥:٦) .

ومن جنفه ضيقه : « ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً » (١٢٥) أو شرحه بالكفر وهو ضيقه عن الإيمان .

ومن حنف القلب وعيه وسلمه « إلا من أتى الله بقلب سليم » (٨٩:٢٦) .

ومن جنفه تقلبه عن قلب الإنسان إلى قلب حيوان وهو طبعه « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » (٣٥:٤٠) .

ومن حنف اللب ذكره الدائب دون غفلة « وما يذكر إلا أولوا الألباب » (٢٦٩:٢) .

ومن جنفه أن يكون لباب الحيوان والشيطان ، خاوياً عن لب الذكر والإيمان .

ومن حنف الفؤاد تفشوده بنور اليقين : « ما كذب الفؤاد ما رأى »

سورة الروم / آية ٣٠ - ٤٥ ١٦٧
(١١: ٥٣) وثبتته بأنباء الحق : « وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » (١١: ١٢٠) « كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » (٣٢: ٢٥) .

ومن جنفه تفؤده بنيران الجهالات : « نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة » (٧: ١٠٤) .

ان الانسان أياً كان يدرك بوجه الحس المحسوسات ، وبوجه العقل يدرك المعقولات ببرهان ودون برهان كالمشهودات العقلية وضرورياتها ، وبوجه الصدر يصدرها ليعتقدها ، وبوجه القلب يطمئن بها ، وبوجه اللب يزيل أقشارها واغشائها ويبقي ألبابها ، وبوجه الفؤاد يتفاد تفدية لها ، فلا يُبقى مجالاً في لبه لها .

نفس حنيفة بوجه حنيف واقامة حنيفة لدين حنيف ، تسلك صراطها المستقيم دون زلة ولا ضلة ، ابتداءً من « فطرت الله التي فطر الناس عليها » وانتهاءً الى شرعة الله التي كلف الناس بها و« ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

فالعقل هنا يأخذ الدين بيسديه وكلتا يديه يمين ، بيد اولى تأخذ من الفطرة ، وبثانية تأخذ من الشرعة ، ثم تنقل ماأخذت الى الصدر متكاملاً ، ثم الى القلب فأكمل ، ثم اللب فافضل ، ثم الفؤاد وهو اكمل الأفضل وافضل الأكمل ، حيث لا يبقى في لب القلب إلا شعلة النور المعرفية ، متجاهلاً عما سوى الله ، متدلياً بالله « ثم دنى فتدلى . فكان قاب قوسين او ادنى » !

ولأن هذه الوجوه السبع درجات ، وتلك العرفات السبع درجات .
فالنتيجة الحاصلة للسالك الى الله درجات حب الدرجات ، من ادنى الايمان الى اعلاه وإلى العصمة ، وإلى اعلاها الخاصة بالرسول الأقدس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) واهليه الطاهرين (عليهم السلام) .

هناك وجهٌ للدين وهو شرعة الدين ، وهنا وجه الى الدين وهو مشرعة الدين : « فطرت الله التي فطرنا الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون » وكما ان دين الشرعة معصوم كذلك دين التكوين الشرعة معصوم ، لا اختلاف ولا تخلف في احكامها .
إذا - فإلى أحضان الفطرة وأحكامها ، لنقيم وجوهنا اليها للدين حنيفاً ، وليكن الله معنا .

حب الكمال المطلق

إنَّ الإنسان إياً كان يحب الكمال المطلق الذي لا حدَّ له ، ولأنه لا يجده في نفسه ، فهو دائب السعي والجد للوصول اليه ، دون أية وقفة في جده وسعيه ، ولأن هذا الكون كله محدود وناقص ، وكله فقيرٌ مفتاق ، فلا يجد بغيته الأصلية فيه ، وهو متأكد أن ليس يجدها فيه على أية حال ، فلولا ان هناك في الكون كمالاً مطلقاً وهو لا يجده بتأ في هذا الكون ، فكيف لا تحمد نار حبه وتفؤد فؤاده للوصول اليه ، فلا فتور للفطرة في حب الكمال المطلق .

انه - قطعاً وبيقين - يحب الكمال المطلق ، وهو لا يجده قطعاً ويقيناً في هذا الكون المحسوس وكله محدود ، فليكن ذلك الكائن الالامحدود موجوداً وراء الحس والمادة ، وهو محدّد الحدود ، ويفيض على المحدود الفقير الفقير في ذاته على أية حال ، وهذه هي فطرة المعرفة ودين المعرفة لله .

وهذه ضابطة سارية قاطعة ان واقع الحب يقتضي واقع المحبوب ، إلا حباً خاطئاً بتخيّل وجود المحبوب أو إمكانيته ، فإذا تأكد من استحالة المحبوب زال حبه إذ لا يُعقل حسب المستحيل .

والإنسان المحب للكمال المطلق الالامحدود حين يتأكد أنه مستحيل في

الكون المادي ، نراه لا يزول حبه ولا يزال محباً كما كان ، وهذا يكشف عن واقع المحبوب وراء عالم المادة دون جدال ولا هوادة .

ولأن الكمال المطلق يقتضي كاصول صفاته الذاتية ، الحياة السرمدية ، والعلم غير المحدود المطلق عن كل حد وحدود ، والقدرة اللامحدودة بحدود ، فهذه الثلاث ايضاً محبوبة فطرية لأنها من لزامات الكمال المطلق ، كما ان الحياة السرمدية هي محط العلم والقدرة اللانهاية .

ثم وكل واحدة منها محبوبة فطرية ذاتية ، فلا تجد من الناس أحداً إلا ويحب هذه الثلاث حباً دائماً لا فتور فيه ولا فطور ، ولأنه لا يجدها في هذا الكون المحسوس المحدود ، وهو متأكد أنها مستحيلة الوجود له ولسواه من كائن محدود^(٣٠) ومع ذلك لا تفتر فطرته في حبها ذاتية ، فلتكن موجودة لمحبوبه الأول الكامل المطلق اللانهاية وهو الله تعالى شأنه .

حب عريق في الفطرة ، عميق مُنْذُ غَم في ذاتها دون فترة ، أولاً يكشف عن وجود محبوبة ، ولو أخطأت الفطرة في هكذا حب عريق دائم ، فليعيش الإنسان أياً كان حياته كله أخطاءً وأخطاءً ، وليخطأ عقله على طول الخط ، ما دامت فطرته المعصومة عن الخطأ خاطئة في هكذا محبوب ، وبأحرى الأخطاء في حواسه وكل ادراكاته ما دامت فطرته وهي الأصلية في كيانه ، والقاعدة الأصلية في انسانيته ، هي خاطئة فيما تحبه ذاتية دون تبدل ولا تبديل ، ولكن « لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ان العقلاء يرون عقولهم حجة مصيبة على أخطاءها ، وكذلك

(٣٠) وذلك لأن اللامحدود من وجود وكمالاته لا يحل في المحدود من جسم ، وهذا دليل فطري على انه تعالى مجرد عن المادة وخواصها .

حواسهم رغم أخطائها ، أفلا يرون - بعد - أن فطرهم مصيبة ولا يختلفون فيها ولا يتخلفون عنها ؟

إذا فدين الفطرة تدين له البشرية عن بكرتها دون خلاف ، وهكذا يكون كتاب الله : « فطرت الله التي فطر الناس عليها » .

ومن ثم حكم ثان - كما الأول - للفطرة، ان المحبوب واحد لا شريك له ، حيث لا يتعلق قلب الإنسان أياً كان ، ملحداً أو مشركاً أو موحداً ، لا يتعلق - على أية حال - إلا بنقطة واحدة ولا سيما إذا انقطعت الأسباب ، وحاتر دون الخطر المحدث كل الأسباب ، كما وآيات ركوب البحر المنتظم بأمواجه ، والضرر المحيط على الإنسان بأفواجه ، تدل على ذلك الحكم الفطري ، ومنها الآية التالية آية الفطرة كمثال مائل من احكامها : « وإذا مس الناس ضررٌ دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم فسوف تعلمون » (٣٢ - ٣٤) وكم لها من نظير في سائر القرآن مثلاً من أحكام ثابتة عدة للفطرة ، لا نكير لها بين الناس أجمعين ، وهي حجة الله على الناس بينهم وبينه مهما انكروها أمام الناس بغية استمرارية حياة الشهوة وحرية الحيونة : « وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فآليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون » (١٦ : ٥٤) « وإذا مس الإنسان ضرر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار » (٣٩ : ٨) - « فإذا مس الإنسان ضررٌ دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون » (٣٩ : ٤٩) .

ومثال ثان لحكم التوحيد حسب الفطرة : « هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح

عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين^{٢٢} فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم اليٰنا مرجعكم فنتنبثكم بما كنتم تعملون « (٢٣: ١٠) - « وما هذه الحياة الدنيا إلّا هو ولعب وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون . فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فسوف يعلمون « (٢٩: ٦٦) - « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر اعرضتم وكان الإنسان كفوراً « (١٧: ٦٧) .

آيات سبع مما تدل على ذلك الحكم الفطري ، أن الإنسان في أعماق أعماق كيانه منعطف إلى نقطة واحدة من الكمال اللأعداد ، لا ينعطف إليها بطبيعة الحال ، إلّا عند ما تقطعت الأسباب التي يعيشها ويظن أنها هي التي تُعِيشه وتنفعه أو تضره ، فيشركها بربه ، ثم وينكر بربه مؤلّها إياها ملحداً بربه .

ولولا هنا إلّا ذلك الحكم الحكيم له « فطرت الله التي فطر الناس عليها » لكفي برهاناً صارخاً من عمق ذاته أن « لا إله إلا الله » فإن الإعتراف بأصل وجود الله مطوي فيها دون هوادة .

ومن ثم العقل حيث يتبنى الفطرة وسائر الآيات أنفسية وآفاقية ، يكمل المعرفة التوحيدية ببراہین تفصيلية هي كتفسير لإجمال ما في الفطرة ، ثم الشرعة الإلهية حيث يتبناها ، تشرح كلمة التوحيد بتفاصيل حكيمة معصومة ، ملائمة للفطرة أولياً وللعقل ثانوياً ، إذا فُلت الدين الخفيف القيم . كله صارخ بأن « لا إله إلا الله » .

فالشرعة تصوّب اجمال حكم الفطرة وتخطّيء البعض من أحكام العقل المتخلفة عن الفطرة ، وترشده على ضوء الفطرة إلى صراط مستقيم .
ومن حكم العقل استحالة التعدد في المطلق ، ولا سيما الذي لا حدّ له ، حيث التعدد بحاجة ماسة الى ميزة بين المتعديدين ، هي الفصل المايّز الفاصل بينهما، وما يّز الزمان والمكان والحدود المادية الأخرى مسلوب عن ذلك الكامل المطلق ، ومايزة الصفات ذاتية وفعلية مستحيلة في غير المحدودين ، فانها إما صفة كمال أو نقص ، والثاني يناقض كما له فضلاً عن اللانهايي ، والكمال لكلّ دون الآخر يحكم بنقص الآخر فهما - إذاً - ناقضان .

وكيف يمكن التعدد في المطلق الالامحدود ، ولا يمكن في محدوده ، فمطلق الماء دون أية قيود وحدود وألوان ليس إلّا واحداً ، والماء في ذلك الإطلاق محدود في واقعه ، فالمطلق الالامحدود مستحيل التعدد من بعدين اثنين .

وحكم ثالث تحكم فيه بالحياة الآخرة هو حب الحياة اللانهاية لنفسه ، وهذا يختلف عن حب الحياة السرمدية المستحيلة له ، حيث الفطرة تحب مطلق الكمال كما تحب الكمال المطلق ، والثاني منفصل عن ذاته ، مستحيل لذاته ، والأول محبوب لذاته في ذاته ومنه الحياة الأبدية ، ففي حين تعلم كلّ نفس انها ذائقة الموت ، ومعذالك لا فتور في فطرته لحب الحياة الأبدية ، فلو كان موته قوته ، دون حياة بعده ، لكان محبوبه تحيلاً لا واقع له ، والحب الفطري المندغم في الذات يُحيل عدم المحبوب ، ويفرض وجوده ، وإذا لا أبدية في الحياة الدنيا فلتكن بعدها وهي حياة الحساب .

ولئن سألت : إذا كانت الحياة محبوبة الذات فلماذا ينتحر البعض رغم حب الحياة ؟

قلنا : وذلك دليل آخر على حب الحياة ، فلا أحد يرجح الموت على الحياة إلا لحب الذات بحياة مُريجة ، واما الحياة المهرجة المخرجة المريجة ، فلا يتصبر عليها إلا كل ذو حظٍ عظيمٍ من معرفة الحياة بعد الممات ، ثم قليلوا المعرفة ، والناكرون للحياة بعد الموت ، هؤلاء قد يفضلون الموت على شقوة الحياة ، حباً لراحة الحياة وبغضاً لشقوتها ، ثم وكافة المحاولات للإنسان تهدف الى حياة مريجة مستمرة كأطول ما يمكن ، فلا أحد - إذاً - إلا ويحب الحياة بأبديتها .

ومما يؤيد ذلك الحكم حكم الفطرة بحب استدامة الصيت والإسم بعد الموت ، فلو كان الموت فوتاً لفترت الفطرة في حكمها او نفدت فيه ، ونحن نرى المعترف بالحياة بعد الموت والناكر لها يجبان ذلك الصيت كما يجبان الأبدية ، دون فتور لهذا الحب أو ذاك ، مع العلم بواقع الموت ، فلولا الحياة بعد الموت ، فلا موقع لذلك الحب ! ولا سيما لمنكر الحياة بعد الموت ، فما يفيد صيته وتردد اسمه بخير على الألسن بعد موته إذا كان موته فوته ، فمن ذا الذي يحظر ببقاء اسمه لولا حياته بعد موته ؟

هذا حكم الفطرة ، وثم العقل يحكم بلزوم الحياة بعد الموت قضية علمه تعالى وعدله فليجازي المحسن والمسيء ، وإذا لا جزاء في الدنيا فليكن في الآخرة ، تداوماً وتفصيلاً لحكم الفطرة .
ثم الشرعة المعصومة فيها كل تفاصيل ذلك الحكم الفطري والعقلي ، مخطئة أخطاء العقل ، مقررة صوابه وحكم الفطرة .

وحكم رابع للفطرة وجوب احترام المحبوب الكامل الحاضر المقتدر العالم المنعم المنتقم ، وكل هذه السبع موجودة لله الواحد القهار لأعلى القمم ، ولا بد أن يحترم كما يشاء ويرضى ولا سبيل الى معرفة مشية ورضاه في كيف

يُحترم ويُعبد إلا بوحيه ، وإذا لا يوحى إلينا أجمع فليوح إلى بعض الصالحين من عباده المخلصين ، وهذه هي النبوة العامة ، الأصل الثالث من اصول الدين الحنيف القيم .

فلأنه تعالى هو الكامل لغير النهاية ، فليكن محبوباً لغير النهاية، وقضية الحب احترام المحبوب قدر الحب حتى في غيبه فكيف إذا كان حاضراً ناظراً فانه قضية العلم المطلق ، وكيف إذا كان قديراً على كل شيء ؟ فانه قضية الكمال المطلق كما العلم ! وكيف إذا كان منعماً ؟ « وما بكم من نعمة فمن الله » ومن ثم إذا كان منتقماً بعدله بين خليقته .

ثم الفطرة تحب مطلق المعرفة كما تحب المعرفة المطلقة ومعرفة المطلق وهو الله تعالى شأنه ، ومن ثم العبودية لذلك المطلق استكمالاً للانسان ، ثم العدالة تعديلاً لكيانه وسائر الانسان .

حب المعرفة يجذبه إلى معرفة الله وتوحيده ، وحب المعدلة تعرفه أنه لا بد من حياة الحساب بعد الموت ليظهر فيه عدل الله تعالى إذ لم يظهر تماماً يوم الدنيا لأنها يوم التكليف الاختبار الاختيار ، وحب العبودية تدفعه إلى التفتيش عن كيف يعبد ربه ولا سبيل له إلا الوحي .

فهذه الأصول الثلاثة المعرفية كلها مندغمة في الفطرة إذا ازيلت عنها حُجب الظلمة ، واستفرغت لاتجاه الإنسان بوجوهها وإليها حنيفاً في عشرة كاملة ، و « ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ما من انسان إلا ويجب التخضع لحيد والعبودية للأكمل منه ، فهل يجد اكمل من الله وافضل أو من يساميه في محتده فيعبده دونه أو يشركه به ؟ ذلك هو الميثاق المأخوذ على ذرية بني آدم كما تتحدث عنها آية الذرية ، وهي ذرية الروح لمكان المعرفة « الست بربكم قالوا بلى » ف « من ظهورهم

سورة الروم / آية ٣٠ - ٤٥ ١٧٥

ذريتهم » لا تعني إلا ظهور الأرواح وهي أصلاها الأعماق ، وهي الأصول
الفطرية التي تتبناها الأرواح .

فكما للجسم ظهر الصلب وهو النطفة الجرثومية التي هي اصل
الجسم ، كذلك للروح ظهر الصلب وهو الفطرة الجرثومية التي هي اصل
الروح ، وهما البعدان الأولان لأي انسان ! واليكم تفاصيل الدرجات السبع
لأحكام الفطرة ، حيث تتدرج الست منها من حب الكمال المطلق الذي لا
حد له .

سبق ان تحدثنا عن حب الكمال المطلق وعلى ضوء معرفة الخالق
وتوحيده و « هل الدين إلا الحب » ؟

١ - ثم حب ذلك المطلق اللانهائي تفرض احترامه على أية حال دون
اي احترام ، واحترام الكامل - ايأ كان - هو من الحقائق الفطرية بالنسبة لأي
كامل باي كمال ، حاضراً وغائباً ، مقتدرأ وعاجزأ ، عالماً وجاهلاً ، متعماً أو
متنعماً ، منتقماً ان لم تحترمه أو غير منتقم ، فما جوابك في الهول المطلع حين
يسألك ربك : ألم اكن كاملاً واكمل من سائر الكون ، فكيف احترمت كل
كامل واخترمت خالقهم ؟

٢ - ثم احترام المحبوب فطري حتى ان فقدت الست الأخرى ، فما
جوابك حين تُسأل : ألم اكن محبوبك ، واجداً للست الأخرى اكمل وأحرى
من سائر الكون ، فكيف احترمت كل محبوب واخترمتني وانا فوق كل
محبوب ؟

٣ - ثم احترام المقتدر فطري إذا كان عادلاً حتى ان فقدت الست
الأخرى ، فما جوابك حين تُسأل : ألم اكن مقتدرأ عادلاً وافضل من سائر
الكون ، فكيف احترمت كل مقتدر سواي واخترمتني ؟

٤ - ثم احترام العالم فطري حتى إذا فقدت الست الأخرى ، فما جوابك حين تسأل : ألم اكن عالماً واعلم من سائر الكون ؟ فكيف احترمت كل عالم سواي واخترمتني ؟

٥ - ثم احترام المنعم فطري حتى إذا فقدت السبت الأخرى فما جوابك حين تسأل : ألم اكن منعماً عليك وعلي كل المنعمين عليك ، فكيف احترمت كل منعم عليك واخترمتني ؟ . ثم احترام المنتقم - إلى - واخترمتني .

٧ - ثم احترام الحاضر - أياً كان - فطري ، حتى إذا كان عدواً لك ، وحتى إذا كان صورة منه أو تمثال ، لا يتجاوز حضوره عالم الخيال ، فما جوابك حين تسأل : ألم اكن معك حاضراً حضور العلم « وأنا أقرب إليه من حبل الوريد » حاضراً عندك أكثر من حضورك أنت لنفسك ، فـ « اعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

ما جوابك حين يسألك ربك ، ألم اكن كاملاً محبوباً مقتدرأ عالماً منعماً منتقماً وحاضراً عندك ، وأفضل في كل ذلك لغير النهاية من غيري ولو جمع السبعة ، فكيف احترمتهم واخترمتني ؟ .

ان جواب المخلصين من عباد الله هو اخلاص العبادة لله على درجاتهم ، بل ليسوا ليسألوا كمن سواهم ! ثم جواب المؤمنين فيما قصرُوا في كبيرة أو صغيرة : « أننا كنا غافلين ، مهما كنا في غفلتنا مقصرون : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا . . » (١٤٧:٣) اعتذاراً مقبولاً لمن تركوا كبائر ما ينهون عنه : « ان تجنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » (٣١:٤) .

ثم لمن يستشفع فيشفع له عفواً في قسم من الكبائر ، ثم لمن لا شفاعة وله بقية من الايمان عقوبة الدنيا ثم البرزخ ثم القيامة ثم إلى رحمة الله .

سورة الروم / آية ٣٠ - ٤٥ ١٧٧

ومن مقال المذنبين من المؤمنين ما قاله آدم وزوجه « قالوا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (٢٣: ٧) .

ثم لا جواب لغيرهما من مطلق الكافرين ، منافقين ام اهل كتاب منسوخ ، ام مشركين ام ملحدين ، حيث الأحكام الفطرية تشمل الناس اجمعين ، لا يفلت منها فالت .

فيا ويلنا من هول المطلع حين يستجوبنا ربنا عما اخترمناه ، حينما أحترمنا سواه من خلقه وهم غيب ، وإذا كانوا حضوراً فهم بحضرته صغار صغار .

« فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها » فانها مشرعة لمعرفة الشرعة الإلهية وتصديقها ، وما هذه الشرائع إلا شراحاً لأحكام الفطرة ، وقد يعتبرها القرآن ذكريات لما في الفطرة حيث حججت فاستغفلت ، فأيات القرآن ذكريات لأيات الفطرة وابن آيات من آيات وان كانت كلها معصومة لأنها مما كتب الله .

فآيات ذكر الله في كتاب الشرعة توحى بأصل المعرفة المحجوبة في الفطرة « فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » (١٥٢: ٢) ولا ذكر إلا بعد نسيان ، كما لا نسيان إلا عن كائن سابق .

كما وآيات ذكر الإنسان بخلقه ولم يك شيئاً توحى بأصل المعرفة أن الله خالقه :

« اولا يذكر الإنسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » (٦٣: ١٩) . وآيات ذكر الانسان بنعم الله السابعة توحى باعترافه المنسي المتغافل المتجاهل :

« واذكروا نعمة الله عليكم » (٢٣١: ٢) « فاذكروا الا الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين » (٧٤: ٧) .

ثم والشرعة الإلهية جملة وتفصيلاً ، اصولاً وفروعاً، ليست إلا ذكرى ، ولا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا مذكراً : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٥٠: ٤٥) « فذكر ان نفع الذكرى » (٨٧: ٩) واخيراً : « فذكر انما انت مذكر . لست عليهم بمسيطر » (٨٨: ٢٢) ولا تذكير إلا بمآله اصل سابق سابغ مغفول ، فلتكن الشرعة كائنة في الفطرة مغفولة .

لذلك يسمى كتاب الشرعة ذكراً « ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم » (٣: ٥٨) « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (١٥: ٩) « ان هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم ان يستقيم » (٨١: ٢٨) « وهذا ذكر مبارك انزلناه افانتم له منكرون » (٢١: ٥٠) « انما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب » (٣٦: ١١) كذلك وكل كتاب سماوي ذكر : « ما ياتيهم من ذكر من ربهم محدث . » (٢١: ٣) .

كما وان رسوله ذكرٌ يحمل ذلك الذكر : « فاتقوا الله يا اولي الالباب قد انزل الله اليكم ذكراً رسولاً يتلوا عليكم آياته » (٦٥ : ١٠) « إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » (٣٦ : ٦٩) .

يذكر الذكر في القرآن بمختلف صيغة وموارده زهاء (٢٦٧) مرة مما يبرهن واضحة ان كتاب التدوين الشرعة نسخة كاملة عن كتاب التكوين الفطرة ، مهما بان البون بينهما جملة وتفصيلاً .

فلنقرء كتاب الفطرة بإقامة الوجه اليها حنفاء لكي تتسهل لنا قراءة كتاب الشرعة ، نقرء كتاب الفطرة بحنفٍ في بنوده العشرة .

ففي إقامة وجه الحس بوجوه الخمسة ، المفروض إصلاح الحس دون إخلالٍ فيها إلى الأرض واتباع الهوى ، فليعرف بفطرياته السبع انه في استعمال حواسه أمام محبوب كامل مقتدر عالم منعم منتقم حاضِر ، فليكن حاذراً متحضراً في صلاحه على أية حال .

وفي اقامة وجه العقل الى الدين حنيفاً لا بد من مراجعة الفطرة في احكامها ، كيلا يخطأ أو يقصر أو يقصّر في تعقله ، ولينظر إلى آيات الله آفاقية وانفسية على غرار الفطرة .

وفي اقامة وجه القلب الى الدين حنيفاً لا بد من قطع العلائق العالقة الحالقة الدنيوية لكي تتجلى فيه نور المعرفة ، وهذه الثلاث هي اصول وجوه الانسان ، حيث القلب قلب بين الصدر قبله واللب والفؤاد بعده ، وهذه حالاته ودرجاته .

وبذلك نرى ربطاً عريقاً عميقاً بين كتاب الفطرة وكتاب الشرعة وكلاهما من صنع الله وفقاً لناموس الكون .

فالاعتراف بالربوبية الوحيدة فطرة غير وهيدة في الكيان الانساني ، أودعها الله تعالى في هذه الكينونة الغالية ، فالرسالات - إذاً - ليست إلا تذكيرات لها ، وتحذيرات ، لمن ينحرفون عنها وينحرفون ، فهم - إذاً - يحتاجون إلى تذكيرات وتحذيرات ، فالتوحيد إذاً ميثاق معقود بين فطرت الناس وخالق الناس منذ كينونتهم الأولى ، فلا حجة لهم في نقض ذلك الميثاق وحتى لو لم يبعث اليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، ولكن رحمته تعالى اقتضت ألا يكلمهم إلى فطرهم إذ قد تنحرف حين تحجب ، ولا إلى عقولهم إذ تنحرف حتى إذا لم تحجب ، فلتلك معصومة في اصلها ، وهذه ليست معصومة .

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ٣١ .

« اقم وجهك .. منيبين اليه » - إقامة بادئة من رسول الهدى ، ناحية منحى كل المرسل اليهم كـ « يا ايها النبي إذا طلقتم النساء » (١:٦٥) و « فاستقم كما أمرت أنت ومن تاب معك » (١١٢:١١) . والإنابة هي الرجوع بنوبات متتاليات ، وإقامة الوجه الى الدين حنيفاً بحاجة في كمالها إلى حالة

الإجابة الى الله كما و « منيين » حال من « اقم » بتأويل الجمع كما قلناه ام لأنه يعني الجمع على الأبدال ، « فاقم » أنت يا رسول الهدى ، وكل من يأهل لهذا الخطاب ، أم « اقم » انت ومن تاب معك .

وليس فقط « منيين اليه » بالوجوه الباطنة ام بوجه القال ، بل وبوجوه الأعمال : « واتقوه » ولكي تكمل الصلاة في هذه الإقامة الإجابة الإتقاء : « واقموا الصلاة » فانها خير الصلوات الى الله « ولا تكونوا من المشركين » المفرقين دينهم بين الله وما اتخذوها شركاء لله :

﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ ٣٢ .

تفريق الدين وهو الطاعة لله عز وجل ، يقابل إقامته له لا شريك له : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه .. » (١٣: ٤٢) - ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبتهم بما كانوا يفعلون » (١٥٩: ٦) .

فـ « المشركين » هنا ليسوا فقط الوثنيين ، بل وأهل الكتاب المفرقون دينهم هم داخلون هنا في زمرةهم ، فان إقامة الوجه للدين حنيفاً بإتابة واتقاء وإقام الصلاة ، هذه تناحر وتفرق الدين ، فانه خلاف الفطرة والشرعة الإلهية ، ولا يرضى الله من عباده شيعاً متفرقين في دينه ، ولا يحكم في عصر واحد إلا شرعة واحدة من الدين ، وهذا هو إقامة الدين ، قياماً له في كل زمن بشرعة يشرعها الله منه .

والمفرقون في الدين هم أحزاب وليسوا متشرعين بشرعة الدين الموحدة بين كافة المكلفين : فـ « كل حزب - منهم - بما لديهم فرحون » ولا فرح لدين

إلا بما شرَّعه الله لا ما فرقه هو من دين الله ، وهؤلاء كما المشركون تبَّنوا دينهم على أهوائهم بغير علم وهم يعلمون ، متجاهلين عن حكم الفطرة والعقل والدين ، ولأن الأهواء مختلفة ، والجاهلات متفرقة ، فهم لذلك فرقوا دينهم بكل فرقة فرقة فرقة ، وشيعة شيعة ، وحزباً حزباً « كل حزب بما لديهم فرحون » - « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (٦: ١٥٣) .

إنه لا تنتهى أنماط الشرك وسبله إلى نهاية إذ لا نهاية للأهواء الجاهلة في هوساتها ، والصراط المستقيم هو إقامة الدين بشرعة واحدة ، مهما اختلفت بعض التصورات الفرعية في بعض الفروع على ضوء الاجتهادات السليمة فانها لا تضر بوحدة الشريعة في إقامة الدين ، كما أن مختلف الواجبات والمحرمات حسب مختلف الظروف والحالات لا تضر بها ، وإنما التنديد في هذه الآية واضرابها بمن يتفرقون في أصل الدين عن هوى جاهلة ، دون اختلاف الاجتهادات في البعض من فروعها عن هدى كاملة ، سناداً إلى الكتاب والسنة ، اللهم إلا اجتهادات متخلفة عن حجة الكتاب وثابت السنة قاصرة أم مقصرة .

ومن جَلَّوات الفطرة بأحكامها حالات الضرر وتقطع الأسباب إذ لا أمل فيما كانوا ياملون أو يعملون :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ٣٣ .

« فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون » (٢٩: ٦٦) .

وهذه اندفاعه وانابه الى الله فطرياً بتيارات الضر الطائرات أحياناً ، إذ لا يجد الإنسان عندها ملجأ إلا الله الذي كان ناكراً او مشركاً به قبلها ، فهنا « دعوا ربهم منيبين إليه » إتجاهها ضارباً بنوبات متتالية وصرخات مدوية لا تنقطع .

« ثم إذا أذاقهم منه رحمة » تكشف ضرهم « إذا فريق منهم » وهم الأكثرية الساحقة « برهم يشركون » سواء قائلين : هذه صدقة طيبة ، ام لولا فلان لما كشف عني ضري ، أماذا من خربطات القيلات التي هي ويلات على أصحابها ، وترى ما هو موقف « منه » هنا ؟ هل هي : من الله ؟ ولا ريب في ان رحمة الله هي من الله لا سواء ، ولا سيما أن القائل هو الله ، فقد تلمح « منه » كأن هناك رحمت من غير الله يؤتيها الله لمن مَّسه ضر ، ويكأن الله ليست عنده رحمة فيستدينها ممن سواء ! « منه » قد لا يعني من الله ، بل هو من ضر مَّسه ، ليعلم انها رحمة خاصة بهذا الضر دون مطلق الرحمة التي لا ينالها إلا الأقربون ، وإنما رحمة من ضرهم ، تخلصهم عنه ، فقد تكون - على خاصتها - رحمة سلبية - فقط - هي ازالة الضر الخاص .

فهناك من الضر زحمة بإيجابه ورحمة بسلبه « فإذا أذاقهم منه (الضر) رحمة » تسلبه ...

وقد تعني « منه » - اضافة الى الضر - الله سبحانه ، رحمة من الله من ضر ، ولا ضير ان يكون ضمن المعنى وعلى هامشه ، إذ لا تلمح - إذا - ما لمحتة أولاً ، بل وقد يعني الثاني أصالة كما الأول كما « .. وانا اذا اذقنا الانسان منا رحمة فرح بها .. » (٤٢ : ٤٨) .

و«منا» هي لبيان أن الرحمة ليست مستحقة للإنسان أيأ كان ، فانما هي فضل من الله دوغما استحقاق لأهله ، بل هو إمتحان كما الضر إمتحان .
إذا فأصل المعني في « رحمة منه » هو الرحمة من الله ، مهما كانت بازالة

ضررته أم سواها .

ولماذا « إذا هم يشركون » بعد الانابة وذوق رحمة منه ؟

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ٣٤ .

لا يعني إشراكهم عند الرحمة انقلاب الفطرة عن الله الى سواه ، فانما هو غفلة عامدة ، وغفوة عائدة ، مصلحية الحفاظ على إشراكهم بالله « ليكفروا بما آتيناهم » بعدما آمنوا ، كفراناً فكفراً ، وهنا يوجه إليهم خطاب العتاب . « فتمتعوا » بما أذقناكم من رحمة تمتع الحيوان وأحسون ، وهذا نهي صارم بصيغة الأمر ، يوجه إلى من لا يجديبه نهي ولا أمر حين يتخلف عن فطرته وعقليته وشرعته ، تجاهلاً عن كل ذلك كأنه لا يعلم « فسوف تعلمون » في البرزخ والقيامة ام وهنا في الرجعة او قبلها « تعلمون » عين اليقين وحق اليقين ، برؤية العذاب وذوقه بما كنتم تكفرون .

في العنكبوت « ليمتعوا » بعد « ليكفروا » وهنا « فتمتعوا » بيان لموقف هذا الأمر ، انهم يشركون بغية الكفر والتمتع ، فليؤمروا بما ابتغوا كني . صارم بصيغة الأمر إذ لا أسمع تصغي ولا قلوب تعي فد ذرهم في خوضهم يلعبون .

﴿ أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ ﴾ ٣٥ .

أتدلم فطرته أو عقليته أو شرعة الله إلى إشراكهم ؟ « ام انزلنا عليهم سلطاناً » آخر غير سلطان التكوين فطرة وعقلية ، وسلطان التشريع في كل شرعة « فهو » السلطان المتخلف عن مثلث السلطان « يتكلم بما كانوا به يشركون » فما هو ذلك السلطان ؟! أم هل يجوز أن ينزل عليهم سلطانين متناقضين في التوحيد والإشراك ، ام لهم سبيل الى نكران مثلث السلطان الدال على التوحيد ، ولا سيما فطرت الله التي فطر الناس عليها .

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ٣٦ .

« رحمة » هنا علها اعم مما هناك ، فانها مطلق الرحمة وتلك « رحمة منه » وقد تكون خاصة بإزاحة الضر ، و « فرحوا بها » مقابل « يقنطون » يتضمن الأمل ، فالناس هنا هم الأملون في إذاقة الرحمة ، القانطون في اصابة السيئة بما قدمت أنفسهم .

تراها كيف ثلاثم المعاكسة في الآية السابقة القائلة عن الناس أنهم حين يمسه الضر ينيبون الى ربهم ولزامها الأمل وحين ذوق الرحمة مشركون ولزامه القنوط ؟ .

هنا « رحمة فرحوا بها » تعم الفرح المرح ، وقد يتضمن الإشراف بالله ، وغيره الجامع أحياناً مع إيمان دون تمام ، وهناك « رحمة منه » هي المزية للضر وهنا فريق منهم يشركون لا كلهم ، ثم وإصابة السيئة حيث تقنطهم قد تجمع القنوط القاحل بنكران الله ، وأخري القنوط الذي يدفعه للإنبابة إلى الله لكي يزول بزوال أسبابه .

ثم الناس هنا غير الناس هناك فانهم مختلفون في إذاقة الرحمة وإصابة الضر بمعاكسة ، ف « من الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » (١١: ٢٢) والناس هنا مثاهم كما « .. وانا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وان تصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور » (٤٨: ٥٢) . ومنهم من يعاكس هؤلاء ، والآية الأولى مثاهم كما « وإذا انعمنا على الإنسان أعرض ونأ بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » (٥١: ٤١) ومنهم من هم على سواء في الحالتين ، راضين بمرضات الله ومثلهم : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » (٢٣: ٥٧) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ٣٧ .

بسط الرزق وقدره أيأ كان إنما هما بمشيئة الله حسب الحكمة العالية الربانية كما يراها الله ، وفي كل من البسط والقدر « آيات لقوم يؤمنون » بالله ، أنه لا يبسط أو يقدر رزقه إلا بحكمة إمتحاناً أو امتهاناً ، وفي كل ابتلاء ، بل البلاء في خضم الرزق أبلى وأشجى من قدره .

والواو هنا قد تعطف الى ما تغافلوا عنه وهو : إن لم يروا معاكسة في الرزق وقدره بين المؤمنين وسواهم ، بسطاً لهم في الأكثر وقدرأ للمؤمنين ، وليس في ذلك حطاً لقدرهم أولاء ورفع لقدر هؤلاء ، فلإن لم يروا « أولم يروا » بصورة طليقة بين القبيلين « أن الله يبسط الرزق لمن يشاء » مؤمناً وكافراً على قلة اهتمام في طلبه وجهله بموارده « ويقدر » لمن يشاء على كثرة اهتمامه وعلمه بموارده « إن في ذلك » الإختلاف الظاهر في بسط الرزق وقدره « آيات » تدل على قدرة حكيمة وإرادة طليقة وراء القدرات والمحاولات .

ثم البسط والقدر هنا لا يخصان حقل التكوين بل والتشريع ايضاً حيث يفضل الله بعضاً على بعض في الرزق ابتاء وانفاقاً وكما :

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ٣٨ .

آيتان تامرانه (صلى الله عليه وآله وسلم) بايتاء ذي القربى حقه أولاها في الأسرى : « وآت ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيراً » (٢٦) وقد قدمنا فيها أن « ذَا الْقُرْبَى » هو صاحب القرابة الأدنى الى رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) : نسبياً ورسالياً ، حق المال وحق

الحال ، إمرة للإمام علي وفدكاً لفاطمة عليهما السلام وقد آتاها (٣١) .

(٣١) وما ورد في شأن نزولها ما ذكره ملا معين الكاشفي في معارج النبوة (١: ٢٢٧) لما نزل جبرئيل الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله « وآت ذا القربى حقه » قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من ذو القربى وما حقه ؟ قال : هو فاطمة فاعطها فدك . وفي مجمع الزوائد عن ابي سعيد قال : لما نزلت دعا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فاطمة فاعطاها فدك ، كما اخرج عنه البزار وابو يعلى وابن ابي حاتم وابن مردويه ، ومن وجه عام في القربى اخرج الثعلبي في تفسيره روى عن السدي عن ابي الديلمي عن علي بن الحسين عليهما السلام قال : نحن ذو القربى .

اقول : قد اوردنا احاديث من طرق اخواننا السنة حول قصة فدك في تفسير الآية « ورث سليمان داود » في سورة النمل فلا نعيدها هنا ، وانما نذكر نموذجاً مما رواه اصحابنا الإمامية ، منها ما في تفسير القمي حدثني ابي عن ابن ابي عمير عن عثمان بن عيسى وحماد بن عثمان عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : لما بويح لأبي بكر واستقام له الأمر على جميع المهاجرين والأنصار بعث إلى فدك من أخرج وكيل فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) منها فجاءت فاطمة عليهما السلام إلى ابي بكر فقالت : يا ابا بكر منعني ميراثي من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) واخرجت وكيلي من فدك وقد جعلها لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بأمر الله عز وجل ؟ فقال لها : هاتي على ذلك شهوداً فجاءت بام ايمن فقالت : لا اشهد حتى احتج يا ابا بكر عليك بما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالت : انشدك يا ابا بكر الست تعلم ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ام ايمن امرأة من أهل الجنة ؟ قال : بلى قالت : فاشهد بان الله أوحى إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « وآت ذا القربى حقه » فجعل فدك لفاطمة بأمر الله وجاء علي فشهد بمثل ذلك فكتب لها كتاباً ودفعه إليها فدخل عمر فقال : ما هذا الكتاب ؟ فقال ابو بكر : ان فاطمة ادعت في فدك وشهدت لها ام ايمن وعلي فكتبت لها بفدك ، فأخذ عمر الكتاب من فاطمة فمزقه وقال : هذا فيء المسلمين ، وقال : اوس بن الحدثان وعائشة وحفصة يشهدون على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : انا معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة ، وان علياً زوجها

وتراها كيف تعني الحقين وهما مدينان وهي مكية ؟ قد تكون هي وصاحبتهما مكية إعلاناً من قبل ان يؤتي ذا قرباه حقه وقته مهما كان مديناً ،

يجرّ الى نفسه وام ايمن فهي امرأة صالحة لو كان معها غيرها لنظرنا فيه ، فخرجت فاطمة عليها السلام من عندها باكية حزينة فلما كان بعد هذا جاء علي (عليه السلام) الى ابي بكر وهو في المسجد وحوله المهاجرون والأنصار فقال : يا ابا بكر لم منعت فاطمة من ميراثها من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد ملكته في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال ابو بكر : هذا فيء المسلمين فان اقامت شهوداً ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جعل لها والا فلا حق لها فيه ، فقال امير المؤمنين (عليه السلام) تحكم فينا بخلاف حكم الله في المسلمين ؟ قال : لا ، قال : فان كان في يد المسلمين شيء يملكونه وادعيت انا فيه من تسأل البينة ؟ قال : اياك كنت اسأل البينة على ما تدعيه على المسلمين ، قال : واذا كان في يدي شيء فادعي فيه المسلمون فتسألني البينة على ما في يدي وقد ملكته في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعده ولم تسأل المسلمين البينة على ما ادعوا علي شهوداً كما سألتني على ما ادعيت عليهم شهوداً ؟ فسكت ابو بكر ثم قال عمر : يا علي دعنا من كلامك فانا لا نقوى على حججتك فان اتيت شهوداً عدولاً والا فهو فيء المسلمين لا حق لك ولا لفاطمة فيه ، فقال امير المؤمنين (عليه السلام) يا ابا بكر تقرأ كتاب الله ؟ قال : نعم ، قال : فاخبرني عن قول الله تعالى : انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً ، فيمن نزلت ، فينا ام في غيرها ؟ قال : بل فيكم ، قال : فلو ان شاهدين شهدا على فاطمة بفاحشة ما كنت صانعاً ؟ قال : كنت اقيم عليها الحد كما اقيم على سائر المسلمين ، قال : كنت إذا عند الله من الكافرين ، قال : ولم ؟ قال : لأنك رددت شهادة الله لها بالطهارة وقبلت شهادة الناس عليها كما رددت حكم الله وحكم رسوله ان جعل لها فداً وقبضته في حياته (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم قبلت شهادة اعرابي بائل على عقبه مثل اوس بن الحارث عليها وأخذت منها فداً ، وزعمت انه فيء المسلمين وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) البينة على المدعي واليمين على من ادعى عليه ، قال : فقدمم الناس وبكى بعضهم فقالوا : صدق والله علي (عليه السلام) ورجع علي الى منزله قال : فدخلت

ثم نزلت في المدينة ثانية ، أم فسرت فيها بالحقين وأضرابهما ، أم هي مدينة ولا تنافيهما مكية السورة ككل ، وأمثالها غير قليل .

فاطمة عليها السلام المسجد وطافت بقبر ابيا (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي تبكي وتقول :

انا فقدناك فقد الأرض وابلها
قد كان بعدك انباء وهبشة
قد كان جبريل بالآيات يونسنا
وكنت بدمراً منيراً يستضاء به
تهضمتنا رجال واستخف بنا
وكل اهل له قربى ومنزلة
ابدت رجال لنا نجوى صدورهم
فقد رزينا بما لم يرزه أحد
فقد رزنا به محضاً خليفته
فانت خير عباد الله كلهم
سيعلم المتولي الظلم حامتنا
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب
لو كنت شاهدتها لم تكثر الخطب
فغاب عنا فكل الخير محتجب
عليك تنزل من ذي العزة الكتب
إذ غبت عنا فنحن اليوم مفتصب
عند الإله على الأدين مقترب
لما مضيت وحالت دونك الترب
من البرية لا عجم ولا عرب
صافي الضرائب والأعراق والنسب
وأصدق الناس حين الصدق والكذب
يوم القيامة أنى كيف ينقلب

قال : فرجع ابو بكر الى منزله وبعث الى عمر فدعاه ثم قال : اما رأيت مجلس علي بنا اليوم ؟ والله لئن قعد مقعداً مثله ليفسدن علينا امرنا فما الرأي ؟ قال عمر : الرأي ان نأمر بقتله ، قال : فمن يقتله ؟ قال : خالد بن الوليد ، فبعثا الى خالد فاتاهما فقالا : نريد ان نحملك على امر عظيم ، قال : احملاني على ما شئتما ولو قتل علي بن ابي طالب قالاً : فهو ذاك ، قال خالد : متى اقتله ؟ قال ابو بكر : إذا حضر المسجد فقم بجانبه في الصلاة فإذا انا سلمت فقم اليه فاضرب عنقه ، قال : نعم ، فسمعت اسماء بنت عميس ذلك وكانت تحت ابي بكر فقالت لجاريتهما : اذهبي الى منزل علي وفاطمة فاقرئيها السلام وقولي لعلي (عليه السلام) : ان الملا يأتون بك ليقتلوك فاخرج إلي لك من الناصحين . فجاءت الجارية اليهما فقالت لعلي (عليه السلام) : إن اسماء بنت عميس تقرأ عليكم السلام وتقول لك : « ان الملا » فقال علي (عليه السلام) : ان الله يحول

و « حقه » قد تلمح بحق ثابت لا قبل له ، وهو حق القرابة روحية رسالية كالإمرة بعده أم سواها كفدك وسواه من حق لفاطمة (عليها السلام) ثم « والمسكين وابن السبيل » تعني حقوقهم أي كانوا وأيان ، ثم ومن واجهة أخرى تامر الآية كافة المخاطبين بإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل . و « ذلك » البعيد المدى من إيتاء الحق « خير » قبال الشر وهو ترك الإيتاء « للذين يريدون وجه الله » في الحياة الدنيا ، دون وجهها الظاهر الملهي الملغي وجه الله « وأولئك هم المفلحون » شقاً لمزرعة الحياة فإنتاجاً منها ، كما الفلاح يشق ، فأولئك هم الناجون الناجحون ، ولأن الإيتاء هنا طليق فليكن كذلك طليقاً في الوجه العام فيشمل الزكاة كأهم الإيتاءات كما في الآية التالية ، ترغيباً فيها بأضعاف ، وترهيباً عن الربا بتضعيفه :

﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ ٣٩ .

هنا « من ربا » هي الزيادة أي كانت لمكان « من » فتشمل كل زيادة

بينهم وبين ما يريدون ، ثم قام وتباً للصلاة وحضر المسجد ووقف خلف أبي بكر وصلى لنفسه وخالد بن الوليد بجانبه ومعه السيف فلما جلس أبو بكر في التشهد ندم على ما قال وخاف الفتنة وشدة علي (عليه السلام) وبأسه فلم يزل متفكراً لا يجسر أن يسلم حتى ظن الناس أنه قد سهى ثم التفت إلى خالد فقال : يا خالد ما الذي أمرك به ؟ قال : أمرني بضرب عنقك ، قال : أوكنت فاعلاً ؟ قال : أي والله لولا أنه قال لي لا تفعل لقتلتك بعد التسليم ، قال : فأخذه علي فضرب به الأرض واجتمع الناس عليه فقال عمر : يقتله الساعة ورب الكعبة ، فقال الناس : يا أبا الحسن الله الله بحق صاحب هذا القبر فخلى عنه ، قال : فالتفت إلى عمر فأخذ بتلابيبه . وقال : يا ابن صهاك لولا عهد من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكتاب من الله عز وجل سبق لعلمت أينما أضعف ناصراً وأقل عدداً .

مؤتاة لتزويد في أموال الناس ، سواء أكانت الربا المحرمة أم المحللة ، فحين لا يقصد مؤتيها ليربوا في أموال الناس ، بل يقصد تمشية حاله بالقرض الربوي دون ضرورة واضطرار كان محظوراً ، فضلاً عما إذا ينوي ليربوا في أموال الناس قصداً إلى تضخيم الرأسمالية المحرمة ودولة المال بين الأغنياء فإنه أشد محظوراً وأشجى .

ومن الربا المحرمة دون هذه ايتاء الزكاة لغير أهلها من الأثرياء وغير المحاييج ، « ليربوا في أموالهم » وإن قصد وجه الله لو صح منه هذا القصد .
ومنها ايتاء الزكاة لأهلها المحاييج دون اتجاه فيه لوجه الله فإنه لا يسقط حق الزكاة لفقدان قصد الوجه ، وغير ما يقصد فيه « ليربوا في أموال الناس » منها ، داخله في حظر الآية وسواء في سواها مما تشترط الفقر وقصد الوجه في صالح الزكاة .

ومن الربا المحللة « أن يُقرض الرجل أخاه قرضاً لأن يزيده ويعوضه بأكثر مما يأخذ بلا شرط بينهما فإن أعطاه أكثر مما أخذه على غير شرط بينهما فهو مباح له وليس له عند الله ثواب فيما أقرضه . . » (٣١) .
ومنها « هديتك الى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها فذلك ربا يوكل » (٣٢) .

(٣٢) نور الثقلين ٤ : ١٨٩ عن تفسير القمي بسند عن حفص بن غياث قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) الربا ربانان احدهما حلال والآخر حرام فاما الحلال فهو ان يقرض . . . وهو قوله : فلا يربو عند الله « واما الحرام فالرجل يقرض قرضاً ويشترط ان يرد أكثر مما اخذه فهذا هو الحرام .

(٣٣) المصدر عن التهذيب بسند عن ابراهيم بن عمر عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية « قال هو . . . » وفيه عن الكافي بسند عن ابراهيم بن عمر اليماني عن ابي عبد الله

ومنها الهدية دون عوض للأثرياء دون ابتغاء وجه الله ، بل ليوجه اليه وجوههم ويزيد في أموالهم ، وهذه الأخيرة تشملها الآية نصاً ، والأوليان تأويلًا حيث القصد فيهما ليس ليربوا في أموال المؤتي اليهم ، بل في أموال المؤتي ، توسيعاً للناس الى المؤتين تأويلًا .

وقد تعم الربا كل زيادة مالية سواء أكانت زيادة دون مقابل في معاملة كالربا المحرمة المعروفة ، ام زيادة أي من الثمن والمثمن أو العمل وأجرته على بعض بشرط ، فمحرمة ايضاً مهما كانت دون الربا المصطلحة .

ام أموالاً زائدة على حاجيات الحياة ، وهي العفو في : « يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (٣: ٢١٩) فإيتاء هذه الزيادة لوجه الله وكما أمر الله إضعاف للمال « فاولئك هم المضعفون » وإيتاءها ليربوا - فقط - في أموال الناس « فلا يربو عند الله » إذ هو خلو عن وجه الله ، وما يؤتى لوجه الله من ربا المال : الزائد فرضاً أو نفلاً، هو زكاة « وما آتيتم من زكاة تريدون به وجه الله فاولئك هم المضعفون » *مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي* كما أن ما يؤتى بغير وجه الله حلاً أو حراماً هو رباً « وما آتيتم من ربا ليربوا في اموال الناس فلا يربو عند الله » إذ لا اجر فيه عند الله .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^{١٠} .
« الله » هنا مبتدأ خبره « الذي » . . . يحْيِيكُمْ « تعريفاً به في مربعه الشامل للبدء والعود وما بينهما ، وضيع الخلق من هذا المربع تتبناه الأضلاع

(عليه السلام) قال الربا ربانان ربا يؤكل وربا لا يؤكل فأما الذي يؤكل فهديتك . . وهو قول الله عز وجل « وما آتيتم . . » وأما الذي لا يؤكل فهو الذي نهى الله عنه وأوعده عليه النار .

الأخرى ، فالرزق هو من لزامات الخلق الحكيم ، وهو مرحلة ثانية من الخلق ، والإماتة هي خلق الانفصال بين الروح والبدن ، والإحياء هو خلق ثان في الأخرى لرزق ثان فيها هو من خلفيات الحياة الأولى .

ذلك عرض خاطف للرحمتين الرحمانية والرحيمية يخلق على كافة الرحمت الإلهية ، « ورزقكم » لا تعني - فقط - الرزق المادي فانه أدناه ، بل والروحي فانه أعلاه ، فكل هدى لأي خلق هي رزقه حسب الحاجيات والدرجات والمتطلبات : « ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٥٠ : ٢٠) فـ « هل من شركائكم » ايأ كان ، عقلاء خيرين كالعباد الصالحين ، ام شريرين كالطواغيت ، فضلاً عن سواهم من أصنام وأوثان ، فان « من » هنا تستغرق كل الشركاء المختلقة من دون الله ، « هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء » :

وهنا « من » الأولى - تستغرق مربع الرحمة ككل ، والثانية تستغرق الأجزاء من كل ، تدليلاً على الأشرى له - فضلاً عن مستعل - في اي خلق ورزق وإماتة وإحياء ، فهذه الأربع هي قواعد عرش الربوبية ، لا شريك له فيها « سبحانه وتعالى عما يشركون » .

وترى الفساد الظاهر في البر والبحر هو ايضاً من رزق الله ام من خلق الشيطان - إذا - فهو من شركاءه ؟ كلا بل :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ١ .

فلما تكسبه ايدي التناس من الناس أثر حسب سنة التكوين كما للحسنات أثر ، ولا تبرز هذه الآثار حسنة وسيئة ككل إلا يوم الحساب ، وهنا « ظهر الفساد في البر والبحر » بعضاً منها « بما كسبت أيدي الناس » لا

سورة الروم / آية ٣٠ - ٤٥ ١٩٣

لأنها دار الجزاء الأوفى ، وإنما « لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » : عما تكسبه أيديهم ، فكما أن العذاب في الآخرة ليس إلا نفس ما كسبت أيديهم من آثام كذلك يوم الدنيا .

فهنا الله لا يُظهر فساد ما كسبت أيدي الناس لأنه ليس يوم الجزاء ، وإنما « بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » - « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » (٣٠ : ٤٢) عفواً هنا مؤقتاً ثم يظهر في الآخرة ما لا يعفى عنه بمكفرات هنا .

وليس ظلم الناس هنا - فقط - بالذي يفسد عليهم ، بل وكل دابة « ولو يواخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (٦١ : ١٦) .

هذه أبعاد ظلم الناس حيث لا تبقي دابة في الأرض ولا تذر إلا قضت عليها لولا تأخيرهم إلى أجل مسمى ، وتأخير العذاب إمهال لمن يتذكر ببعضه هنا ، وإمهال على الطغاة وقد يأخذهم عذاب الاستئصال .

وما كسبت أيدي الناس في كل حقل يظهر منه حقله ، ثقافياً - عقائدياً - سياسياً - اقتصادياً^(٣٤) ، وإمرة علينا^(٣٥) .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ

(٣٤) نور الثقلين ٤ : ١٩٠ عن القمي قال الصادق (عليه السلام) في الآية : حياة دواب البحر بالمطر فإذا كف المطر ظهر الفساد في البر والبحر وذلك إذا كثرت الذنوب والمعاصي .

(٣٥) المصدر عن ميسر وعن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية قال : ذلك والله يوم قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير .

أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ^{٢٢} فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٢٣﴾ .

أكثر الهلكى الغابرين كانوا مشركين ، والباقون موحدون ، أهل كتاب وسواهم بما كانوا يتخلفون عن شرحة التوحيد ، ولا سبيل للفرار عن سوء العاقبة هنا وفي الأخرى إلا إقامة الوجه للدين القيم وهو التوحيد الحق وحق التوحيد الذي تتبناه الفطرة والعقلية والشرعة ، كل تلو بعض ولصق بعض في تعاضد ثلاثي سامي .

« فأقم .. من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله » وهو يوم انقطاع التكليف ، بدايته يوم الموت ونهايته يوم الأخرى ، ولأن هذا التكليف قائم على كل مكلف الى يوم الدين ، لم يكن ليخص أحد اليومين ، فمن مات قبل القيامة فـ « يوم لا مرد له من الله » باديء له من الموت ، ومن مات في قيامة الإمامة فيوماه يوم واحد ، وهو على أية حال « لا مرد له من الله » .

والمرء هو مصدر ميمي واسم زمان ومكان ، و « من » قد تعني كلا الابتدائية والتجاوز ، فمثلث المرء لذلك اليوم مسلوب « من الله » اذ لا يرد ، ومن غير الله « من الله » أن نحمله على المرء .

« يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ » اصلها يتصدعون ، وهو التفرق والتمزق ، فلا تصدع يوم الدنيا بما عملوا اذ لا تنفجر وتظهر بحقائقها النارية ، فانما هو يوم بعد الموت برزخاً بينه وبين الأخرى ، وجزاء أوفى فيها : « وان ليس للإنسان إلا ما سعى . وان سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » (٤١: ٥٣) .

فهنا يتصدعون بكل تصدع وصداع في أنفسهم ، ويتفرقون بعضهم عن بعض ، ويتفرق الكل عن المؤمنين ففريق في الجنة وفريق في السعير .

﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾^{٢٤} لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ .

فإنما كفر الكافر عليه في كل النشآت ، كما صالح الصالحاء لأنفسهم حيث يجزون من فضل الله ، وأولئك يعذبون من عدل الله « انه لا يحب الكافرين » فيبغضهم ، إذ لا تخفى على ربنا خافية حتى يخلوا أحيانا من حب ويبغض جهلاً بالحال ! فمن لا يحبه فهو يبغضه ، ومن لا يبغضه فهو يحبه . وكما « كفر » تعم كفر العقيدة والعمل كذلك « عمل صالحاً » إذ لا يصلح عمل إلا بإيمان .

والإفراد في « عليه » لرعاية اللفظ « مَنْ » والجمع في « يمهّدون » لرعاية المعنى منها ، ولماذا - بعد - لم يأتيا بصيغة واحدة إفراداً أو جمعاً واللفظ نفس اللفظ والمعنى نفس المعنى ؟ قد يعني الإفراد في « عليه » التبعة الفردية في الكفر ، والجمع في « يمهّدون » المهاد الجمعي في الإيمان ، فإن أولاد المؤمنين - الصغار - يلحقون بهم في مهدهم ، ولا يلحق أولاد الكفار بهم ، كما وذرية المؤمنين التابعين لهم بإيمان يلحقون بهم في درجاتهم تكريماً لهم : « والذين آمنوا واتبعنهم ذريتهم بإيمان أحققنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين » (٥٢: ٤١) .

فالرحمة لأنها قضية الفضل هي أعم من الغضب وهو قضية العدل ، لا فحسب في الأخرى بل وايضاً في الأولى حيث يشمل برحمته كل مرزوق مؤمناً وكافراً ولا يأخذ بعذابه هنا إلا الكافر فقد « سبقت رحمته غضبه » بكل سبق وفي كل سباق (٣٥) .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ

(٣٦) نور الثقلين ٤ : ١٩١ عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان العمل الصالح ليسبق صاحبه الى الجنة فيمهد له كما يمهد لأحدكم خادمه فراشه .

مِّن رَّحْمَتِهِ ۖ وَلِتَجْرِيَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ ۖ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ
 وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ
 قَوْمِهِمْ بِآيَاتِنَا ۖ وَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ
 وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ
 الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ
 وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۚ فَإِذَا
 أَصَابَ بِهِ ۖ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادَةٍ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾
 وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ ۖ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾
 فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ
 إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾
 وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ ۖ
 يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الْحَيُّ
 الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعَمَىٰ عَنْ
 ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

* اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ
 ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ
 مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ
 الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٤٧﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ
 اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ
 لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ
 وَلَا هُمْ يُسْتَعْنُونَ ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
 الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِثَّتْهُمْ بِقَايَةٌ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا سَاطِلُونَ ﴿٥٠﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى
 قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
 وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٥٢﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مَبْشُرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ
 الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٤٦ .

« ومن آياته » لرحمته الشاملة « أن يرسل الرياح مبشرات » برحات :
 ازالة للعفونات ، وتلقيحاً لشجرات ، وتلقيحاً للسحاب ركاباً أم إثارة لها

بسطاً في السماء كيف يشاء ، وتلطيفاً للأجواء ، وتبريداً للهواء ، أماذا عما تخلفه الرياح المبشرات « وليذيقكم من رحمته » فالإذاقة قلة ، و « من » التبويض قلة أخرى تجعلان غزير الأمطار قلة قليلة من رحمته ، ولنعرف ما هي رحمته يوم الرحمة الأخرى .

« ولتجري الفلك بأمره » بالرياح « ولتبتغوا من فضله » بجريان الفلك والرياح « ولعلكم تشكرون » مرسل الرياح مبشرات ، بهذه الرحمات ومحققات لهذه العطيات .

وحين يرسل الله الرياح مبشرات لرحماته المادية للأولى افلا يرسل رياح الوحي مبشرات لرحماته الروحية التي تعيشنا في الشأتين :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٤٧ .

إن الرياح الروحية الرسالية المبشرة بكل الرحمات قد أتت بالبينات « فانتقمنا من الذين أجمعوا » ثمرات الحياة قطعاً لها قبل إيناعها ، فتحويلاً لها إلى نكبات ، وأما الذين آمنوا « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » في حقول الرسالات هنا ويوم يقوم الأشهاد : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (١٨: ١١) .

و « كان » هنا تضرب الى أعماق الماضي الرسالي بمستقبله ، تأكيداً لإستمرارية النصر الرباني لهؤلاء الأكارم قدر ما ينصرون الدين والدينين .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُبْسِطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ٤٨ .

إثارة السحاب وبسطها في السماء كيف يشاء وجعله كسفاً فتري الودق

يخرج من خلاله ، ذلك من مبشرات الرياح المبشرات ، أفردت بالذكر فصلاً بعد وصل لأنها أهم بشارات الرياح « إذ هم يستبشرون » .

فمن فاعليات الرياح انها « تثير سحباً » من المياه بما تحمله من الأبخرة المائية ، فكما بقر الحرث تثيره ، كذلك السحاب تثير حرث الأبخرة قلعاً من الكتل المائية على وجه الأرض « فيسطه » الله « في السماء كيف يشاء » : « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » (٩:٣٥) .

« ويجعله كسفاً » : ويجعل الله السحاب المبسوط في السماء : كسفاً : قطعاً ركاماً فوق بعض : « ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله » (٤٣:٢٤) .

« ويجعله كسفاً » : ويجعل الله السحاب المبسوط في السماء : كسفاً : قطعاً ركاماً فوق بعض : « ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله » (٤٣:٢٤) .

والودق هو بداية المطر ، يخرج من خلال السحاب كأنها غرايل ، ثم يصبح الودق مطراً نزيراً أم غزيراً « فإذا أصاب » الله « به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون » برحمة الماء من السماء .

﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَيُلْسِنَ ﴾ ٤٩ .

وما هو المرجع لضمير الغائب في « من قبله » ؟ أهو الودق وقد أغني عنه من قبل بـ « من قبل » ! ولا فصل بعيداً يقتضي التكرار ! وليس الإبلas الإلباس إلا من قبل الرياح !

أم إنه « السحاب » ؟ فكذلك الأمر معنوياً مهما صح لفظياً ! ..

انه ارسال الرياح المؤول من « يرسل الرياح » :- وان كانوا من قبل ان

ينزل عليهم الودق من قبل ارساله الرياح للمبسين .

﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ٥٠ .

« فانظر » نظرة العبرة النبهة بصرأ وبصيرة « إلى آثار رحمة الله » الودق المطر « كيف يحيي » به « الأرض بعد موتها » كيفية متواترة مرئية ليل نهار ، أن يضم رحمة السماء إلى رحمة الأرض ببذر ، وكل الثلاث ميتة بمفرداتها ، ثم تحصل الحياة بجمعيتها كما يشاء الله « إن ذلك » الرحمن الرحيم القدير « لمحيي الموتى » أيأ كانت وأيان ، وأهمها لإحياء يوم الحساب فإنه قضية عدله مهما كان سائر الإحياء في سائر الأحياء قضية فضله .

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفِراً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ٥١ .

هذا الريح هو ريح العذاب حاراً ام بارداً يصفرُّ به الزرع عن اخضراره ، وترى « فرأوه » تعني الريح ؟ وليس لريح العذاب كما سواه لون ! ولو كان وهو مصفر فصالح التعبير عنه « ريحاً مصفراً - أو - اصفر » ! ولم يوصف الريح فيما وصف بأي لون اللهم إلا بفاعلية العذاب : « كمثل ريح فيها صرأ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم » (١١٧: ٣) (٣٧) .

مرجع الضمير هو الزرق أو مطلق النبات المعلوم من السياق « أرسلنا ريحاً » بعد إرسال الرياح « فرأوه » : النبات المُخْضَرُّ بالمطر الحاصل عن إثارتها السحاب ، رأوه مصفراً « لظلوا من بعده يكفرون » كفراناً برحمته السابقة السابغة ، ام وكفراً به .

(٣٧) « جاءت ريح عاصف » (٢٢: ١٠) « قاصفاً من الريح » (٦٩: ١٧) « الريح العقيم » (٤١: ٥١) « ريح صرصر عاتية » (٦: ٦٩) .

سورة الروم / آية ٤٦ - ٦٠ ٢٠١

ثم الأفراد في ريح العذاب قد يلوح بالعذاب ، كما الأكثرية الواردة في القرآن تعنيه ، بخلاف الجمع في رباح الرحمة فلإنها لم تأت في عشرتها الكاملة إلا للرحمة (٣٨) .

وعلى وجه الجمع في رباح الرحمة ، أنها خليطة من مختلف الرياح ، أم ربحاً متكرراً متواتراً لكي يصلح لما يبشر به ، وريح العذاب أحياناً ، وأما رباح الرحمة فدائبة ، فهذه جمع يخلق على كل زمان ومكان ، وذلك مفرد حيث لا يأتي إلا الأحياء .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۖ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ۖ ۝٣٨﴾ .

« الموتى » هنا هم موتى القلوب فالصُّمَّ الأسماع والعمي الأبصار ، حيث لا يعون ولا يسمعون ولا يبصرون « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة . . . » (٧: ٢) وذلك ختم الجزاء يوم الدنيا دون الجزاء الختم فانه في الأخرى .

إن إسماع آيات الله ليس يؤثر إلا في « من يؤمن بآياتنا » فإن سجيته الايمان بها حين تواجهه ، وهو يتحرى عنها ، ولأقل تقدير لا يتجرى عليها « فهم مسلمون » لها ، مؤمنون بها .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ

(٣٨) في آيات عشر الرياح كلها للرحمة وفي (١٨) آية ريح أو ربحاً لا تجد الا مرة بتيمة « وجرين بهم بريح طيبة » (٢٢: ١٠) أم وريح سليمان « وسليمان الريح عاصفة تجري بأمره » (٨١: ٢١) وهي ريح القوة وليست ريح الرحمة العامة .

مَنْ بَعْدَ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْئَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ .

تعريف آخر بالله وجاء مختلف حالات الإنسان من ضعف إلى قوة إلى ضعف وشيية ، ومن القوة الحياة ومن الضعف الممات ، والإنسان كما هو بين مختلف حالات سائر الضعف والقوة كذلك هو بين الموت والحياة « يخلق ما يشاء » لا كمنشاء « وهو العلي القدير » بما يخلق .

« خلقتكم من ضعف » هو مني فإنه ضعف في كيانه وضعف في دفعه ، فـ « ضعف » مصدراً تلمح إلى مدى ضعف النطفة كأنها الضعف نفسه .

« ثم جعل من بعد ضعف قوة » أ منذ العلقة إلى المضغة إلى العظام إلى كسوتها لحماً إلى إنشاء خلقاً آخر وإلى ... ؟ وكل ذلك ضعف بعد ضعف ! وقد تعني « قوة » بداية القوة والقيام على ساق للولائد ، و « من بعد ضعف » قد تعني الضعف فيما بين الضعف الأول والقوة الأولى .

فان « من ضعف في خلقتكم » هو النطفة المخلوق منها الجنين ، فـ « من بعد ضعف » تعني ضعف الجنين المخلوق من ضعف ، ومن ثم فـ « ثم » هنا تفصل بين خلقه من ضعف وجعل قوة له بعد ضعف ، فذلك الفاصل ضعف بعد ضعف .

فضعف المصدر ممثل في تلك الخليّة الصغيرة الدقيقة التي ينشأ منها الجنين ، وضعف الصادر بينه وبين قوة هو الجنين بأطواره ، ثم الطفل حتى يقوم على ساقه من ضلابة التكوين .

وقوته بادئة من ذلك القيام كاستقلالية ما في بعض الحاجيات مشرباً ومأكلاً وملبساً ، وقياماً في حاجيات أخرى .

وهذه القوة باقية لحد الأربعين متزايدة ، ثم تُبدل الى ضعف ثم شيية ، فالشيخوخة إنحدارة إلى الطفولة بكل مظاهرها الضعيفة ولحد لا تعلمون شيئاً ولا تقدرّون على شيء وهو أرذل العمر : « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر

سورة الروم / آية ٤٦ - ٦٠ ٢٠٣

لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً « (٢٢ : ٥) .

« يخلق الله ما يشاء » من ضعف وقوة وشيئة « وهو العليم » ماذا يخلق وفق الحكمة العالية « القدير » بكل خلق .

فليس خلُقكم « من ضعف » لضعفه قدرة وعلماً ، ولا « جعل من بعد ضعف قوة » لقوته علماً وقدرةً ، بل إنها تحويلات إلى حالات حسب الحكمة العملية القديرة كما يشاء ، ولا يفلت منها أحدٌ من أبناء الفناء حيث تتعاور تلك الخليقة البشرية لتشهد انها مدبّرة كما يشاء الله العليم القدير .
أوليس هذه النشأة الحكيمة القاصدة استمرارية في نشأة أخرى هي مزرعة الأولى ؟ :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبَثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ٥٥ ﴾ .

اللبث هنا هو لبث البرزخ ، قاله الذي يسبق « يوم تقوم الساعة » لا لبث الدنيا ، ام هو مجموع اللبثين ؟ استقلالاً لحياة التكليف والتي بعدها قبل قيامة الساعة .

واقسام المجرمين هناك « ما لبثوا غير ساعة » إفاكٌ مبين كما هم في حياة التكليف « كذلك كانوا يؤفكون » صرفاً عن وجه الحق الى غير وجهه ، على طول خط الحياة الى قيام الساعة ولما يفيقوا عن غفوتهم وهم محشورون ليوم الدين !

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٥٦ ﴾ .

« كتاب الله » علّه كتاب التكوين التقدير الى جنب كتاب التشريع التدوين ، فقد قدر الله وقرر لبثاً برزخياً لكل من الأموات وإن ماتوا في قيامة

الإماتة ، كما أن آيات من القرآن تتحدث عن هذه الحياة الفاصلة بين الحياتين « ومن وراءهم برزخ إلى يوم بعثون » .

فـ الذين اوتوا العلم « بالكتاب » والايمان « بما في الكتاب » هناك يكذبون المجرمين القائلين « ما لبثوا غير ساعة » كما هنا ، ام « عشية او ضحاها » (٤٦: ٧٩) « يوماً او بعض يوم » (١١٦: ٢٣) او « عشراً » (١٠٤: ٢٠) يكذبونهم بقولهم « لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث » وقد يعني « كتاب الله » ما كتبه الله من الحياتين قبل الأخرى وهي « يوم البعث » فهذا يوم البعث الذي كنتم به تكذبون « ولكنكم كنتم » قبله « لا تعلمون » .

أتراهم كانوا لا يعلمون انهم سوف يبعثون وهم في البرزخ وقد ظهر لهم ما كان خفياً عليهم ؟

هنا « كنتم لا تعلمون » ماض بعيد يضرب الى بعيد هو بالطبع حياة التكليف لا والبرزخية ايضاً .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ ٥٧ .

الإستعتاب هو طلب العتبي وهي العتاب وإزالته ، فهم كما لا ينفعهم معذرتهم إن اعتذروا ، لا يُطلب منهم ان يعتبوا أنفسهم ام يزيلوا عتابهم ، مهانة لهم وهواناً كانهم حماد لا يشعرون .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَنْ جِثَّتْهُمْ رِجَالُهُمْ لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ ﴾ ٥٨ .

إن الآية المثبتة للحق أصبحت عندهم مبطله والجائي بها مبطل ، وهكذا يرتكس الظالمون في حماة الغباوة الخائفة ان تنقلب آية الحق عندهم آية الباطل .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٥٩ .

لقد طبع الله على قلوب هؤلاء الظالمين وأزاغها كما زاغت بتجاهل عارم قاحل لحد تقلب الحق عندهم باطلاً والباطل حقاً ، حياة منكوسة مركوسة أرذل من الدواب وأضل .

فهـ الذين لا يعلمون « هنا هم الجاهلون المقصرون ، لا القاصرون المستضعفون ، ولا يطبع الله إلا على قلوب خالية عن الهدى خاوية عن التقوى، مليئة من الطغوى « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ ٦٠ .

« فاصبر » يا رسول الهدى على قولتهم « إن أنتم إلا مبطلون » وعلى فعلتهم المضادة لدعوتك فما أنت إلا نذير « إن وعد الله حق » في نصرتك : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » وفي عذابهم كما يشاء ويصلح « ولا يستخفئك الذين لا يوقنون » استخفافاً عن ثابت الإيمان الإسلام والدعوة الصارمة .

هنا « فاصبر » توطين لخاطر الرسول وقلبه القريح الجريح ، ثم وفي تأويله قد يكون توهيناً لسواه تهويلاً بمستقبل العذاب كما فعله الإمام امير المؤمنين (عليه السلام) جواباً عن ابن الكوا (٣٩) .

وقاله ابو جعفر الباقر (عليه السلام) جواباً عن امره بالخروج المبكر ولما

(٣٩) نور الثقلين ٤ : ١٩٢ عن تفسير القمي كان علي بن ابي طالب (عليه السلام) يصلي وابن الكوا خلفه وامير المؤمنين (عليه السلام) يقرأ فقال ابن الكوا « ولقد اوحى اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » فسكت امير المؤمنين (عليه السلام) حتى سكت ابن الكوا ثم عاد في قراءته حتى فعل ابن الكوا ثلاث مرات فلما كان في الثالثة قال امير المؤمنين (عليه السلام) : « فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفئك الذين لا يوقنون » .

يَحْنُ حينه ترحماً على زيد (٤٠) . فهذا تنزيل وذلك تأويل ولكل مجاله .

فالصبر أمام العراقيل في الطريق الشاق الطويل هو زاد المؤمنين ، أن يثبتوا على الحق دون زعزعة ولا تلکع ، صبراً يكون سبباً لأغوار الحوادث والمصائب التي قد تنقص من الإيمان بوعده الله فتتقض وثاق الله ، لا صبر التخاذل والتنازل ، وإنما صبر جميل يعني الإستقامة على الطريقة .

وهكذا تختم السورة كما بدأت بوعده النصر ، تختم بالصبر انتظاراً لانتصار بنصر الوعد وتحققه كما يراه الله .



مركز تحقيق كتاب يوم الرضوي

(٤٠) المصدر عن الكافي ان زيد بن علي بن الحسين دخل على ابي جعفر (عليه السلام) ومعه كتب من أهل الكوفة يدعونه فيها الى انفسهم ويخبرونه باجتماعهم ويأمرونه بالخروج فقال له ابو جعفر : هذه الكتب ابتداء منهم او جواب ما كتبت به اليهم ودعوتهم اليه ؟ فقال : بل ابتداء من القوم لمعرفتهم بحقنا وبقرابتنا من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولما يجدون في كتاب الله عز وجل من وجوب مودتنا وفرض طاعتنا ولما نحن فيه من الضيق والظنك والبلاء ، فقال له ابو جعفر (عليه السلام) ان الطاعة مفروضة من الله عز وجل وسنة امضاها في الأولين وكذلك يجريها في الآخرين والطاعة لواحد منا والمودة للجميع وامر الله يجري لأوليائه بحكم موصول وقضاء مفصول وحتم مقضي وقدر مقدور واجل مسمى لوقت معلوم « فلا يستخفئك الذين لا يوقنون انهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً » فلا تعجل فإن الله لا يعجل لعجلة العباد ولا تسبقن الله فتعجلك البلية فتصرعك .

(۳۱) سُبْحَةَ الْفَيْسَانِ مَكِينَةً
وَأَنْبِيَاءُهَا أَنْبِجُ وَتَلَاوُكُ

مرکز تحقیق تکاپویر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ① هُدًى
وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى
مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ④ وَمِنَ النَّاسِ
مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑤
وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ
فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑥ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ⑦ خَالِدِينَ فِيهَا

وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوْنَهَا وَالنَّارِ فِي الْأَرْضِ رَوَّاسِي أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ
وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا
خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

سورة لقمان تحمل ثورة لقمان العقائدية والخلقية بصورة العظة لإبنه ،
وفيهما ككل جولات ثلاث وجاه القلب البشري بفطرته إذ يعلم الله مداخلها
ومساربها ومآربها ، وما تَغشَى عليها غواش من دحان الأرض .
تبدأ الجولة الأولى من خلال النفس الإنسانية بأسلوب شيق ومؤثرات
جادة جديدة : « ولقد آتينا لقمان الحكمة . . » غودجاً عالياً من العظات
الرسالية مهما لم يكن لقمان رسولاً .

والجولة الثانية بادئة بعرض كائنات من السماوات والأرض : « ألم تروا
أن الله سخر لكم . . . » .

والجولة الثالثة هي مشهد الليل والنهار والشمس والقمر : « ألم تر أن
الله يولج الليل في النهار . . . »

وفي هذه الجولات الثلاث وما بينهما جلوات عقلية وفطرية وعلمية
وحسية تتبنى الأصول الثلاثة كما هي طبيعة الحال في القرآن كله ولا سيما في
السور المكية .

﴿ أَلَمْ يَأْتِ الْكِتَابَ الْحَكِيمَ ٢ ﴾

« تلك » البعيدة الأغوار ، النازلة في الزمن الرسولي ، كهذه وما مضت وتستقبل « آيات الكتاب الحكيم » : حكياً عند الله قبل نزوله : « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » (٤٣ : ٤) حكياً بنزله ليلة القدر ، وحكياً في تفصيله : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١ : ١١) .

والحكمة في كل من الثلاث كما تناسبه ، كالإجمال في الأولين أم ثالث التفصيل ، والإتقان في الكل عن أي تدخل وتسرب من سواه ، والحكمة البلاغية لفظية ومعنوية في كل القول ، محلقة على كل العقول ، بعيدة عن الذبول والأفول ، حاكمة حكيمة محكمة كأنها الحكيم نفسه ، إذ برزت وركزت فيها حكمة الرب الممكنة البروز ككل ودون ابقاء .

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ٣ ﴾

« الكتاب الحكيم » حال كونه « هدى » « نفسها » « ورحة » « نفسها » حيث تجسدتا فيه حاملاً كل الهدايات والرحمات الإلهية لكل كفاعلية مطلقة ، و « للمحسنين » كقابلية بفعلية الإهداء والرحمة ، والتنوين فيهما يعني التعظيم البعيد عن الأفهام .

و « المحسنين » هم الذين يحسنون الإيمان وعمل الإيمان على ضوء « الكتاب الحكيم » :

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ يُوَقِنُونَ ٤ ﴾

فإقام الصلاة عموداً للدين مثال لكافة الصلوات الربانية بينهم وبين الله فانها معراج المؤمن ، وإيتاء الزكاة من كل الوهبات الربانية لعباد الله ، يخلق على كل الصلوات الخلقية ، ثم « وهم بالآخرة يوقنون » تؤصل صلتهم بالله

ويخلق الله وتربطها من المبدء إلى المعاد ، فقد أحسنوا كل الصلوات العقائدية والعملية ، المتشكلة في إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ناحية منحى مرضات الله وإلى يوم الله .

﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

« على » هنا تسيطرهم « على هدى » عظيمة واسعة ناصعة « من ربهم » لا ضلال فيها ولا كلال ، وبطبيعة الحال « وأولئك » دون سواهم « هم المفلحون » إذ يفلحون ويشقون طريق الهدى في البحر الملتطم بسفن النجاة ، ويُفلجون عمال الردى وعواملها في هذه الطريقة الشاقة الطويلة .

هؤلاء الأكارم هم من « الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » (٧٤: ٤) « فإِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ » (١١١: ٩) - « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله ... » (٢٠٧: ٢) كما :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَفْظَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

« الحديث » هنا هو كل ما حدث من قول أو فعل أو مزيج منها ، فقد يكون ذكراً لله ، أو لهواً عن الله ، أم عواناً بين ذلك خلواً عن أي ذكر أو لهو ، وهو الحديث ، المضل عن سبيل الله وهو ذكره ، بأن يتخذ هزواً ، ذلك هو الضلال البعيد .

« اللهو » حرام في كل حقوله وألوانه ، فانه ككل ما يشغل الإنسان عما يهيم ويعنيه ، كما اللهوة هي ما يشغل الرحي عما يطرح فيه .
إذا فاللهو دركات حسب درجات ما يهيم الإنسان ويعنيه ، وأسفلها اللهو عن الله وعن ذكر الله ، وعن يوم الله ، وعما يتوجب على العبد أو يحرم عليه وجاه الله .

وله اسباب عدة من معدة وغير معدة ، فالأولى كالتكاثر : « أهاكم التكاثر » (١٠٢: ١) والأمل : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » (١٥: ٣) ومنه هو الحديث ككل ، فانها من المعدة ، ومن غير المعدة الأموال والأولاد : « لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » (٦٣: ٩) والتجارة والبيع : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » (٢٤: ٣٧) والحياة الدنيا ككل : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » (٦: ٣٢) .

فالمعدة من اللهو محرمة على أية حال ، وغير المعدة كالحياة الدنيا بوسائلها غير محرمة إلا أن تلهي ، فإنما الأصل هو الإلهاء - بالفعل - عما يعنى للإنسان كإنسان وما يعنيه كمؤمن بالله .

والمفروض في هو الحديث أن يرفض بكل أساليبه وألوانه كمفتاح أول لرفض المحرمات كلها^(١) وفرض الواجبات كلها ، حيث الملاهي بجوارح وجوانح تتخطى إلى القلوب ، فإذا ألهمت القلوب ألغت كل ما تعنى الإنسان ويعنيها الإنسان من إيجابيات وسلبيات تشبه الإنسان كإنسان وبأحرى كحامل إيمان : « لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وانتم تبصرون » (٢١: ٣) .

وأنجس بلهو يشتري ، وأنحس منه : « ليضل عن سبيل الله بغير علم » ثم ثالث : « ويتخذها هزواً »^(٢) فذلك مربع من النحوسة الواصلة إلى

(١) الدر المنثور ٥: ١٥٩ - اخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أبي عثمان الليثي قال قال يزيد بن الوليد يا بني امية اياكم والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة وانه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل المسكر فان كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء داعية الزنا .

(٢) في المجمع روى عن أبي عبد الله (عليه السلام) انه قال - في الآية - هو الطعن في

« عذاب مهين » .

فليست حرمة اللهو لتختص بما يُشترى ويُضل ويَهْزَأُ ، وإنما ذلك أسفل دركات الحرمة فيه ، وكل ما يلهي ، أو ما شأنه أن يلهي، فهو محرم في شرعة الله من غناء تُلهي أو رقص يُلهي أماذا من الملهيات ، وأما ما يذكر الله من أصوات حسنة أو أعمال فراجحة ، وما لا يذكر ولا يلهي فعوانٌ يباح ، إلاّ ألا يعني غرضاً عاقلاً فلغو لا يباح إلاّ للأطفال .

فالعناء المفسر به قول الزور^(١) واللهو^(٢) ليس محرماً ككل حيث التغني

الحق والاستهزاء به وما كان أبو جهل وأصحابه يبحثون به إذ قال : يا معاشر قريش ألا أطعمكم من الزقوم الذي يخوفكم به صاحبكم ؟ ثم أرسل إلى زيد ونمر فقال : هذا هو الزقوم الذي يخوفكم به ، قال : ومنه العناء .

(١) كما في صحيحه الشحام وموثقه أبي بصير ومرسله ابن أبي عمر المرويات عن فروع الكافي ، وحسنه هشام المحكي عن تفسير القمي ورواية عبد الأعلى المحكية عن معاني الأخبار والثلاثة الأولى في الوسائل الباب ٩٩ ح ٢ - ٩ - ٨ والرابعة نفس الباب ح ٢٦ والخامسة فيه ح ٢٠ وفي الدر المنثور ٥ : ١٥٩ - أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في سننه عن ابن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) العناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل ، وفيه أخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن أبي امامة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ما رفع أحد صوته بعناء إلا بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان باعقابهما على صدره حتى يمساك ، أقول : يعني العناء الملهي .

(٢) كما في صحيحة ابن مسلم ورواية مهرا بن محمد والوشاء ورواية عبد الأعلى السابقة ، والثلاثة الأولى في الوسائل ب ٩٩ ح ٦ - ١١ و ١٦ وفي نور الثقلين ٤ : ١٩٣ عن معاني الأخبار بسند متصل عن يحيى ابن عباد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قلت قوله عز وجل : ومن الناس . . . قال : منه العناء .

وفيه عن الكافي بسند متصل عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليهما السلام قال سمعته يقول : العناء عما أوعده الله عز وجل عليه النار وتلا هذه الآية ومثله عن أبي عبد

بالقرآن مجبور ، وسائر التغني بذكر الله مشكور ، كما يروى عن رسول الهدى
« تغنوا بالقرآن فانه من لم يتغن بالقرآن فليس منا » .

فصرف الوقت في التعرف الى معنى الغناء ، المختلف فيه اللغة والأقوال ،
قد يكون نفسه من هو الحديث ، حيث الأصل المحرم في الغناء وغيره هو
اللهو ، فقد يحل الغناء كما في القرآن ، وقد يحرم غير الغناء كما في الرقص
الملهي وما أشبهه ، فبين اللهو والغناء - إذا - عموم من وجه .

فمن هو الحديث ما يلهي بنفس الحديث دون غناؤه كالقصص
الأسطورية المزخرفة المقصودة في المقاهي وسائر النوادي المناسبة لها وهي من
شئون نزول الآية^(١) ومنه ما يلهي بغناؤه سواء أكان معناه ملهياً مثله أم لم
يكن ، كما من الغناء ما لا يلهي ، ككل ما لا يحمل المعاني او الحالات
الملهية ، أما يحمل المعاني المذكورة كالغناء بالقرآن وسائر المعارف الإلهية من
مواعظ شعرية او منشورة أمأهية .

واشتراء هو الحديث بعمم اشتراء القينات^(٢) وآلاتها^(٣) واشتراء نفس

الله : الغناء مما قال الله : . . . وفيه عن الحسن بن هارون قال سمعت ابا عبد الله
(عليه السلام) يقول : الغناء مجلس لا ينظر الله الى اهله وهو مما قال الله عز وجل : ومن
الناس .

(١) نور الثقلين ٤ : ١٩٤ عن تفسير القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر عليهما
السلام في الآية فهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة من بني عبد الدار بن قصي
وكان النضر ذا رواية لأحاديث الناس واشعارهم يقول الله عز وجل : وإذا تنلى عليه آياتنا
ولى مستكبراً كان لم يسمعها كان في اذنيه وقرأ فبشره بعذاب اليم .

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٥٩ اخرج جماعة عن ابي امامة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله
وسلم) قال : لا تبيعوا القينات ولا تشروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن
حرام في مثل هذا انزلت هذه الآية : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث . . » وفيه عن

اللهو كأن يستأجر الملهي بحديثه أو غناؤه ويدفع له ثمن^(١) .

و « سبيل الله » هنا هي القرآن ونبي القرآن وكل ما منهما واليهما من ذكرى ، فانهما الأصل في ذكر الله بما يذكران الله ، فكل ما يلهي عن « سبيل الله » ويضل في اي حقل من حقولها ، كان محظوراً ، ولا سيما إذا كان مأخذاً لاتخاذها هزواً .

ف « اولئك » الذين يشترون هو الحديث إضلالاً عن سبيل الله واتخاذها هزواً « لهم عذاب مهين » هنا ويوم الدين ، كما أهانوا سبيل الله ان فضلوا عليها هو الحديث .

واشتراء هو الحديث قد لا يختص بالنقود وسائر الأثمان المعروفة ، فقد يشتريه بماله ، أو يشتريه بوقته وبحياته ، يبذل تلك الأثمان الغالية لهذا الرخيص البخيس ، ولماذا يشتريه « ليضل » نفسه وسواه « عن سبيل الله بغير

عائشة قالت قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع اليها ثم قرأ الآية .

(١) المصدر ١٦٠ - اخرج ابن ابي الدنيا عن علي بن الحسين عليهما السلام قال : ما قدست امة فيها الربط .

(٢) المصدر ١٦٠ - اخرج ابن ابي الدنيا عن عبيد الرحمن بن عوف ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : انما نهيت عن صوتين احقن فاجرين صوت عند نغمة هو ولعب ومزامير شيطان وصوت عند مصيبة خشن وجوه وشق جيوب ورنة شيطان ، وفيه اخرج ابن ابي الدنيا والبيهقي عن نافع قال : كنت اسير مع عبد الله بن عمر في طريق فسمع زمارة راع فوضع اصبعيه في اذنيه ثم عدل عن الطريق فلم يزل يقول يا نافع اتسمع ؟ قلت : لا - فاخرج اصبعيه من اذنيه وقال : هكذا رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) صنع ، وفيه اخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر انه سمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال في هذه الآية « ومن الناس . . » انما ذلك شراء الرجل اللعب والباطل .

علم « منه ومن يفضل باضلاله ، جهل التجاهل بالقيم والموازن ، » ويتخذها هزواً « كما كان يفعله المنافقون والمكذبون بآيات الله » اولئك لهم عذاب مهين « كما اهانوا الضمير الإنساني واهانوا الحق .

وليست الآية لتحمل - فقط - تصويراً لحادث مضى في الجماعة الإسلامية الأولى وهو ان النضر بن الحارث كان يشتري الكتب المحتوية لأساطير الفرس وقصص أبطالهم وحروبهم ثم يجلس في طريق الداهيين لسماع القرآن من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) محاولاً لجذبهم إلى هو الحديث ، انصرافاً عن القرآن ورسوله وهما سبيل الله ، حيث النص اعم ، و « يشتري » مستقبل يضرب إلى اعماق الزمن منذ نزول القرآن إلى يوم الدين ، في كل عصر ومصر يصبح هو الحديث ايأ كان معارضاً لمدرسة القرآن كأصل ، ودراسة الشريعة الإلهية ككل على ضوء القرآن ، والاستماع إلى حملة رسالة القرآن .

فكما ان التسبيل بسبيل الله فرض طول الحياة الإيمانية ، كذلك هو الحديث المضل عنها محرم على أية حال ، وهذه الآية تحمل اسفل دركاته اضلالاً عن افضل درجاتها .

﴿ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلِيٰ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيْٓ اُذُنَيْهِ وَقُرْٓا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ اَلِيْمٍ ۝۷ ﴾ .

وانها لقسمة ضيزى بين « هو الحديث » و « آياتنا » معاملة معها معاكسة ، منكوسة منحوسة مركوسة ، ان يشتري هو الحديث اضلالاً عن آيات الله ، ثم يولي عنها كأن لم يسمعها حين تلى عليه « فبشره بعذاب اليم » وكما يستبشر بلهو الحديث المضل الهازيء .

وهنا نتأكد تماماً ان ليس كل هو تشمله الآية بهكذا تنديد شديد ، مهما

كان محرماً على أية حال ، فانما المعروف من آيات اللهو حرمة في المعدل له ، وحرمة الإلتهاء بغير المعدل له ، فباختلاف الأشخاص والحالات والظروف واختلاف المجالات يختلف اللهو في واقعه وحكمه ، ودركات الحرمة فيها يلهمي عن فرض ام في محظور ، حيث اللهو مفتاح كل شر ايجابياً وسلبياً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ^٩ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^{١٠} .

هنا نتأكد ان الايمان وعمل الصالحات يُناحران هو الحديث بكل التصرفات فيه، إلتهاء والهاء ، بيعاً واشترَاء ، فالمؤمنون يعيشون سبيل الله دون ان يُلهيهم عنها أية زخرفة من زخارف الدنيا ، ومن أخطر اللهو هو الإمرة والرئاسة اعادنا الله من شرها .

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ^{١١} .

لقد فصلنا القول في آية الرعد : « الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها . . » (٣) حول « غير عمد ترونها » فلا نعيد ، وكذلك الرواسي الملقاة في الأرض في آياتها ، وانها تعم الملقاة من البركانات جو الأرضية ، والأمواج سطح الأرضية ، والأحجار فوق الأرضية الساقطة عليها من كرات سماوية .

و « ان تميد بكم » مما يدل على سبغ الأرض في خضم الفضاء ، فهي سفينة جوية بحاجة لاستقرارها الى رواس تربطها عن الميدان ، فلو وتد بالصخور ميدان ارضه »

ثم « وبث فيها من كل دابة » فيها لمحتان ، إحداهما أن أرضنا تحمل

من كل دابة في الكون نماذج ، والأخرى ان هناك في غير أرضنا دواب كما فيها ، وقد دلت على التعميم آية الشورى : « ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيها من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » .

كما « وانبثنا فيها من كل زوج بهيج » تدل على أن الأزواج النابتة هنا نماذج عن كل الأزواج النابتة في غيرها من كرات عامرة .

فالسماوات على علوها محبوبة مربوطة بالأرض بعمد لا ترونها ، ومن احتباكها نزول مائها إليها ، ومنه وجود النماذج من كل دوابها وأزواج النباتات فيها ، مما يدل على تعميم قاصد واحد يربط كل الكائنات بعضها ببعض دون تفاوت وتهافت .

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ١١ .

« فأروني » أمر تعجيز في مسرح خلق الله ، فهل من خالق غير الله « بل الظالمون » المشركون بالله هم غارقون « في ضلال مبين » يبين ضلاله بهدي خلق الله فانها آيات بينات تبين أنها - فقط - لله .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ
فَلِنَمَّا يَشْكُرْ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾
وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۚ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ
إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ

حَمَلْتُهُ أُمًّا، وَهَنَا عَلَيَّ وَهْنٌ وَفَصَلَّاهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي
وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ❶٤ وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَيَّ أَنْ تُشْرِكَ
بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا ۖ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا
مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ❶٥ يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ
أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ❶٦
يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ❶٧
وَلَا تُصْعِقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ❶٨ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
وَإِغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ

الْحَمِيرِ ❶٩

آيات ثمان تختص بحكمة لقمان التي تلقاها من ربه ثم ألقاها الى ابنه ، تجمع من عظات الحكم جوامعها ولوامعها ، فيها الحكمة الحكيمة للعباد وجاه الله ، ووجه خلق الله أمراً لهم بالمعروف عند الله ، ونهيًا عن المنكر لدى الله ، وصبراً على ما أصاب في مسرح العبودية والدعوة إلى الله ، وقصدًا في المشي بين خلق الله .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ ١٢ .

« لقد » تأكيدان و « نا » الدالة على جمعية الصفات ثالثهما ، تؤكد هذه الثلاث الحكمة المؤتاة للقمان ، المختصرة في « ان اشكر الله » بياناً لهذه الحكمة الجامعة العالية ، وقد تكون هي حكمة الشكر وشكر الحكمة ، حيث الشكر هو وضع النعم مواضعها التي يرضاها المنعم .
والشكر مقابل الكفر يعم الإيمان بكل قضاياه ، كما الكفر يعم الكفران بكل رزاياه ، فهي - إذاً - حكمة فطرية وعقلية ونفسية في كل حقولها ، إضافة إلى حكمة عملية ، هما يقضيان على كافة التفسخات العارمة الذاهبة بالإنسان مذاهب الكفر والكفران .

واصل الحكمة هو « الفهم والعقل » (١) ولقد « كان رجلاً قوياً في امر الله ، متورعاً في الله ، ساكتاً مستكيناً ، عميق النظر ، طويل الفكر ، حديد النظر ، مستغن بالعبر . . . ويعتبر ويتعلم ما يغلب به على نفسه ، ويجاهد به هواه ، ويحترز به من الشيطان ، وكان يداوي قلبه بالفكر ، ويداوي نفسه بالعبر ، وكان لا يظعن إلا فيما يعنيه ، فبذلك أوتي الحكمة ، ومُنِح

(١) نور الثقلين ٤: ١٩٥ في اصول الكافي عن ابي الحسن موسى بن جعفر عليها السلام يا هشام ان الله قال : ولقد آتينا لقمان حكمة - قال : الفهم والعقل .

العصمة .. « (١) » كان عبداً كثير التفكير ، حسن الظن ، كثير الصمت ، أحب الله فأحبه الله تعالى فمن عليه بالحكمة ... فنام نومة فغط بالحكمة غطاً فانتبه فتكلم بها ... « (٢) » .

(١) المصدر تفسير القمي حدثني ابي عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود المتقري عن حماد قال سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عز وجل فقال : اما والله ما اوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال ولكنه كان رجلاً قوياً .. لم ينم نهاراً قط ولم يره احد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال لشدة تستره وعموق نظره وتحفظه في امره ولم يضحك من شيء قط مخافة الاثم ولم يغضب قط ولم يمازح إنساناً قط ولم يفرح بشيء اناه من امر الدنيا ولا حزن منها على شيء قط ...

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٦١ - اخرج الحكيم الترمذي في نواذر الاصول عن ابي مسلم الخولاني قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان لقمان كان عبداً .. نودي بالخلافة قبل داود (عليه السلام) فقبل له يا لقمان هل لك ان يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحق ؟ قال لقمان : ان اجبرني ربي عز وجل قبلت فباني اعلم ان فعل ذلك اعاني وعلمي وعصمني وان خيبت قبلت العافية ولم اسأل البلاء ، فقالت الملائكة يا لقمان لم ؟ قال : لان الحاكم باشد المنازل واكدرها يغشاه الظلم من كل مكان فيخذل او يعان فان اصاب فبالخرى ان ينجو وان اخطأ اخطأ طريق الجنة ومن يكون في الدنيا ذليلاً خير من ان يكون شريفاً ضائعاً ، ومن يختار الدنيا على الآخرة فاتته الدنيا ولا يصير إلى ملك الآخرة ، فعجبت الملائكة من حسن منطقته فنام ... ثم نودي داود (عليه السلام) بعده بالخلافة فقبلها لوم يشترط شرط لقمان فاهوى في الخطيئة فصنع الله عنه وتجاوز وكان لقمان يوازره بعلمه وحكمته فقال داود (عليه السلام) طوبى لك يا لقمان اوتيت الحكمة فصرفت عنك البلية وأوتي داود الخلافة فابتلي بالذنوب والفتنة .

اقول : لا بأس بهذا الحديث إلا في نسبة الذنب والخطيئة وعدم الحكمة إلى داود فانها من المختلقات الاسرائيلية . فان داود (عليه السلام) اوتي الحكمة كما اوتيتها لقمان : « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة علمه مما يشاء » (٢ : ٢٥١) « وشددنا ملكه

ولقد اتت « الحكمة » في الذكر الحكيم عشرين مرة ، هي في هذه المرة اليتيمة عطية ربانية للقمان ولم يكن من النبيين ، فقد أوتي الحكمة البالغة دون رسالة ، مما يدل على عظم موقفه تجاه الله ، ولم يكن إلا عبداً حبشياً فأصبح من سادات السودان (١) .

والشكر درجات ارفعها ان يعرف الشاكر النعمة ويعترف بعجزه عن اداء شكرها ، فـ « من انعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه فقد أدى شكرها » وقد « اوحى الله عز وجل الى موسى (عليه السلام) يا موسى اشكرني حق شكرى ، فقال : يا رب وكيف اشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت أنعمت به عليّ ؟ قال : يا موسى ! الآن شكرتني حين علمت أن ذلك مني » (٢) .

وكما الحكمة هي بين معرفة وعملية ، كذلك الشكر المفسر لها معرفي وعمل ، أن يخلق الشكر على الشاكر ككل ، فلا تبقى من حالاته وحالاته وفعالاته إلا ترسيمات لرضا الله

وآتياء الحكمة وفصل الخطاب « (٢٠: ٣٨) كما وان الحكمة هي من العطيات الربانية لكافة النبيين : « واذا اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ... » (٨١: ٣) وان قول لقمان للملائكة : فإني اعلم ان فعل ذلك اعانني وعلمني وعصمني ، دليل العصمة لمن أوتي الحكمة من النبيين .

(١) المصدر اخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن يزيد عن جابر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : سادات السودان اربعة لقمان الحبشي والنجاشي وبلال ومهجع وفيه قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اتخذوا السودان فان ثلاثة منهم سادات اهل الجنة لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٢٠١ - ح ٢١٠ عن ابي عبد الله (عليه السلام) .

﴿ وَإِذْ قَالَ لَقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣ ﴾ .

عظة لابقة لائقة من والد حكيم لولده ، بادئة بالسلب : « لا تشرك بالله » وخلفيته الإيجاب وهو توحيد الله ، فهي عبارة أخرى عن « لا إله إلا الله » تحقيقاً لها حقيقة بولد الحكيم وهو يعظه بحكمة الله التي آتاه . وليست مجرد عظة ، بل هي معللة بأقوى البراهين البينة « ان الشرك لظلم عظيم » ظلم يتبدء من الإنسان المشرك نفسه أن يعبد أكرم خلق الله خلقاً خسيساً كوثن أو صنم أو حيوان ، ام خلقاً مثله في الحاجة المحلقة على الخلق كله ، كملك او نبي او ولي وهم انفسهم يوحدون الله وينهون عن أن يُشرك بالله .

ثم ظلم للحق أن يسوّى بين الخالق والمخلوق ، ثم يفضل المخلوق على الخالق ، بأن يختص عبوديته للمخلوق ويترك الخالق ، وظلم في كافة الموازين والمقاييس ان يشرك بالله العظيم ، إذا فهو ظلم عظيم لا يساوى باي ظلم ، ولبعده في عظمه « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

ولأن عظة الوالد ولده غير متهمة إذ لا أراف منه به ، تُعرض في هذه الإذاعة القرآنية استئصالاً لكل ريبة تعتري الذاء المشركين زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أن ليس وراءها انتزاع سلطان منهم وتفضل عليهم .

لذلك نرى الآيتين التاليتين تأتيان كجملة معترضة بين عظات لقمان لابنه ، عرضاً لمدى حق الوالدين على الأولاد وفرضاً لطاعتها وشكرهما بعد شكر الله إلّا في الإشراف بالله ، فان هذا الظلم العظيم لا يقبل حلولاً حتى

بين أقرب الأقارب الوالدين والأولاد .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ ١٢ .

لقد فصلنا القول حول هذه الوصية بطيات آيات لها لا سيما آية الأسرى ، وهذه الآية هي اليتيمة في خصوص الأم حيث اختصت بذكرى اتعاب لها وأشغاب ليست للوالد مثلها ولها نظيرة في « وان جاهدك . . » (٢٩: ٨) .

« حملته امه وهناً على وهن » وهو الضعف الحمل لذلك الحمل ، وعلى الأول هو منذ الحمل حتى الوضع ، فانه كله ضعف مهما اختلفت مراحلها ، والثاني هو منذ الوضع حتى قيامه على ساقه ، والحد المتوسط هو العامين للرضاعة .

« وفصاله » عن الرضاعة ، وعن ثاني الوهنين « في عامين » وهما أكثر زمن للرضاعة ، وبما أن « حملته وفصاله ثلاثون شهراً » نتعرف إلى أقل الحمل وهو ستة أشهر ، و « في » هنا ظرفاً لـ « فصاله » تقرر أن انفصال الرضاعة هو ضمن عامين ، لا - فقط - في متهاهما ، بل خلالهما ، الباديء من بداية العام الثاني ، والحد المعتدل منه الشهر التاسع قضية الجمع بين « في عامين » و « ثلاثون شهراً » لمن يكون حمله تسعة أشهر ، فلا فصال - إذاً - قبلها إلا عند العسر أو الحرج ، فحق للولد أن يرتضع عامين إلا ثلاثة أشهر .

« ووصينا . . . ان اشكر لي ولوالديك » اشكر لي أن خلقتك وجعلت حبك في قلوبها لحد التضحية في صالحك صغيراً أو كبيراً ، واشكر « لوالديك » ان تحملا كل عبء في سبيل تحويل هذه الأمانة الربانية « والي المصير » فأسألك عن واجب الشكر لي ولها « فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله

تعالى « (١) فانهما منعمان عليك بعد الله » ومن لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عز وجل « (٢) والام بطبيعة الحال لها الحق الأوفر للعبء الأكثر .

الشكر للوالدين هنا هو الحسن والإحسان المأمور به في آيات أخرى بحققها ، ولا سيما الأم المتحملة في حمله أكثر من الوالد فلها حق أكثر منه : « واما حق امك فان تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحدٌ أحدًا ، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحدٌ أحدًا ، ووقتك بجميع جوارحها ولم تبال أن تجوع وتُطعمك وتعطش وتُسقيك وتعري وتكسوك وتضحى وتظلك وتهجر النوم لأجلك ووقتك الحر والبرد فانك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه ، واما حق أبيك فان تعلم أنه أصلك فانك لولاه لم تكن فمهما رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه فاحمد الله واشكره على قدر ذلك ولا قوة إلا بالله » (٣)

وقد « جاء رجل الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا رسول الله من أبر ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : امك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أباك » (٤) .
وعلى الأم تزيد عن الأب مرتين لوهنيها في حمل الولد .

(١) نور الثقلين عن العيون باسناده الى الرضا (عليه السلام) حديث طويل وفيه يقول : وامر بالشكر له وللوالدين فمن ..

(٢) المصدر باسناده الى محمود بن ابي البلاد قال سمعت الرضا (عليه السلام) يقول : ..

(٣) المصدر في الفقيه في الحقوق المروية عن زين العابدين (عليه السلام) ...

(٤) المصدر عن تفسير القمي عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال جاء رجل .. وفيه عنه قال جاء رجل وسأل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن بر الوالدين فقال : ابرر امك ابرر امك ابرر امك ، ابرر اباك ابرر اباك ابرر اباك وبدء بالأم قبل الأب .

وللوالدين تأويل انها الرسول وعلي صلى الله عليهما وآلهما فلاهما ابوا هذه الأمة ، وكذلك كل العلماء الربانيين ، فان حق الوالدية الروحية التربوية فوق الجسمية الولادية (١) .

ذلك ، وكما الله لا يُشكر حقه مهما بلغ الشكر مبلغه القمة ، كذلك الوالدان ، إلا ان يُعترف بالعجز عن أداء شكره . وشكرهما، وهو الحق الحقيقي بالأجر .

وقد يروى « ان رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها فسأل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هل أدبت حقها ؟ قال : لا ولا بزفرة واحدة » (٢) .

ذلك ، ولأن الأصل في حقوقهما هو الله الخالق لهما وإياكم منها ، الجاعل حبكم في قلوبهما ، الأمر بشكرهما ، فلا تنأحر - إذا - بين حق الله وحقوقها ، ولا حق لهما إلا في طول الخط من حق الله دون مشاققة ، فـ :

﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ ۝

(١) المصدر عن الكافي بسند متصل عن الأصبغ بن نباتة انه سأل امير المؤمنين (عليه السلام) عن قوله تعالى : ان اشكر لي ولوالديك اليّ المصير ؟ فقال : الوالدان اللذان اوجب الله لهما الشكر هما اللذان ولدا العلم وورثا الحكم وامر الناس بطاعتها ثم قال الله : « الي المصير » فمصير العباد الى الله والدليل على ذلك الولدان ثم عطف القول على ابن حنتمة وصاحبه فقال في الخاص والعام « وان جاهداك على ان تشرك بي » تقول في الوصية وتعديل عمن امرت بطاعته « فلا تطعهما » ولا تسمع قولهما ثم عطف القول على الوالدين فقال : « وصاحبهما في الدنيا معروفاً » يقول : عرف الناس فضلها وادع الى سبيلها وذلك قوله « واتبع سبيل من اناب الي ثم الي مرجعكم » فقال : الى الله ثم الينا فانقروا الله ولا تعصوا الوالدين فان رضاهما رضا الله وسخطهما سخط الله .

(٢) رواه الحافظ ابو بكر البزاز في مسنده باسناده عن بريد عن ابيه ان رجلاً . .

وَصَاحِبَيْهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ .

« وان جاهدك » جهدهما في جحدهما توحيد الله ، وقدر ما كل جهودهما « على ان تشرك بي ما ليس لك به علم » وبطبيعة الحال ليس لأي إنسان علم بشريك لله « فلا تطعهما » - فقط - في حقن الضلال ، واما العشرة الحوية الدنيوية ، غير المناهرة لتوحيد الله فهـ صاحبهما في الدنيا معروفاً « كما كنت ، فهـ بر الوالدين واجب وان كانا مشركين ولا طاعة لهما في معصية الله ولا لغيرهما فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » (١) وليس يختص « فلا تطعهما » في الاشراك بالله كعبادة وثن ، بل في معصية الله ككل ، بل وكل معصية لله اشراك بالله ، فانه واحد في ان يطاع كما هو واحد بسائر شئون الألوهية والربوبية ، لا شريك له على أية حال وفي كافة حقول المعرفة والعبودية والطاعة ، مهما اختلفت دركات الإشراك به كما تختلف درجات توحيدة (٢) ..

مركز تحقيق كتاب توحيد علوم إسلامي

(١) نور الثقلين ٤: ٢٠٣ عن العيون في باب ما كتبه الرضا (عليه السلام) للمأمون من محض الاسلام وشرايع الدين : ... وفيه (٢٠٤) محاسن البرقي باسناده عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث طويل وفيه يقول : اطيعوا آباءكم فيما امرؤكم ولا تطيعوهم في معاصي الله .

(٢) وفي المناقب مـ الحسين بن علي عليهما السلام على عبد الرحمن بن عمرو بن العباس فقال عبد الله : من أحب ان ينظر إلى أحب اهل الأرض إلى السماء فليُنظر إلى هذا المجتاز وما كلمته منذ ليالي صفين ، فأتى به ابو سعيد الخدري إلى الحسين (عليه السلام) فقال له الحسين (عليه السلام) اتعلم اني أحب اهل الأرض إلى اهل السماء وتقاتلني وابي يوم صفين ؟ والله ان ابي لخير مني ، فاستعذر وقال : ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لي : اطع اباك فقال له الحسين (عليه السلام) اما سمعت قول الله عز وجل : وان جاهدك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وقال رسول الله (صلى الله

اجل وان « بر الوالدين من حسن معرفة العبد بالله ، إذ لا عبادة أسرع بلوغاً بصاحبها الى رضا الله تعالى من حرمة الوالدين المسلمين لوجه الله ، لأن حق الوالدين مشتق من حق الله تعالى إذا كانا على منهاج الدين والسنة ، ولا يكونان بمنعان الولد من طاعة الله تعالى الى معصيته ، ومن اليقين الى الشك ، ومن الزهد الى الدنيا ، ولا يدعوانه الى خلاف ذلك ، فإذا كانا كذلك فمعصيتهما طاعة وطاعتها معصية قال الله « وان جاهدك . . » واما في باب العشرة فدارهما واحتمل أذاهما نحو ما احتملا عليك في حال صغرك ولا تضيق عليهما بما قد وسع الله عليك من الحال والجلوس ولا تحول بوجهك عنها ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما فان تعظيمهما من الله تعالى وقل لهما بأحسن القول والطفه فان الله لا يضيع اجر المحسنين » (١) .

فعلى آية حال « صاحبها في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب الى « والدين وغيرهما ، ولا تتبع سبيل من صدّ عني والدين وغيرهما فان « إلي مرجعكم » لا إلى سواي « فأنبئكم بما كنتم تعملون » وجاء الله وخلقه .

﴿ يَا بَنِي إِثْنَا إِنَّ تَكْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ ١٦ .

« إنها » تعني أن الطاعة في الإشراف بالله وان كانت للوالدين ، مما تلمح ان الوصية بالوالدين كما هنا هي من نصائح لقمان ، مهما كانت هنا كجملة معترضة بين وصاياه ، وما أجمله ترتيباً رتيباً في أسلوب البيان ! وهذه الآية إنذار صارم عن الطاعة في الإشراف بالله ، فضلاً عنها مستقلة لغير الله ، فالإشراف على آية حال مسئول عنه ، قصوراً أو تقصيراً ،

عليه وآله وسلم) : انما الطاعة بالمعروف ، وقوله : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٠٢ عن مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) :

تقليداً وسواه .

ثم « مثقال حبة من خردل » تصوير عن أدنى الشرك و « فتكن في صخرة » عن أخفاه ثم « أو في السماوات أو في الأرض » عن أبعده ، وذلك مثلث من صغار الشرك في أبعاده ، فضلاً عن كباره في كل أبعاده فـ« اتقوا المحقرات من الذنوب فان لها طالباً ، لا يقولن أحدكم أذنب وأستغفر الله إن الله يقول « إن تك مثقال حبة من خردل . . » (١) .

و « يأت بها الله » تصريح بين نظائرها أن الإشراك بالله سراً وإعلاناً مما يؤق به بنفسه يوم القيامة : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » (٣٠: ٣) حيث تعم عمل القلب والقلب والسر والعلن : « ان الله لطيف خبير » لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض » (٣: ٣٤) .

وما أتمها أداءً وأجلها إيقاعاً تصويراً عن الطاعة صالحة وطالحة به « حبة من خردل » صغيرة كأصغر ما كان يعرفه الإنسان « فتكن في صخرة » صلبة لا سبيل إليها كالعادة « أو في السماوات » في خضم الأجواء الشاسعة التي يبدو فيها النجم الكبير نقطة سابعة ام لا تبدو ولو بالعيون المسلحة « أو في الأرض » ضائعة في أعماقها ، ومع كل ذلك الخفاء « يأت بها الله » دونما انفلات عن علم الله وقدرته .

(١) المصدر روى العياشي بالاسناد عن ابن مسكان عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : اتقوا . . . « اقول : يأت بها الله قطعي بالنسبة لمن مات مشركاً ، ثم من مات مذنباً دون توبة ولا شفاعة ، فالمعاصي المكفرة لا يأتي بها الله فان التائب عن الذنب كمن لا ذنب له .

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ ١٢ .

أوامر أربعة تتبني شخصية المؤمن كشخص أولاً وكداعية ثانياً ، وصموداً في كلا البعدين ، فـ « اقم الصلاة » هي في الحق إقامة لكافة الصلوات المعرفية الايمانية والعملية بالله ، ثم « وأمر بالمعروف » تشمل الدعوة إلى كافة الخيرات الفردية والجماعية ، كما « وانه عن المنكر » نعم كافة المنكرات .

ولأن إقام الصلاة بحققها ، ثم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تحول دونها عراقيل وصدمات ، لذلك « واصبر على ما أصابك » في صالح الإيمان وعمله ، دون تزعزع عن قواعده ، ولا تلجع وانكسار في سواعده « إن ذلك » التكليف الصارم والصبر على تحقيقه « من عزم الأمور » .

وإذا كان الصبر على المصائب في فرائض الإيمان من عزم الأمور ، فليس الأمن عن الضرر من شروط الجواز أو الوجوب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلا إذا كان الضرر فيه أهم من الضرر في تركه فمفروض ، أم يتكافأ فغير مفروض .

فالضابطة العامة في هذين الفرضين فرض الصبر على ما أصابك إلا فيما يستثنى بأهمية أم مكافئة ، وكما الدفاع والقتال في سبيل الله لا يشترط في وجوبها الأمن عن الضرر كضابطة ، كذلك وبأحرى ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهما أقل تعرضاً للضرر (١) .

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٠٥ عن الخصال فيما علم أمير المؤمنين (عليه السلام) أصحابه من الأربعمئة باب اثمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر واصبروا على ما أصابكم ، وفيه عن اصول الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : الجنة محفوفة بالمكاره والصبر فمن صبر

﴿ وَلَا تَصْغُرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾^{١٨}.

من مظاهر الإختيال والفخر تصغير الخد للناس ، والمشي في الأرض مرحاً ، وتصغير الخد للناس هو إمالة العنق عن النظر إليهم استكباراً ، كأنهم لا شيء وهو فقط كل شيء ، فإن الصعر داء يصيب الابل فيلوي أعناقها ، والمرح هو كثرة الفرح بمال او منال : « ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » (٣٧: ١٧)^(١) وهذا المشي الرديء هو المشي في تخايل ونفخة وقلة مبالاة بالناس ، وقد يعني تصغير الخد للناس لي العنق لهم تذلاً واستكانة ، ام هما معنيان حيث يحملهما تصغير الخد ، فان لي العنق وإمالة قد يعني الإختيال ، واخرى الإذلال وكلاهما منهيان .

و « لا يحب » من الله يعني البغض ، إذ لا تخفى عليه خافية حبيبة أو بغیضة ، فإذا لا يحب فهو - إذا - يبغض ، وقد يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : « من مشى على الأرض اختيلاً لعنته الأرض ومن تحتها ومن فوقها »^(٢) .

عل المكاره في الدنيا دخل الجنة وجهنم محفوفة باللذات والشهوات فمن اعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار ، وفيه عن المجمع عن علي (عليه السلام) « واصبر على ما اصابك من المشقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

(١) المصدر في المجمع عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية لا تميل وجهك من الناس بكل ولا تعرض عمن يكلمك استخفافاً به .

(٢) المصدر في كتاب ثواب الأعمال باسناده الى ابن فضال عمن حدثه عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : وفيه عنه قال ابو جعفر (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويل لمن يختال في الأرض معارض جبار السماوات والأرض .

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾^(١).

القصد في المشي هو الاعتدال في المشي والمشية الحيوية وتمشية الأمور ،
مجانباً حد الإفراط والتفريط فان خير الأمور أوسطها ، فالمشية القاصدة الى
الأهداف الصالحة بكل بساطة وانطلاق هي التي توصل اليها دون تلكؤ
وانحياق ، فـ «سرعة المشي يذهب بيهاء المؤمن»^(١) ومن القصد في المشي
- ككل - هو المشي القاصد الحق على أية حال ، وهو الاعتدال العدل في
مشي الإنسان كإنسان^(٢) .

ومن القصد في المشي في انطلاقته الغض من الصوت دون رفع صارخ
ولا خفض هامس ، والمنكر بينهما هو الصارخ فوق الحاجة إلا إذ اقتضت
الضرورة، أم فيه رجاجة كأن يكون داعياً أو يقرأ القرآن^(٣) فليس القصد من
الصوت في كلام وسواه إلا تفهيم المخاطب ، فليكم قدر الحاجة من سماعه
لا زائداً ولا ناقصاً ، فالناقص حماقة والزائد حماقة أخرى بل هي احمق فـ «ان
انكر الأصوات لصوت الحمير» .

-
- (١) نور الثقلين ٤ : ٢٠٨ في كتاب الخصال عن أبي الحسن (عليه السلام) قال : ...
(٢) عن الكافي أبو عمر والزبير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث : ان الله
تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها وفرض على
الرجلين ان لا يمشي بهما الى شيء من معاصي الله وفرض عليهما المشي الى ما يرضى الله
عز وجل فقال : ولا تمش في الأرض مرحاً انك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طويلاً -
وقال : واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان انكر الأصوات لصوت الحمير .
(٣) المصدر عن المجمع وروي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : هي
العطسة المرتفعة القبيحة والرجل يرفع صوته بالحديث رفعاً فييحاً إلا ان يكون داعياً أو
يقرأ القرآن .

فالفرض من الصوت أدب صارح ، ورفع سوء أدب قارح ، إساءة إلى صاحبه كأن لا يحسب صوته صوتاً ، وإلى مخاطبه كان يحسبه أصم أو لا يفهم ، فلذلك يشبه بصوت الحمير في كونه أنكر الأصوات ، ولكن أين حمير من حمير ، الحيوان تعلي صوته قصوراً بلانية سوء ، وحمير الإنسان تعلي تقصيراً وبنية سوء ، أم قصوراً عن تقصير مهمل لم ينو سوء .
ومن الغرض من الصوت - بل هو أهمه - غرضه عما لا يحل ، أن يربط الإنسان لسانه عما لا يعنيه ، فيجعل لسانه وراء قلبه ، دون أن يجعل قلبه وراء لسانه .

هذه عظات غرة ، سلبية وإيجابية ، فردية وجماعية ، تأتي في القرآن من لقمان (عليه السلام) كأصول عظاته لابنه وسواه ، وقد يروى عنه عظات أخرى نذكر قسماً منها هنا كما يناسب الفرقان :

« قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان لقمان قال لابنه يا بني عليك بمجالس العلماء واستمع كلام الحكماء فان الله يحبي القلب الميت بنور الحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر » (١) .

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) عنه (عليه السلام) كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه » (٢) .

وقال (عليه السلام) لابنه يا بني لا تكونن اعجز من هذا الديك الذي يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك » (٣) .

(١) الدر المنثور ٥: ١٦٢ - اخرج الطبراني والرامهرمزي في الأمثال عن أبي امامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

(٢) المصدر اخرج احمد والحكيم الترمذي والحاكم في الكنى والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) . . .

(٣) المصدر اخرج البيهقي عن الحسن ان لقمان (عليه السلام) قال لابنه . . .

وقيل للقمان : ما الذي أجمعت عليه من حكمتك ؟ قال : « لا
 انكلف ما قد كُفيتَه ولا أضيع ما وُلِّيتَه » (١)
 « فوعظ لقمان ابنه بأثار حتى تَفْطَرَة وانشق وكان فيها وعظه به أن
 قال : يا بني إنك منذ سقطت الى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة فدارُ
 أنت إليها تسير أقرب إليك من دار أنت عنها متباعد ، يا بني جالس العلماء
 وزاحمهم بركبتيك ، ولا تجادلهم فيمنعوك ، وخذ من الدنيا بلاغاً ولا
 ترفضها فتكون عيالاً على الناس ، ولا تدخل فيها دخولاً يضر بآخرتك ،
 وصم صوماً يقطع شهوتك ولا تصم صياماً يمنعك من الصلاة فان الصلاة
 أحب الى الله من الصيام ، يا بني ان الدنيا بحر عميق قد هلك فيها عالم
 كثير ، فاجعل سفينتك فيها الايمان ، واجعل شراعها التوكل ، واجعل زادك
 فيها تقوى الله ، فان نجوت فبرحة الله وإن هلكت فبذنوبك ، يا بني إن
 تأدبت صغيراً إنتفعت به كثيراً ، ومن عنى بالأدب اهتم به ومن اهتم به
 تكلف علمه ، ومن تكلف علمه اشتد له طلبه ، ومن اشتد طلبه أدرك
 منفعتَه ، فاتخذهُ عادة فانك تخلف في سلفك ، وينتفع به من خلفك ،
 ويرنجيك فيه راغب ، ويخشى صولتك راهب ، واياك والكسل عنه بالطلب
 لغيره ، فان غلبت على الدنيا فلا تغلبن على الآخرة ، وإذا فاتك طلب العلم
 في مظانه فقد غلبت على الآخرة ، واجعل في ايامك ولياليك وساعاتك نصيباً
 في العلم فانك لن تجد له تضييعاً أشد من تركه ، ولا تمارين فيه لجوجاً ، ولا
 تجادلن فقيهاً ، ولا تعادين سلطاناً ، ولا تماشين ظلوماً ولا تصادقنه ، ولا
 تصاحبن فاسقاً ناطقاً ، ولا تصاحبن متهماً ، واخزن علمك كما تخزن
 ورقك .

(١) قرب الاسناد هارون بن صدقة عن جعفر عن ابيه عليهما السلام قيل
 للقمان : ...

يا بني خف الله عز وجل خوفاً لو أتيت القيامة ببر الثقلين خفت أن يعذبك ، وارج الله رجاءً لو وافيت القيامة بآثم الثقلين رجوت أن يغفر الله لك ، فقال له ابنه : يا أبت كيف اطيق هذا وإنما لي قلب واحد ؟ فقال له لقمان : يا بني لو استخرج قلب المؤمن يوجد فيه نوران نور للخوف ونور للرجاء لو وُزنا لما رجح أحدهما على الآخر بمشقال ذرة ، فمن يؤمن بالله يصدق ما قال الله عز وجل ، ومن يصدق ما قال الله يفعل ما أمر الله ، ومن لم يفعل ما أمر الله لم يصدق ما قال الله فإن هذه الأخلاق يشهد بعضها لبعض ، فمن يؤمن بالله إيماناً صادقاً يعمل لله خالصاً ناصحاً فقد آمن بالله صادقاً ، ومن أطاع الله خافه ، ومن خافه فقد أحبه ، ومن أحبه فقد اتبع أمره ، ومن اتبع أمره استوجب جنته ومرضاته ، ومن لم يتبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه ، نعوذ بالله من سخطه ، يا بني لا تركز إلى الدنيا ولا تشغل قلبك بها فما خلق الله خلقاً هو أهون عليه منها ، ألا ترى أنه لم يجعل نعيمها ثواب المطيعين ، ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين « (١) » .

وقال يا بني : إن تك في شك من الموت فارفع عن نفسك النوم ولن تستطيع ذلك ، وإن كنت في شك من البعث فارفع عن نفسك الإنباه ولن تستطيع ذلك فإنك إذا فكرت في هذا علمت أن نفسك بيد غيرك ، وإنما النوم بمنزلة الموت وإنما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت .

(١) نور الثقلين ٤ : ١٩٨ عن تفسير القمي حدثني أبي عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود المنقري عن حماد قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عز وجل ؟ فقال : - ذكرنا الشطر الأول من كلامه بداية البحث عن عظات لقمان - ثم قال أبو عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل « وإذ قال لقمان ... » قال : فوعظ ...

وقال : يا بني لا تقترب فيكون ابعد لك ولا تبعد فتهان ، كل دابة تحب مثلها وابن آدم لا يحب مثله ، لا تنشر برك إلا عند باغيه وكما ليس بين الكبش والذئب خلة كذلك ليس بين البار والفاجر خلة ، من يقترب من الزفت تعلق به بعضه كذلك من يشارك الفاجر يتعلم من طريقه ، من يحب المرء يُشتم ، من يدخل مدخل السوء يُتهم ، ومن يقارن قرين السوء لا يسلم ، ومن لا يملك لسانه يندم .

وقال يا بني صاحب مائة ولا تعاد واحداً ، يا بني إنما هو خلقتك وخلقتك ، فخلقتك دينك وخلقتك بينك وبين الناس فلا تبغضن اليهم وتعلم محاسن الأخلاق .

يا بني كن عبداً للأخيار ولا تكن ولداً للأشرار ، يا بني أد الأمانة تسلم دنياك وآخرتك وكن أميناً فان الله لا يحب الخائنين ، يا بني لا تُر الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر ^(١)

وقال : « يا بني إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من جمعوا له وإنما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل ووعدت عليه أجراً فأوف عملك واستوف أجرك ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سميت فكان حنظلها عند سمنها ، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها فتركها ولم ترجع اليها آخر الدهر ، أخربها ولا تعمرها فانك لم تؤمر بعمارها ، واعلم انك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عز وجل عن أربع : شبابك فيما أبليت ، وعمرك فيما أفنيت ، ومالك مما اكتسبته وفيما انفقته ، فتأهب لذلك وأعد له جواباً

(١) البحار عن قصص الأنبياء بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليها السلام قال : وكان فيها وعظ به لقمان ابنه ان قال : . . .

ولا تأس على ما فاتك من الدنيا فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاءه ، وكثيرها لا يؤمن بلاءه ، فخذ حذرَكَ وجدَّ في امرِكَ ، واكشف الغطاء عن وجهك ، وتعرض لمعروف ربك ، وجدّد التوبة في قلبك ، واكتمش في فراقك قبل أن يقصد قصدك ، ويقضى قضاءك ، ويحال بينك وبين ما تريد » (١) .

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا
كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا
بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ
يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ * وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ
إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى
اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ

(١) في الكافي بإسناده عن يحيى بن عتبة الأزدي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال :
كان فيها وعظ به لقمان لابنه : . . .

الصُّدُورِ ②٤ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ
 غَلِيظٍ ②٥ وَلَٰئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ
 لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ②٦
 لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ
 الْحَمِيدُ ②٧ وَلَوْ أُنْمِئَتْ فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ
 بَمِلْءٍ مِّن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
 عَزِيزٌ حَكِيمٌ ②٨ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنْفُسٍ
 وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ②٩ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ
 فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتَخَّرَّ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ
 يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ③٠
 ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطِلُ
 وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ③١ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي
 فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ ءَايَتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ③٢ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظَّلَالِ

دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَا تَنجِبُهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَهُمْ
مُقْتَصِدُونَ وَمَا يَجْعَدُ يَغَايِتُنَا إِلَّا كُلُّ لَحْنٍ كَفُورٍ ﴿٢٢﴾ يَنَائِيهَا
النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدُ عَنْ وَلَدِهِ
وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا
تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٢٣﴾ إِنَّ اللَّهَ
عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ
أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٤﴾

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ ٢٠ .

« ألم تروا » خطاب التنبيه لكل راءٍ من المكلفين من الجنة والناس أمن سواهما أجمعين ، ولا دليل على اختصاصه بالمشركين لمكان إطلاق العموم وعموم الإطلاق ، ثم « ومن الناس » حيث تستثني جماعة من هؤلاء تؤكد واقع العموم .

« ان الله سخر لكم . . » لفظة مكرورة في الذكر الحكيم ، ذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد ، ورغم تكرارها هنا وهناك

بمختلف المناسبات ترى جديدة في كل مرة ، جادة نحو تذكير الإنسان
النسيان .

و « كم » هنا كما في « تروا » هم كافة المكلفين - وعلمهم - في كل
الأرضين ، دون هذه فحسب ، والتسخير له تعني لمسة من الملكية وشطرة من
الغاية المعنوية للمخلوق كله ، مما يقرر لنا إمكانية الإنتفاع من الكون كله ، مما في
السموات وما في الأرض كله .

وهذه الآية لا نظيرة لها بهذه الشمولية إلا ما في الجاثية : « وسخر لكم
ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ان في ذلك لآيات لقوم
يتفكرون » (١٣) (١) .

لا تعني « لكم » ان الله جعلنا مسخرين للكائنات ، وإنما « سخر
لكم » بتسبيل السبل العقلية والعلمية كفاعليات ، والسبل القانونية الكونية
كقابليات ، حتى تتمكن من مختلف الإنتفاعات مما في الأرض وما في
السموات ، مهما اختص قسم منها بخوارق العادات الخاصة برسل الله ومن
اليهم ، ثم :

« وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » والإسباغ هو التوفير والإتمام ،
فلا تفريط من ربنا فيما انعم علينا من نعمه مهما فرطنا نحن في جنبه !
ثم « ظاهرة وباطنه » حالان من « نعمه » والنعم الظاهرة ككل هي
المادية المادية بمحاولة ودون محاولة ، فالباطنة - إذاً - هي الروحية من فطرية
وعقلية وفكرة وشرعة ربانية .

ثم ومن الظاهرة « ما سوى من خلقتك وأما الباطنة فما ستر من عورتك

(١) راجع تفسير الآية في الجاثية من الفرقان بغنيك عما نختصره هنا .

ولو أبدأها لقلاك أهلك (١) مهما كانتا من الظاهرة في التقسيم الشامل .
 كما الإسلام وهو من الباطنة هو من النعم الظاهرة إذ هو ظاهر لكل من
 يتحرى عنه كما من الباطنة ما ستر من مساوي عملك » (٢)
 ومن الباطنة الظاهرة ما هي ظاهرة لكل المسلمين كـ النبي وما جاء به
 من معرفة الله عز وجل وتوحيده ، ومنها ما هي غير ظاهر لكل كولاية أهل
 البيت عليهم السلام (٣) .

ثم ومن الولاية نفسها ما هي ظاهرة كالإمام الظاهر ، وما هي باطنة

(١) الدر المنثور ٥: ١٦٧ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عطاء قال سألت ابن عباس عن الآية قال هذه من كنوز علي قال سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : اما الظاهرة فما سوى ... »

(٢) المصدر أخرج ابن مردويه والبيهقي والديلمي وابن النجار عن ابن عباس قال سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الآية قال : اما الظاهرة فالإسلام وما سوى من خلقت وما أسبغ عليك من رزقه واما الباطنة فما ستر من مساوي عملك يا ابن عباس ان الله تعالى يقول ثلاث جعلتهن للمؤمن صلاة المؤمنين عليه من بعده وجعلت له ثلث ماله اكفر عنه من خطاياهم وسترته عليه من مساوي عمله فلم افضح به شيء منها ولو ابديتها لنبذ أهله فمن سواهم .

(٣) نور الثقلين ٤: ٢١٢ في تفسير القمي بسند متصل عن جابر قال : قال رجل عند أبي جعفر عليهما السلام : « واسبغ عليكم ... » قال : اما النعمة الظاهرة فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وما جاء به من معرفة الله عز وجل وتوحيده ، واما النعمة الباطنة فولایتنا أهل البيت وعقد مودتنا فاعتقد والله قوم هذه النعمة الظاهرة والباطنة ، واعتقدوها قوم ظاهرة ولم يعتقدوها باطنة فانزل الله « يا ايها الرسول لا يخزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا باضواهم ولم تؤمن قلوبهم » ففرح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عند نزولها انه لم يقبل الله تبارك وتعالى إيمانهم إلا بعقد ولايتنا ومحبتنا .

كالإمام الغائب (١) وعلى أية حال فالظهور والبطون هما من الأمور النسبية وهذه تفاسير بمصاديق من النعم الظاهرة والباطنة ، والتفسير بالمفهوم هو كالأول ، كل ما ظهر لكل ناظر هو الظاهرة ، وكل ما هو غير ذلك هو الباطنة ، ولكن الثانية ليست بالتي لا تظهر ام لا تعرف مهما لم تظهر ، ونعم الله ظاهرة وباطنة لا تحصى (٢) « ومن الناس » وهم النسناس منهم « من

(١) المصدر محمد بن مسلم وحماد بن زياد عن الكاظم (عليه السلام) قال : الظاهرة الامام الظاهر والباطنة الامام الغائب .

(٢) نور الثقلين ٤: ٢١٣ في امالي الطوسي باسناده الى أبي جعفر عليهما السلام قال : حدثني عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله الأنصاري قالوا اتينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في مسجده في رهط من اصحابه فيهم ابو بكر وابو عبيدة وعمر وعثمان وعبد الرحمن ورجلان من قراء الصحابة - الى قوله حاكياً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : وقد أوحى الي ربي جل وتعالى ان اذكركم بالنعمة وانذركم بما اقتص عليكم من كتابه وامل « واسبغ عليكم نعمة ... » ثم قال لهم : قولوا الآن قولكم ما أول نعمة رغبتكم الله وبلاكم بها ؟ فخاض القوم جميعاً فذكروا نعم الله التي انعم عليهم وأحسن اليهم بها من المعاش والرياش والذرية والأزواج الى سائر ما بلاهم الله عز وجل من انعمه الظاهرة فلما امسك القوم اقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (على علي (عليه السلام) فقال يا ابا الحسن قل فقد قال اصحابك ، فقال : وكيف بالقول فذاك اب وامي وانما هو انا الله بك ؟ قال : ومع ذلك فهات قل ما أول نعمة ابلاك الله عز وجل وانعم عليك بها ؟ قال : ان خلقتني جل ثنائه ولم اك شيئاً مذكوراً ، قال : صدقت فما الثانية ؟ قال : أحسن بي إذ خلقتني فجعلني حياً لا مواتاً ، قال : صدقت فما الثالثة ؟ قال : أن انشأني فله الحمد في احسن صورة واعدل تركيب ، قال : صدقت فما الرابعة ؟ قال : ان جعلني متفكراً راعياً لا بلهاً ساهياً ، قال : صدقت فما الخامسة ؟ قال : ان جعل لي شواعر أدرك ما ابتغيت بها وجعل لي سراجاً منيراً ، قال : صدقت فما السادسة ؟ قال : ان هداني الله لدينه ولم يضلني عن سبيله ، قال : صدقت فما السابعة ؟ قال : ان جعل لي مردأ في حياة لا انقطاع لها ، قال : صدقت - الى قوله - ان سخر لي سيئاته واراضه وما فيها

يجادل في الله « جدالاً سيئاً نكراناً له أم إشرافاً به أو إنكاراً لوجيه واليوم الآخر « بغير علم » فطري أو عقلي أو تجريبي أماذا من علم ذاتي « ولا هدى » رسالية أماهيه كحجة ربانية من المكتسب أم واخيراً ، « ولا كتاب منير » وهو كتاب الوحي الذي ينير الدرب على السالكين إلى الله إسباجاً لسائر الحجج آفاقية وانفسية ، وقد فصلناها في آية الحجج : « ومن الناس ... منير » (٨) .

وهذا هو الجدال بالتي هي أسوء ألا يملك أية برهنة ذاتية أو كسبية إلا تعنتاً على الحق وتعنداً للحق :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ ٢١ .

« ما انزل الله » حيث يصاحبه علم وهدى وكتاب منير متروك عندهم إلى « ما وجدنا عليه آباءنا » الذي لا يحمل أية حجة إلا التقليد الأعمى « أو لو كان الشيطان يدعوهم » هؤلاء الآباء وإياهم « إلى عذاب السعير » فان أخطر الوسائل الشيطانية وأشرها هو الحمل على تقليد الآباء القدامى - فقط - بحجة انهم آباء ، والمقلد الأول في هذه السلسلة هو الشيطان الداعي إلى عذاب السعير ، لمسة موعظة موقظة مخيفة ، بعد تلکم الأدلة العظيمة اللطيفة ، تأخذ بازمة القلوب غير المقلوبة ، قارعة للقلوب المقلوبة ، حيث

وما بينهما من خلقه ... قال (صلى الله عليه وآله وسلم) فما بعدها ؟ قال : كثرت نعم الله يا نبي الله فطابت « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » فتبسم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال ليهنئك الحكمة ليهنئك العلم يا ابا الحسن فانت وارث علمي والمبين لأمتي ما اختلفت فيه من بعدي من احبك لدينك واخذ بسبيلك فهو من هدي الى صراط مستقيم ومن رغب عن هوائك وابغضك وتحلاك لقي الله يوم القيامة لا خلاق له ... » .

يجادل أصحابها في الله دون أي سناد إلى علم أو هدى أو كتاب منير من الله .

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ ٢٢ .

« ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً . . » (٤: ١٢٥) « بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢: ١١٢) .

هذه واضرابها تحمل الإسلام المطلق أو اسلام الوجه لله ، وآيتنا « يسلم وجهه إلى الله » مما يجعلها يتيمة في آيات الإسلام ، وقد يكون إسلام الوجه إلى الله كتقدمة لإسلام الوجه لله .

واشمل الوجه هنا للوجه المسلم إلى الله هو وجه الفطرة والعقل والعلم فانه الدين القيم كما في آية الفطرة ، فلما اسلم وجهه إلى الله هكذا يسلم وجهه لله بوجه الشرعة الربانية ، وكل ذلك مصحوباً بالإحسان « وهو محسن » في إسلام وجهه ، تزويداً لإسلامه في وجوهه المعرفية بالوجوه العلمية « فقد استمسك بالعروة الوثقى » في هذا السبيل « وإلى الله عاقبة الأمور » هنا ويوم يقوم الأشهاد .

فحذار حذار ، إن الرحلة شاقة وطويلة ، حافلة بالشبكات والأخطار ، ولا زاد فيه إلا اسلام الوجه لله ، ولا راحة إلا الإحسان في الله ، وليعرف السالك إلى الله أن خطر الوجدان ليس أقل من خطر الحرمان ، وخطر السراء ليس بأهون من خطر الضراء .

﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ٢٣ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿ ٢٤ ﴾ .
ولماذا « لا يحزنك كفره » ؟ أتأسفاً عليه ؟ وقد أدبت ما عليك

فكذبوك ! أم زعم أنهم سابقونا ؟ فـ « الينا مرجعهم » لا مفلت لهم عنا حين يرجعون « فننبئهم » إنباء الإخبار علمياً وواقعياً لما يرون العذاب « بما عملوا ان الله عليهم بذات الصدور » لا يعزب عنه مثقال ذرة ! .

« نمتهم » هنا « قليلاً » وكل مُتَع الدنيا قليلة مهما كانت كثيرة غزيرة « ثم نضطرهم » بما عملوا « إلى عذاب غليظ » هو في الحق أعمالهم أنفسهم .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٢٥ .

« هم » المستول عنهم هنا هم المشركون المعترفون أن الله هو خالق السماوات والأرض ، فـ « قل الحمد » كله لله الذي يعترف بتوحيد خالقيته المشركون و « الحمد لله » الذي يملك كافة البراهين آفاقية وانفسية على توحيده و « الحمد لله » على وضوح الحق للحق المتعالي عن كل شائبة وشائكة .

« بل » هم يخالفون اعترافهم هذا بما يشركون ، فقليل منهم يعلمون الحق وهم منكرون و « اكثرهم لا يعلمون » جهلاً عن تقصير في تقاليد آباءهم وكبرائهم ، فالكل - إذا - مقصرون ، حيث الإشراك بالله في العبودية مع الاعتراف بتوحيد الخالقية مما لا يقبل القصور المطلق .

﴿ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ٢٦ .

« الله » لا سواء ملكاً وملكاً ، علماً وقدرة ، بداية ونهاية وعلى أية حال كل « ما في السماوات والأرض » لأنه الخالق لهما دون سواء ، وله ان الله هو الغني الحميد « غني في ان « الله ... » « حميد » في هذه السلطة الملكية والمالكية .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ

أَبْخَرُ مَا نَفَذَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ .

« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » (١٨ : ١٠٩) .

لقد تحدثنا عن الثانية في الأسرى بما قد يكفي تفسيراً للأولى وفيها زيادة عنها كالصريح بأقلام شجرة الأرض ، وسبعة أبحر إضافة إلى البحر ، والثانية خلّو عنهما إلّا ضعف البحر وهنا أربعة اضعاف ، مما يؤكد لنا انها يمثلان الكثرة الكثيرة من الماء المداد ، ولم يذكر فيها كاتب للكلمات ، وعله اشارة إلى انه يخلق على الجنة والناس اجمعين ان لو كانوا كلهم كاتبين وبأية سرعة ممكنة .

وكما لم يذكر فيها الأوراق المكتوب عليها ، لمحة إلى كل بساط الأرض بكل ما يمكن ان يكتب عليه ، مهما كانت رثوس الأقلام كأدقها ، فالكلمات كأنعمها وأرقها .

ففي ذلك المربع ذي الزوايا الشاسعة الشاملة كلها بالإمكان كونه مواداً من البحر الحبر وزيادة ، وأقلاماً وكاتبين ومكتوباً عليه ، يقول الله « ما نفذت كلمات الله » وهناك « لنفذ البحر قبل ان تنفذ كلمات ربي » .

وبالنظر إلى كل قلم في مدى امكانية الكتابة به ، وكل كاتب كما يمكن ان يكتب ، وكل مكتوب عليه من أجزاء الأرض وبسيطها ، ومداد الأبحر الثمانية ، نعرف سعة كلمات الله حيث لا تنفذ بهذه الكتابات !

في حين نعلم ان ليطراً واحداً من الحبر قد يكتب به بقلم واحد وكاتب واحد وكراسات عدة في خمسين سنة ملايين الكلمات التي تشكل مكتبة ضخمة ، فضلاً عن ذلك المربع الشاسع الواسع !

انه ينفذ حبر البحار وأقلام الأشجار وأعمار الكتاب بكتاباتهم « قبل ان تنفذ كلمات ربي » و « ما نفذت كلمات الله ان الله عزيز حكيم » .

وقد تعني الزيادتان في آية لقمان أن الكلمات فيها أكثر مما في الأسرى ، زيادة كلمات الله على كلمات ربي ، فانه الله قبل كونه رباً ، والربوبية صفة فعل فكلماتها محدودة طالما لا نحيط بها علماً ولا إحصاءً ، والالوهية تحلق عليها بزيادة للذات وصفات الذات ولها كلمات كما لصفات الفعل .

لا نقول إن كلمات ربي هي ربع كلمات الله لمكان سبعة أبحر إلى البحر هنا ، ومثله هناك ، فانها لا تملآن إلا الكثرة ، إلا ان الكثرة في كلمات الله أكثر بكثير من كلمات الرب ، وهي فيها لا تنفذ مهما اتسعت البحور وكثرت الأقلام ، فانها - أيضاً - كلها من كلمات الرب فكيف تحلق على كل كلمات الرب فضلاً عن كلمات الله ! .

وكما الأقلام هنا تحلق على كل أشجار الأرض ، كذلك البحر يعني كل بحارها ام والأرضين السبع كلها ، ام وبحار السماء ايضاً .

هنا يروى ان احبار يهود قالوا لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمدينة يا محمد أرأيت قولك « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ايانا تريد أم قومك ؟ فقال : كلاً ، فقالوا : الست تتلوا فيما جاءك أنا قد أوتينا التورات وفيها تبيان كل شيء ؟ فقال : إنها في علم الله قليل فانزل الله في ذلك : « ولو ان ما في الأرض ... » (١) .

(١) الدر المنثور ٥ : ١٦٧ - اخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ان ... وفيه اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : اجتمعت اليهود في بيت فارسوا الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان اثنتا فجاء فدخل عليهم فسألوه عن الرجم فقال : اخبروني باعلمكم فاشاروا الى ابن صوريا الأعور قال : انت اعلمهم ؟ قال : انهم يزعمون ذاك قال فنشدتك بالمواثيق التي اخذت عليكم وبالتوراة التي انزلت على موسى ما تجدون في التوراة ؟ قال : لو لا انك نشدني بما نشدني به ما اخبرتك ، اجد فيها

فالكلمات - إذا - هي علم الله ذاتياً وصفاتياً وواقعياً ، لفظياً ومعنوياً ، تكوينياً وتشريعياً ، وليست لهذه المجموعة - ككل - حد ولا نهاية ، مهما كانت نعمة حسب المنعم عليهم محدودة ، وهي أيضاً كما الكلمات لا تُحصى ، وقد تكفي كلمة « كن » مثلاً لهذه السعة المعجزة ، ولا سيما ما بالامكان أن يتلون به ، فلا حد لها محدوداً ولا عدّ معدوداً ، فلو ان الأقلام كلها بثمانية أضعاف من مداد البحر كتبت هذه الكلمات لما نفذت « ان الله عزيز حكيم » وقضية عزته الطليقة وحكمته ، هي اللامحدودية في كلماته الإلهية ، والآ محصورة في كلماته الربانية بحصار الكتابات التي هي أيضاً بوسائلها والكتابتين لها من كلمات الرب .

وعلى « قبل أن تنفذ كلمات ربي » تلمح إلى أنها محدودة ولكنها لا تنفذ ، ولكن « ما نفذت كلمات الله » لا تلمح إلى نفادها ، حيث النفي هنا

الرجم ، ففضى عليهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا : صدقت يا محمد عندنا التوراة فيها حكم الله فكانوا فسب ذلك لا يظفرون من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بشيء قال فنزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » فاجتمعوا في ذلك البيت فقال رئيسهم يا معشر اليهود لقد ظفرتم بمحمد فارسلوا اليه فجاء فدخل عليهم فقالوا يا محمد ، ألسنت اخبرتنا انه انزل عليك « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله » ثم تخبرنا انه انزل عليك « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » فهذا مختلف ، فسكت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يرد عليهم قليلاً ولا كثيراً ، قال ونزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) « ولو ان ما في الأرض من شجرة أقلام وجميع خلق الله كتاب وهذا البحر يمد فيه سبعة أبحر مثله فمات هؤلاء الكتاب كلهم وكسرت هذه الأقلام كلها ويبست هذه البحور الثمانية وكلام الله كما هو لا ينقص ولكنكم أوتيتم التوراة فيها شيء من حكم الله قليل فأرسل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأتوه فقرأ عليهم هذه الآية فرجعوا مغضوبين بشراً » .

أعم من ذلك دوغما هناك .

اجل ، وكما يتوارى كل شيء إلا الله ، كذلك تتوارى الأشجار والبحار ، وتنزوي الأحياء والأشياء ولا تتوارى كلمات الله « ان الله عزيز حكيم » كما لا يُغلب في ذاته كذلك لا يُغلب في كلماته .

﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنْفُسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ٢٨ .

آية يتيمة بين آي المعاد تجعل خلق الجمع وبعثهم كنفس واحدة في خلقها وبعثها ، وعلها إجابة فيما تعنيه عن السؤال : كيف يحشر الجميع وقد خلطت اجزاءهم مع بعض ، فضلت كل نفس في الآخرين ، كما قالوا : « إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم تحشرون (٣٢: ١١) » .

فالجواب : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » أمام الحديقة العلمية والقدرة الإلهية ، إذ لا تفضل نفس في انفس الآخرين عن علم رب العالمين مهما ضلت عن سواء ، فكما أنه تعالى خلق كل نفس ثم يبعثها كما خلق ، وهو أهون عليه ، كذلك يبعثكم ليوم الجمع كما خلقكم أول مرة ، وذلك أهون عليه ، فـ « إن الله سميع » أقوالكم « بصير » بأحوالكم روحية وجسمية ، فلا يفلت عنه فالت ولا يعزب عن علمه عازب ، فعلمه لازب كل معلوم ، وقدرته لازبة كل مقدور .

إنه تعالى لا يختلف في خالقيته القليل والكثير ، والسهل والعسير ، لأنه على كل شيء قدير .

لقد « خلقكم من نفس واحدة » على توالي الدهور والأنسال وفق الحكمة الربانية ، ثم يبعثكم جميعاً في ساعة واحدة قضية العدالة في

الحكمة^(١) ، دون رحلات الأجنة ، ولا انتسالات مترتبة ، فانها لدى الله سيان ، بل والبده اياً كان أصعب - لو صبح التعبير- وليس إلا تنازلاً في التعبير : « وهو أهون عليه » .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ٢٩ .

هذه وتسع أخرى عشرة كاملة تحدث عن إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل ، وهي تدل على كروية الأرض ، لولاها لكانت الأرض كلها ليلاً ام كلها نهاراً فلا مجال لولوج كل في الآخر .

ثم « وسخر الشمس » في شروقات وغروبات مختلفة حسب مختلف أيام السنة ، في الأفاق الأرضية ، بما يتحقق معه الولوجان « كلٌ يجري إلى أجل مسمى » هو يوم القيامة الكبرى ، أوليس الله الذي يُجريهما مع سائر الجاريات إلى أجل مسمى ، ليجري المكلفين إلى أجلهم المسمى وهم أحق وأحرى ؟ إذ « أن الله بما تعملون خبير » فليجازكم بما عملتم قضية العدل ، وإذ لا جزاء وافيأ هنا فليكن هناك .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ٣٠ .

« ذلك » العظيم العظيم ، الكثير الكثير من البراهين الساطعة من الآيات الأفاقية والأنفسية التي تحلّق على الكائنات كلها ، دالة على وجوده

(١) نور الثقلين ٤ : ٢١٦ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليها السلام في الآية : بلغنا والله اعلم انهم قالوا : يا محمد خلقنا اطواراً : نظفاً ثم علماً ثم أنشأنا خلقاً كما تزعم ونزعم اننا نبعث في ساعة واحدة فقال الله : ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة « انما يقول له كن فيكون » .

تعالى وتوحيده وكمال ربوبيته « بأن الله هو الحق » بكل ما للحق من معنى :
ثبوتاً ضرورياً لا بدءاً له ولا ختام ، وثبوتاً لكل شئون الألوهية والربوبية ،
وثبوتاً لكل استحقاقات واختصاصات المعبودية .

و « ذلك » الصغير الصغير ، الجاني الهزيل من كل دليل مما يدعون من
دونه، إنه هو الباطل بكل معاني البطلان كوناً وكياناً « وان الله هو العلي » فلا
يسامى أو يساوى « الكبير » فلا يوازي .

فكل حق يملك من البرهان ما يحققه قدره ، وكل باطل هو صفر اليد
عن أي برهان يثبت ، بل ويبطله ، ولأن الله هو الحق المطلق ، فحق
للكائنات كلها ان تكون معسكر البراهين الدالة على حقه دون قصور ولا
فتور .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ٣١ .

« نعمت الله » هي التي تجري بها الفلك على طول الخط ، من الرياح
التي تجري السفن الشراعية ، ومن البترول والكهرباء وسائر الوسائل
المكتشفة ، حيث الكل نعم الله ، والعلم الكاشف لها من نعمت الله
« ليرىكم من آياته » الدالة على حقه و « إن في ذلك » البعيد الغور « آيات
لكل صبار شكور » .

وعلى الآيات هنا هي رقة الماء وخفة الفلك الثقيلة على الماء ، وسببية
الرياح لجريانها فوق الماء ، وسائر الأسباب التي تكشف لكل صبار شكور ،
ومن الآيات هي الفطرية البارزة « إذا غشيهم موج كالظلل . . » .

ثم للصبر والشكر واجهتان ، صبر في البأساء وشكر في السراء وقد
يعنيه قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « الإيمان نصفان نصف صبر ونصف
شكر » .

ثم صبر في التروك وشكر في الأفعال كما يعنيه قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « الصوم صبر والأفعال شكر » ^(١) .

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوِجٌ كَالظَّلِّ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ ٣٢ .

« وإذا غشيهم » هؤلاء الراكبين في الفلك مؤمنين ومشركين « موج كالظلل » وهي السحب السوداء الحاملة العذاب كما في « عذاب يوم الظلة » - « دعوا الله مخلصين له الدين » قضية نبوع الفطرة عند تقطع الأسباب « فلما نجاهم الى البر فمنهم » كقلة قليلة « مقتصد » في دعوته ودعائه ، باقياً على إخلاصه لله مهما قل أو كثر « وما يجحد بآياتنا » كهذه الفطرية ، واضرابها من عقلية وعلمية وحسية أماهيم « إلا كل ختار » : غدار « كفور » : مليء بالكفر والكفران .

فـ « منهم » هناك تلمح إلى قلة ، و « كل ختار » هنا إلى كثرة وكما هي طبيعة الحال في الناس وحتى في المؤمنين منهم ، مهما اختلف شرك عن شرك .

ويا للهول العظيم - وعوداً بالله العظيم - موج يغشاهم كالظلل بسراده المحيطه بهم من كل جانب ، وهم في الفلك كالريشة الحائرة في خضم البحر المائثر ، مما يعري النفوس عن كل حالة مشركة خاترة غادرة حيث تقطعت الأسباب ، فيتجهون عنها إلى رب الأرباب .

هنا يفتح كتاب الفطرة شاءوا ام ابوا ، انفتاحاً اتوماتيكياً كما فطرهم

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥ : ١٦٢ يرويهما عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

الله ليقرأوها قراءة خاشعة خاضعة ، ويدعوا الله حق الدعوة الخالصة « فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد » قاصد قصد الفطرة ، دون ان ينجرف بجارف الأمن والرخاء ، ومنهم من يحدد ختاراً كفوراً .

هيه هؤلاء المختارين الكفارين قد ينجون من ظلل البحار هنا ، فمن ذا الذي ينجيهم عن ظلل الأخرى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدُ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ ٣٣ .

جزى عنه : كفى ، وهنا قد يجزي والد عن ولده مالاً أو حالاً ، ام يجزي مولود عن والده حالاً أو مالاً ، وفي يوم القيامة لا جزاء من أحد وان كان اقرب الأقارب كالوالد والولد « ان وعد الله حق » لا جَوْل عنه بأي حول ومحاولة . فلا تغرنكم الحياة الدنيا « ان تغفلكم عن الأخرى ، ام تحسبوها كما الأولى قد يجزي أحدٌ أحداً أو يجزي عنه » ولا يغرنكم بالله الغرور « وهو الشيطان الرجيم الذي يرأس كل نمروود وليست الحياة الدنيا في حد ذاتها مذمومة ، بل هي حسب ما يعامل معها إما حسنة وإما سيئة .

فثبت الناس رأياً من لم يغره الناس من نفسه ولم تغره الدنيا بتشويقها « (١) .

وخير تعريف عادل بالدنيا في قول فصل ما يروى من كلام امير المؤمنين (عليه السلام) لرجل سمعه يذم الدنيا من غير معرفة بما يجب ان يقول في

(١) نور الثقلين ٤: ٢١٧ عن الفقيه عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل وفيه قال السائل : فاي الناس اثبت رأياً ؟ قال : . . .

معناها : الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مسجد انبياء الله ومهبط وحيه ، ومصلى ملائكته ، ومتجر اوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت بينها ، ونادت بفراقها ، ونعت نفسها فشوقت بسرورها الى السرور ، وببلاءها الى البلاء ، تخويفاً وتحذيراً وترغيباً وترهيباً ، فيا ايها الذاام للدنيا والمغتر بتغريرها متى غرتك ؟ أبمصارع آباءك في البلى ، ام بمصارع امهاتك تحت الثرى ، كم عللت بكفيك ومرضت بيديك تبتغي لهم الشفاء ، وتستوصف لهم الأطباء ، وتلتمس لهم الدواء ، لم تنفعهم بطلبك ، ولم تشفعهم بشفاعتك ، مثلت لهم الدنيا مصرعك ومضجعك حيث لا ينفعك بكائك ، ولا يغني عنك احباءك ^(١) .

وعن علي بن الحسين عليهما السلام « حب الدنيا رأس كل خطيئة والدنيا دنياآن: دنيا بلاغ ودنيا ملعونة » .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ٣٤ .

عرض لشر من اختصاصات العلم والقدرة الربوبية دون اختصاص بها علماً وقدرة ، فه ينزل الغيث « نموذج من خاصية القدرة ، والأربعة الأخرى نماذج من خاصية العلم .

فليست الآية لتحصر اختصاصات العلم والقدرة بهذه الخمس وهناك

(١) المصدر عن ارشاد المفيد من كلام امير المؤمنين (عليه السلام) لرجل سمعه يذم الدنيا ...

مَاتَ الْمَاتَ مِنَ الْإِخْتِصَاصَاتِ - عِلْمِيًّا وَفِي الْقُدْرَةِ - بِاللَّهِ ذَكَرْتُ بِطَيَّاتِ آيَاتِ أُخْرَى ، فَأَتَمَّا هَذِهِ الْخَمْسَ أَجَابَةً عَمَّا سَأَلَ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ) وَكَمَا فِي قِصَّةِ الرُّوحِ وَاضْرَابِهَا ^(١) فَلَا يَصْدُقُ مَا يَفْتَرِي عَلَى رَسُولِ الْهُدَى (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) أَنَّهُ « قَالَ » أَوْتِيَتْ مِفْتَاحُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْخَمْسَ : إِنْ اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ^(٢) فَانْ غَيْبَ الْذَاتِ وَصِفَاتِ الْذَاتِ

(١) الدر المنثور ٥: ١٦٩ - أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ عِكْرَمَةَ أَنَّ رَجُلًا يَقَالُ لَهُ الْوَارِثُ مِنْ بَنِي مَازَنْ بِنِ حَفْصَةَ بِنِ قَيْسِ غِيلَانَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ مَتَى قِيَامُ السَّاعَةِ ، وَقَدْ أَجْدَبْتَ بِلَادَنَا فَمَتَى تُخْصِبُ وَقَدْ تَرَكْتَ امْرَأَتِي حَبْلِي فَمَتَى تَلِدُ وَقَدْ عَلِمْتَ مَا كَسَبْتَ الْيَوْمَ فَمَاذَا أَكْسِبُ غَدًا وَقَدْ عَلِمْتَ بِأَيِّ أَرْضٍ وَلَدْتَ فَبِأَيِّ أَرْضٍ أَمُوتُ فَتَزَلْتَ هَذِهِ الْآيَةَ ، وَفِيهِ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ سُلَيْمَةَ ابْنِ الْأَكْوَعِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فِي قُبَّةٍ حَمْرَاءَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ فَقَالَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا رَسُولُ اللَّهِ ، قَالَ : مَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ : غَيْبٌ وَمَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، قَالَ : مَا فِي بَطْنِ فَرْسِي ؟ قَالَ : غَيْبٌ وَمَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، قَالَ : فَمَتَى تَمْطُرُ ؟ قَالَ : غَيْبٌ وَمَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ .

(٢) الْمَصْدَرُ أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتَّبَرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عِمْرَانَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : ... وَفِيهِ أَخْرَجَ مِثْلَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَالَ : لَمْ يَعَمْ عَلَى نَبِيِّكُمْ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) إِلَّا الْخَمْسَ مِنْ سِرِّاتِ الْغَيْبِ هَذِهِ الْآيَةُ فِي آخِرِ لَقْمَانِ . وَفِيهِ أَخْرَجَ أَحْمَدُ عَنْ عَامِرِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ أَوْ أَبِي مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ أَصْحَابُهُ جَاءَ جَبْرِثِيلٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي غَيْرِ صُورَتِهِ فَحَسِبَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَسَلَّمَ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رِجْلَيْ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وَقَالَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْلَامُ ؟ قَالَ : أَنْ تَسْلِمَ وَجْهَكَ لِلَّهِ وَتَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْلَمْتَ ، قَالَ نَعَمْ ثُمَّ قَالَ : مَا الْإِيمَانُ ؟ قَالَ : أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانَ وَالْقَدَرَ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ ، قَالَ : فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ آمَنْتَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، ثُمَّ قَالَ : مَا الْإِحْسَانُ ؟

وصفات الفعل وغيب المعجزات وكثير أمثالها لا يعلمها إلا الله وكما قال الله عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » (٧ : ١٨٨) فليست هذه الخمس إلا قسماً من الغيب لا كله .

وهكذا يفسر ما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من قوله : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ... » ^(١) . والغيب هنا يعم غيب العلم والقدرة ، فان « ينزل الغيث » مفتاحه الأول هو القدرة وعلى هامشه العلم .

وقد يعلم غير الله أشرافاً من هذه الخمس وسواها بوحى الوحي أو

قال : ان تعبد الله كأنك تراه فان كنت لا تراه فهو براك ، قال : فاذا فعلت ذلك فقد احسنت ؟ قال : نعم ، قال : فمضى الساعة يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : سبحان الله خمس لا يعلمها الا الله ان الله عنده ..

اقول : خمس هنا وفي امثاله يعني شطراً من المصاديق الظاهرة المستول عنها كراراً ، ولا يعني الحصر فيها فانه خلاف نصوص من القرآن .

ويشهد لهذا التوجه ما فيه ايضاً عن رجل من بني عامر قال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هل بقي من العلم شيء لا تعلمه ؟ فقال : لقد علمني الله خيراً وان من العلم ما لا يعلمه الا الله الخمس ان الله عنده علم الساعة فـ من ، تبعض فالآية بيان لبعض الغيب الخاص .

(١) المصدر - اخرج الفريابي والبخاري ومسلم وابن المنذر وابن ابي حاتم عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... لا يعلم ما في عند الله إلا الله ولا متى تقوم الساعة الا الله ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله ولا متى ينزل الغيث إلا الله وما تدري نفس بأي ارض تموت إلا الله اقول : متى ينزل غير مستفاد من ينزل الغيث ، الا على هامش القدرة فـ ينزل فعل وليس - فقط - علماً .

العقل والعلم والحس^(١) والضابطة العامة هي اختصاص علم الغيب بالله ، اللهم إلا غيب الوحي الرسالي حيث يحمل الأحكام الرسالية ، وبعض من سائر الغيب ليس منها هذه الخمس واضرابها المحدودة في الذكر الحكيم ، فعلم الغيب الخارج عن واجب الوحي بحاجة إلى برهان أم ضرورة رسالية .

فالأحاديث القائلة ان علياً والحسين عليهما السلام كانا يعلمان مضجعهما ، بين مطروحة ومؤولة إلى اجمال دون تفصيل^(٢) وكما يروى عن

(١) المصدر اخرج ابن ابي شيبة والبخاري ومسلم وابن ابي حاتم وابن المنذر وابن مردويه عن ابي هريرة ان رجلاً قال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) متى الساعة ؟ قال : ما السَّمُولُ عنها باعلم من السائل ولكن سأحدثكم باشراطها إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من اشراطها وإذا كانت الحفاة العراة رؤس الناس فذاك من اشراطها وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان فذلك من اشراطها في خمس من الغيب لا يعلمهن الا الله ثم تلا هذه الآية .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٢٢٠ في أصول الكافي بسند متصل عن الحسن بن الجهم قال قلت للرضا (عليه السلام) امير المؤمنين (عليه السلام) قد عرف قاتله في الليلة التي يقتل فيها والموضع الذي يقتل فيه وقوله لما سمع صياح الأوز في الدار : صوائح تتبعها نوائح ، وقول ام كلثوم : صليت تلك الليلة داخل الدار وامرت غيرك يصلي بالناس فابى عليها وكثر دخوله وخروجه تلك الليلة بلا سلاح وقد عرف ان ابن ملجم لعنه الله قاتله بالسيف كان هذا مما لا يحسن تعرضه ؟ فقال : ذلك كان ولكنه خير في تلك الليلة لتمضي مقادير الله عز وجل .

وفيه عن مقتل الحسين لأبي مخنف : وان الحسين لما نزل كربلاء واخبر باسمها بكى بكاءً شديداً وقال : ارض كرب وبلاء ، قفوا ولا تبرحوا وخطوا ولا ترحلوا ، فهنا والله عطر رحالنا وهنا والله سفك دماثنا وهنا والله تسبى حريمنا ، وهنا والله محل قبورنا ، وهنا والله محشرنا ومنشرنا وبهذا اعدني جدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا خلاف في وعده .

أئمة الهدى ان هذه الأشياء الخمسة لا يعلمها على التفصيل والتحقيق غيره تعالى .

فقد يعلم رسول او امام او ولي بأي بلد يموت ولكنه ليس ليعلم مضجعه الخاص لمكان الاختصاص بالله فانه من الخمس المذكورة في الآية .
فطالما يُعلم إجمال الأرض التي فيها يموت ، لا يُعرف تفصيلها ، ام يُعرف ما في الأرحام-أذكر ؟ أم أنثى ؟ حي أو ميت ؟ صغير أو كبير ؟-
بالوسائل الحديثة ولكن لا يُعلم ما في الأرحام على التفصيل (١) .

(١) المصدر في امالي الصدوق باسناده الى امير المؤمنين (عليه السلام) لما اراد السير الى النهر وان اتاه منجم فقال له : يا امير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة وسر في ثلاث ساعات يمضين من النهار ، فقال له امير المؤمنين (عليه السلام) ولم ذاك ؟ قال : لأنك ان سرت في هذه الساعة اصابك واصاب اصحابك اذى وضر شديد ، وان سرت في الساعة التي امرتك ظفرت وظهرت واصبت كلها طلبت ، فقال له امير المؤمنين (عليه السلام) تدري ما في بطن هذه الدابة اذكر ام انثى ؟ قال : ان حسبت علمت ، قال له امير المؤمنين (عليه السلام) من صدقتك على هذا القول كذب بالقرآن « ان الله عنده علم الساعة . . . » « ما كان محمد يدعي ما ادعيت » وفيه عن نهج البلاغة يؤمى به الى وصف الأتراك : كأي اراهم قوماً كان وجوههم المجان المطرقة يلبسون السرق والديباج ، ويعتقبون الخيل العتاق ويكون استمرار قتل حتى يمشي المجروح على المقتول ، ويكون المفلت أقل من المأسور فقال له بعض اصحابه : لقد اعطيت يا أمير المؤمنين (عليه السلام) علم الغيب ؟ فضحك (عليه السلام) وقال للرجل - وكان كلياً - يا اخا كلب ليس هو بعلم غيب ، وانما هو تعلم من ذي علم وانما علم الغيب غيب الساعة وما عنده الله سبحانه بقوله : ان الله عنده علم الساعة . . . فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر او انثى وقبيح أو جميل وسخي او بخيل وشقي أو سعيد ومن يكون للنار حطباً أو في الجنان للنبيين مرافقاً فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه الا الله وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) ودعا لي أن يعيه صدري ويضطم عليه جوارحي »

« الأرحام » هنا طليقة فلا تختص بأنثى الناس ، بل الجنة والناس وسائر ذوات الأرحام ، من الحيوان والنبات بل والجماد ، بل والأرض كلها فانها تحمل من صنوف الكائنات الحية والميتة ، وتحمل كل الميئات الإنسانية وسواها .

والعلم البالغ ما بلغ في معرفة الأجنة الإنسانية لا يحيط خبراً بما هو في الأرحام في كل لحظة وفي كل طور من فيض وغيض : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وتزداد » (١٣ : ٨) .

ذلك العلم لم يصل الى ما ليس به جرم ظاهر وحجم ، ولا نوعية من ذكورة وانوثة حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئاً في اللحظة الأولى لإتحاد الخلية والبويضة ، ولا ملامح الأجنة وخواصها وحالاتها واستعداداتها ، ولا أنها تموت في الأرحام أم تولد حية ، ولا ملامح الأرواح التي تحملها ، ولا آماذ أعمارها ولا . . . إلّا طرفاً ضئيلاً بالوسائل الحديثة على أخطاءها أم بسائر الوسائل .

كذلك وتنزيل الغيث ، مهما استطاع الإنسان بالمجهود العلمية ان يحصل على غيث صناعي أحياناً قليلة ضئيلة ، ولكنها الغيث النازل من السحاب المسخر في جو السماء لا ينزله إلا الله ، ومهما عرف ناس بتجارب ومقاييس أشراط نزول الغيث وقربه ، ولكنهم لا يقدرّون على خلق الأسباب التي تنشئه .

وكذلك « ماذا تكسب غداً » من مكاسب روحية ام مادية كماً وكيفاً ،

اقول : « ما سوى ذلك . . . » مطروح او مخصوص بما سوى ذلك اضرابه من علم الغيب كما في صدر الحديث .

نافعة ام ضارة ، فانه كقرنائيه غيب مغلق عمن سوى الله .
 و « غداً » هنا تعم غد الدنيا والبرزخ والأخرى ، فلكل مكاسب مهما
 كانت مكاسب الأولى هي التي تُكسب للآخرين .

وفي رجعة اخرى الى الآية تحديداً لمواقع الخمسة كلاً على حده : « ان
 الله عنده علم الساعة » تختص بالله علم الساعة ككل ، دون ابقاء منه لمن
 سواه اللهم إلا أشراطها « فقد جاء اشراطها .. » (١٧: ٤٥) .

« وينزل الغيث » اختصاصاً في القدرة على إنزال الغيث ، فليس العلم
 بنزوله من مختصاته حسب النص ، اللهم إلا العلم بإنزاله الذي يساوق
 القدرة ، فانه كما القدرة من مختصاته .

« ويعلم ما في الأرحام » ككل بما فصلناه فليس ينفيه علم بما في
 الأرحام بوسائل مصطنعة أم دونها أم فوقها ، فلم يقل « عنده علم ما في
 الأرحام » حتى يخلق على كل علم بكل ما في الأرحام دون ابقاء ، وانما
 « يعلم ما في الأرحام » استغراقاً لكل علم ، وبما ان علمه يساوق قدرته ،
 فهو مختلف عن علم من سواه بشيء مما في الأرحام ايضاً فضلاً عن كله .

« وما تدري نفس بأي أرض تموت وما تدري نفس ماذا تكسب
 غداً » استغراقان في السلب يختصان هاتين الدرايتين بالله ، وأرض الموت
 هنا دون بلده تضيق مكانه بخصوص المواضع التي تموت فيها كل نفس ، فلا
 ينفيه ان يعلم الإمام الحسين ان مضجعه كربلاء دون المضجع الخاص فيها
 كما قال « كأني باوصالي تنقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء » .

ففي اختلاف التعبير سلباً وإيجاباً ، وحصرأً محلقاً وسواء ، علماً
 وسواء ، اختلاف المعني من هذه الخمس ، وليست هي الخاصة بالله علماً او
 قدرة دون سواها كما فصلناه .



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی





مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ
إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ
سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ
 مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۖ وَجَعَلَ
 لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾
 وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَأُنَا لَمْ يَخْلُقْ جَدِيدًا ۚ بَلْ هُمْ
 بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ * قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ
 الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ
 الْمُجْرِمُونَ نَاكِسَ رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا
 فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا
 كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
 مِنَ الْإِنْسَانِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ
 يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

سورة السجدة تسمى بها لأنها تحمل آية السجدة الواجبة ، مفتحة
 بدو آلم ، وهي الخامسة بين السور المفتحة بها ، رابعة من مكياتها ، مما قد
 تربطها بها لوجدة الإفتاح .

وهذه السورة تعالج قضية المبدء والمعاد بحجج لها صارمة ،
دفعاً لما يخلج القلوب من تخلفات عارمة ، وفيها تبيان فوارق بين فريقين
الايمان والكفر ، وهي تلتقي مع سائر المكيات في خطاب القلب البشري
بخفاياه ودروبه ومنحنياته ، تخليصاً له عن الخطرات والخلجات المتخلفة عن
أحكام الفطرة والعقلية السليمة .

وهي تعرض قضايا خمس ، إبتداءً بقضية الوحي وانتهاءً إلى وحدة
الوحي والرسالة بين موسى ومحمد ، وبينها قضية الألوهية ، والبعث
والمصير ، ومشهد الإيمان والكفر في الشأتين .

وهي من العزائم الأربع ، تجب السجدة بقراءة أو استماع ام وسماع
آيتها ، وهل يجوز قراءتها في الفرائض فتؤخر سجدها عن الصلاة ؟ فان
السجود زيادة في المكتوبة ؟.

ام يسجد لها فيها قضية فور الأمر ، ووجوبها يرفع محذور الزيادة في
المكتوبة كما في زيادة ركن في الجماعة قضية التبعية ؟.

ام تحرم قراءتها فيها فتبطل بها الفريضة قضية النهي عن العبادة ؟ .

ام لا تبطل حيث النهي ليس عن الصلاة ، وإنما هو عن قراءة فيها ؟ .

هنا أحاديث متضاربة ، يروي اخواننا عن رسول الله (صلى الله عليه
 وآله وسلم) جوازها قولاً واحداً^(١) ويروي اصحابنا عن أئمة أهل البيت

(١) الدر المنثور ٥ : ١٧٠ عن أبي هريرة قال كان رسول الله (صلى الله عليه وآله
 وسلم) في الفجر يوم الجمعة الم تنزيل السجدة وهل اتى ورواه مثله عنه (صلى الله عليه
 وآله وسلم) ابن عباس وابن مسعود وعن ابن عمران النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)
 صلى الظهر فسجد فظننا انه قرأ الم تنزيل السجدة ورواه مثله البراء قال : سجدنا مع
 رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الظهر فظننا انه قرأ الم تنزيل السجدة وعن أبي
 العالية قال كان اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رمقوه في الظهر فخرر

كلا الأمرين ^(١) إذا فلا نتأكد حرمتها في الفريضة ، والأحوط تأخير سجدها عن الصلاة ، وهي ضمن الصلاة خلاف الإحتياط وإن كان الأشبه عدم بطلان الصلاة بها ، فإن الدالة من احاديث النهي قلة غير قوية الأسناد ، فلا تنأحر الثلة المروية من طريق الفريقين وكثيرة منها اقوية الأسناد ! والشبهة ليست بنفسها برهاناً شرعياً ولا الاجماع ، اللهم إلا الإطباق بشروطه وهو عادم هنا .

ومحور النهي فيما ينهى عنها ان السجود زيادة في المكتوبة ، ولا بأس

واقراءته في الركعة الأولى من الظهر تنزيل السجدة .

ومن طريق اصحابنا حسنة الحلبي عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه سئل عن الرجل يقرأ السجدة في آخر السورة ؟ قال : يسجد ثم يقوم فيقرأ فاتحة الكتاب ثم يركع ويسجد ، وصحيحه محمد بن مسلم عند احدهما قال : سألته عن الرجل يقرأ السجدة فينساها حتى يركع ويسجد قال : يسجد إذا ذكر إذا كانت من العزائم ، وصحيحة علي بن جعفر عن اخيه موسى بن جعفر عليهما السلام قال : سألته عن امام قوم قرء السجدة فأحدث قبل ان يسجد كيف يصنع ؟ قال : يقدم غيره فيشهد ويسجد وينصرف هو قد تمت صلاتهم (وسائل الشيعة على الترتيب في ابواب الواءة ب ٣٧ ح ١ و ٣٩ : ١ ، ٢٣ و ٤٠ : ٥ و ٦) .

(١) الأمر الثاني ما رواه زرارة عن احدهما عليهما السلام قال : لا تقرأ في المكتوبة بشيء من العزائم فإن السجود زيادة في المكتوبة « وموثقة سماعة : من قرأ « اقرء باسم ربك » فإذا ختمها فليسجد فإذا قام فليقرأ فاتحة الكتاب وليركع وقال : إذا ابتليت بها مع امام لا يسجد فيجزيك الإجماء والركوع ولا تقرأ في الفريضة وأقرأ في التطوع » وخبر علي بن جعفر المروي عن كتابه وعن قرب الإسناد وقد سأل اخاه موسى (عليه السلام) عن الرجل يقرأ في الفريضة سورة والنجم ويركع وذلك زيادة في الفريضة ولا يعود يقرأ في الفريضة بسجدة . (الوسائل ب ٤٠ : ١ و ٣ - وب ٣٧ ح ٢ صدره وذيله ب ٣٠ : ٢ وب ٤٠ : ٤) .

بهذه الزيادة لأن لها سبباً ، ثم إذا أخرنا السجدة الواجبة لم يبق مجال لمشكلة الزيادة ، ولا يترك الاحتياط بترك قراءتها في فريضة .

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^٢ .

علّ « الكتاب » هنا هو النازل على الرسول ليلة القدر بإحكام ، ثم نزل عليه ثانياً بتفصيل : « كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١: ١١)

أم وهو الكتاب المفصل المنزل عليه وقد تشملهما « الكتاب » أم وثالث هو الأول كوكناً وكياناً : « أم الكتاب » : « إنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » (٤٣ : ٤) .

« لا ريب فيه » في أصله ولا في تنزيله « من رب العالمين » - « تنزيل من رب العالمين - لا ريب فيه من رب العالمين » مهما شك فيه وفي تنزيله المتجاهلون ، فإن الريب شك مسنود إلى برهان ولا برهان يسند إليه أياً كان يشكك الإنسان في وحي القرآن ، بل البراهين كلها مجتدة لا ثبات وحيه، لا مرد لها ولا ريب فيها .

و« تنزيل » مصدراً مبالغة بالغة أن ليس الكتاب المفصل إلا نفس المحكم بصورة أخرى ، فلم يحصل في ذلك التفصيل إلا تنزيل تقريباً الى أفهام العالمين بعد غموضه في إحكامه .

وفي « رب العالمين » تلميحاً لامعة أن هذا الكتاب يحمل ربوبيته العالمية ، عرضاً لبعديها التكوينية والتشريعية دون ابقاء .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾^٣ .

ايصدقون - بعدد - بوحى القرآن « أم يقولون افتراه » على الله ، فهو كتاب من عنده ام اكتتاب من كتب اخرى ، ام تعلم من ذي علم ؟ « بل »

إن قولة الافتراء لا تملك برهاناً إلا عليها ، فانه دون ريب « هو الحق » كله « من ربك » الذي ربك ، فكما انك كرسول لست صنيع نفسك أو الآخرين ، كذلك ذلك الكتاب ليس صنيع أحدٍ إلا رب العالمين ، صنيعة انشان هما صنوان يبرهن كلٌ لزميله ، ويستدل به ككامل دليله ، فالسمة الربانية بارزة في القرآن ورسول القرآن ، لا يحتملان ولا يتحملان سمة خلقية اياً كان .

« هو الحق من ربك » دون إبقاء لحق إلا وهو فيه « لتنذر قوماً ما اتاهم من نذير من قبلك » حيث هم وآباءهم عاشون زمن الفترة الرسالية : « لتنذر قوماً ما انذر آباءهم فهم غافلون » (٦: ٣٦) « فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً » (٩٧: ٩) .

انهم قوم لدُّ في اصليهم العربي وفصلهم عن المنذرين ، فاذا استطاع رسول القرآن ان ينذر به هؤلاء الألداء الأشقياء فهو بإنذار من دونهم أخرى وأقوى .

إذا فليس هو - فقط - من الحق ، بل هو الحق كله إذ بإمكانه إنذار الألداء الذين لم يسبق لهم إنذار رسالي ولا رسولي ، حيث عاشوا تيه الضلالة والمتاهة في ربح بعيد من الزمن ماله مثيل طول الزمن الرسالي في بُعد الفترة بعد الشقاوة الأصلية .

وفي الحق إن الحق كيانه الهدى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد ، كلما ازداد الحق توسعاً وعمقاً ازدادت الهدى على ضوئه ، ولأن القرآن هو كتاب الخلود في هديه فليكن مستغرقاً الحق كله :

حقاً في طبيعته ومعناه ومعزاه وممرماه ، تطابقة حقّة بين أجزاءه دونما اختلاف ، وأخرى بينه كله وقضية الفطرة والعقلية الإنسانية وحاجات العالمين اجمعين .

حقاً بكونه ترجاناً بالغاً لكل نواميس الكون ، ترجمة قيمة مستقيمة
كانها هي الصورة الواقعية عن واقع الوجود .
حقاً بما يحققه ويطبقه من صلات أصيالات بين العالمين وما بينهم وما
حولهم من قوى ، ما ظهر منها وما بطن ، دون اي تنافر وتفاوت وتهافت .
حقاً يرسم منهاج الحياة لأعلى قممها المقصودة المرموقة ، ملائماً موائياً كل
طاقاتها وإمكاناتها ، كل نزعاتها وحاجاتها ، معالجاً كل ما يعتورها من آفات
وعاهات وابتلاءات .

وحقاً لا يزداد على تقدم العقل والعلم إلا بهوراً وظهوراً « بل هو الحق
من ربك لتندر . . » وتراهم في هذه الفترة الخالية عن الإنذار ، كانوا مكلفين
دون شرعة تحكمهم ، فيتساءلون إذا ناكرين موقفهم من فصيلة الرسالة :
« . . . ربنا لولا ارسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى »
(١٣٤: ٢٠) « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد
الرسال وكان الله عزيزاً حكيماً » (١٦٥: ٤) .

انهم مهما لم يعيشوا الإنذار الرسولي في هذه الفترة لم يكونوا ليخلوا عن
الإنذار الرسالي ، ام ولأقل تقدير الإنذار الفطري والعقلي وهما قد يكفيان
حجة للتوحيد الحق ، ولأن الإنذار الرسولي اقوى من الرسالي ، وهو ايضاً
اقوى من العقلي والفطري ، فلا يهلكون بعذاب في الفترة الرسولية
والرسالية ، حيث الحجة ليست صارمة يستحقون بها العذاب حين
يتخلفون : « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربنا أولم تأتكم بينة ما في الصحف
الأولى . ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت إلينا رسولاً
فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى » (١٣٤: ٢٠) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ

عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ .

تعريف بالله في خالقيته المدبرة لما خلق ، توحيداً له في تدبير الخلق كما في الخلق رغم ما يزعمه المشركون انه هو الخالق ولشركاءه التدبير .

ومثلث « خلق السماوات والأرض وما بينهما » تعبير عن الكون المخلوق كله ، و « ستة ايام » هي الاوقات الستة للخلق وقد فصلت في « فصلت » وانها ليست من ايام هذه الأرض ، لأنها مقياس زمني ناشيء عن دورتها ، فاين هيه قبل خلقها وخلق السماوات ، فهي من ايام الله التي لا يعلمها إلا الله ، اللهم إلا شبحاً بعيداً لنوعيته ، دون حده وقدره .

والعرش المستوى عليه هنا هو عرش التدبير بكافة شئون الربوبية ، وهو عوان بين العرش قبل هذا الخلق حين « كان عرشه على الماء » (٧: ١١) والعرش بعد الدنيا « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » (٧: ٦٩) والعرش العوان هو عرش التدبير : « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » (٣: ١٠) ومنه إغشاء الليل والنهار : « ثم استوى على العرش يُغشي الليل النهار » (٥٤: ٧) عرش الفعالية لما يريد : « ذو العرش المجيد . فعال لما يريد » (١٦: ٨٥) وكذلك عرش العلم : « ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . . » (٤: ٥٧) .

ولأن الولاية هنا والشفاعة هنا وهناك هي من شئون عرش التدبير الموحد ، إذا فـ « ما لكم من دونه من ولي » يلي امركم وامر الخلق كله لأنه هو ذو العرش « ولا شفيع » عنده في تكوين أو تشريع « أفلا تتذكرون » بعد ذكريات الفطرة والعقلية والشرعة الربانية : أنه هو الولي والشفيع لا سواه فاني تؤفكون وتصرفون ، « فبأي حديث بعد الله وآياته تؤمنون ؟ »

وترى كيف يكون الله هو نفسه شافعاً ، فعند من يشفع إذا كل مشفوع

سورة السجدة / آية ١ - ١٤ ٢٧٣

له ؟ وهو الذي يُشفع عنده ! « من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه »
(٢: ٢٥٥) ؟ .

علّه لأن الشفعاء عنده لا يشفعون إلا باذنه ، إذاً فهو الشفيع عنده
بإذنه ، إذ « ما من شفيع إلا من بعد اذنه » (٣: ١٠) « ليس لها من دون الله
ولي ولا شفيع » (٦: ٧٠) « ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلمهم يتقون »
(٦: ٥١) .

والشفاعة - ككل - وهي انضمام سبب إلى آخر يكمله ، إنها في تكوين
وتشريع خاصة بالله ، لأنها من شئون عرش التدبير لكل شيء ، فقد يشفع الله
اسماً من أسماؤه باسم آخر منها إتماماً لتدبير ما يدبره ، كشفع شارعيته بغافريته
للتائبين ، أم يشفع اسماً منها بحالة خلقه كشفع غناه بفقرهم ، بل كل تدبيره
لخلقه ولاية وشفاعة في كافة حقول الربوبية .

ومن ذلك شفاعة العاصين ، حيث يشفع عصيائهم بطاعة لهم ، أم
وميقرب عنده ، شفعاً لها بغافريته وإكرامه للمقربين ، فتتحقق الشفاعة بحق
المشفوع لهم .

إذاً فلا مشكلة في شافعيته عنده حتى تؤول بما لا تتحمل ، من
تكاليفات لفظية ومعنوية تبعد عنها ساحة الذكر الحكيم .

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ
أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

ذلك يوم التدبير ربوبياً يوم الدنيا ، وهو واحدُ زمنه عند ربك « وإن
يوماً عند ربك كآلف سنة مما تعدون » (٢٢: ٤٧) وهو / ٣٥٥٠٠٠ ضعفاً
بالنسبة ليوم عندنا ، وعلى خمسين ألف المعارجي هو واحد الزمن الربوبي في
تدبير الأخرى ، وألف السجدة كآلف الحج هو واحد الزمن الربوبي يوم

الدنيا ، فقد « يدبر الأمر » ككل « من السماء إلى الأرض » وهو أمر تدبير الأرض ومن عليها « ثم يعرج » فـ « يدبر » التي تقابل « يعرج » مُضْمَن معنى النزول ، أنه ينزل الأمر تدبيراً من السماء إلى الأرض « ثم يعرج إليه » ذلك الأمر ، وعروجه كنزوله هما من تدبيره .

ثم « في يوم » هل هو زمن النزول والعروج جميعاً فلكل نصف يوم ؟ وهو ظاهر التعبير ، أم هو فقط يوم النزول دون العروج ؟ فلما ذا أخر إلى العروج ! أم هو العروج دون النزول ؟ كأنه هو ! ، فإن « يدبر » بيان لأمر التدبير المستمر يوم الدنيا ، و « ثم » الدالة على التراخي يؤخر ذلك العروج عن كل التدبيرات في النشأة الأولى وهي يوم الدنيا ، فقد يكون عروج أمر التدبير للربوبية الأولى « في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » كموقف واحد من المواقف الخمسين يوم الأخرى^(١) .

فكما أن يوم الدنيا خلقها أيام : « إن عدة الشهور عند الله إثني عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض .. » (٣٦: ٩) وهو ستة أيام حسب التقسيم الداخلي لزمن الخلق ، وكذلك يومها بعد خلقها أيام ، فقد يكون يوم الأخرى - وبأخرى - أياماً ، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون .

ولأن يوم الأخرى ليست لها نهاية بالنسبة لأصحاب الجنة ، فخمسون ألف سنة قد تختص بما قبل دخول كل من أهل الجنة والنار مشواه ، وقد « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٤: ٧٠) وهو واحد الزمن الربوبي المعارجي ، المفصلة في المعارج .

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٢١ في تفسير القمي في الآية يعني الأمور التي يدبرها والأمر والنهي الذي أمر به وأعمال العباد كل هذا يظهر يوم القيامة فيكون مقدار ذلك اليوم ألف سنة من سني الدنيا .

هنا وفي الحج « إن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » مهما اختلفت العندية هنا وهناك ، ثم لا نجد في المعارج « عند ربك » مما يلمح أن يوماً فيها خمسون يوماً عند ربك^(١) ، وقد جمعها « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » يومٌ قد يعنى منه الأيام الخمسون .

وكما أن الأيام الستة للمخلق تختلف عن أيامنا ، كذلك يوم العروج إلى الله ويوم المعارج ، وعلى الجملة « يوم » كواحد الزمان « عند ربك » يختلف عن كل أيامنا في تقدير اتنا الزمنية كما فصلت في تفسير المعارج .

وعلى أية حال فعروج امر التدبير إليه وفيه انهدام الكون أرضياً وسماوياً يتطلب في العادة ألف سنة ، ولكنه يحصل في يوم وهو واحد الزمان وهو الحركة الأصلية للمادة الأولية وكما فصلناها في المعارج .

فأمر الله ككل واحدة كلمح بالبصر : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » (٥٤ : ٥٠) ثم « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » (١٦ : ٧٧) وكان هذه الواحدة هي يوم عند ربك كألف سنة مما تعدون « بياناً لنفاذ أمره وسرعته .

﴿ ذَلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

« ذلك » الله العظيم ، الخالق المدبر الحكيم ، هو لا سواء « عالم الغيب والشهادة » على سواء ، إذ لا غيب عندنا إلا وهو شهادة عنده، وكثير من الشهادة عنده غيب عندنا وهو « العزيز » في علمه وقدرته « الحكيم » في قدرته

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٢٢ في أمالي الطوسي بأسناده إلى أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال في كلام طويل : فإن في القيامة خمسين موقفاً كل موقف مثل ألف سنة مما تعدون ثم تلا هذه الآية « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » أقول وهذه الرواية متظافرة ذكرت في تفسير آية الحج وآية المعارج .

وعلمه وعزته ، فإن الغيب أياً كان ، ما لم يكن أو كان (١) ، والشهادة على أية حال ، كل ذلك عنده شهادة .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾^٧
 « أحسن كل شيء خلقه » أن « أعطي كل شيء خلقه ثم هدى »
 (٥٠ : ٢٠) فإنه من إحسان خلقه ، كما أحسن كلاً من الخلق والهدى لكل ما خلق وهدى ، فلا أحسن مما فعل ولا اتقن، ومن ذلك : « وبدأ خلق الإنسان من طين » والمبدء هو آدم الأول حيث خلق قفزة من طين ، مهما خلق نسله من أصول طينية ولكنه دون قفزه حيث تحولت إلى ماء مهين .

أترى ليس في خلق الله قبيح ولا غير حسن ؟ وذلك ملموس ! أم إنه ليس من خلق الله ؟ وهو الذي « أعطي كل شيء خلقه . . » ، « خلق كل شيء فقدره تقديراً » (٢ : ٢٥) .

ليس يعني « أحسن كل شيء خلقه » أنه خلق كل شيء سواء في الحسن ، وإنما هو إحسان لكل خلق على حده ، فهو اتقان وإحكام (٢) لكل خلق حسب الحكمة الربانية بالظروف المواتية والملايسات المقتضية .

فلكل جماد ونبات وحيوان وإنسان أو ملك وجان شاكلة روحية وجسدية أما هية ، هي - ككل - قضية الحكمة كضابطة لكل ، أم قضية الملايسات كالعمى والصمم والشلل أما ذا من عوارض هي حصيلة الكيفية الخاصة لأصول الولادة وكيفيتها وما يطرء الولائد من طوارئ، فالخلق

(١) تفسير البرهان ٣ : ٢٨١ عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان ، أقول ما لم يكن هو من أغيب الغيب كما ونما كان غيب ، وما قد كان ليس كله شهادة ، وإنما جله .

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٧٢ - ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله) في الآية قال : أما أن أست القردة ليست بحسنة ولكنه أحكم خلقها .

متقن على آية حال ، فهو حسن من الخالق على آية حال ، والنقائص الطارئة هي من خلفيات التخلفات الولادية قصوراً أو تقصيراً .

ثم القبح بين سائر الخلق خلقياً أصلياً ليس إلا نسبياً ، فإذا كان العقرب والحية والسرطان وقسم من سائر الحيوان قبيحاً في نظرنا ومنظرنا قياساً لها إلى أنفسنا ، لم يلزمه واقع القبح لكل بين قبيله ومثيله ، فعلنا نحن الأناسي أيضاً عندها كما هي عندنا ، وكل حسب الواقع والحكمة حسن متقن في خلقه وهده كما أعطى الله ، مهما كان الحسن في الخلق درجات و « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » رغم أنه « بدأ خلق الإنسان من طين » .

فالحكم بقبح أو غير الحسن لخلق من الخلق ليس إلا نتيجة قصور النظر ، أو القياس إلى الأحسن أو الحسن في المنظر ، وليس يختص واقع الحسن للخلق بمنظر الإنسان أو أياً كان من الناظرين القاصرين ، وعلى ضوء تقدم العقل نحصل على محاسن في الخلق كنا نحسبها مقابح .

فمن الحسن الجامع للخلق ككل أنك « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » أجزاء كل خلق في كله ، وافراد كل خلق في مجموعه ، فلا تفاوت ولا تناحر هنا وهناك إلا ما يخلقه المتخلفون من خلق الله ، غير المتخلفين بأخلاق الله « فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » (٤: ٦٧) .

فلأن الحسن في الخلق وهده ليس إلا على ضوء العلم المطلق والقدرة غير المحدودة والحكمة العالية والرحمة الشاملة دون نفاذ في شيء منها ولا كساد ولا بخل وضيئة ، فلا يعقل أن يحصل غير الحسن المتقن كما يصلح وأمكن ، من الله العليم الحكيم القدير العلي الكبير .

ف « كل شيء عنده بمقدار » (٨: ١٣) ومعيار صالح لنظام الكون

ككل ، دون إفراط ولا تفريط ، من كل ذرة صغيرة إلى أكبر الأجرام ، من خلية ساذجة إلى أعقد الأجسام ، ففي كل يتجلى كل إتقان وإحسان « فباي آلاء ربكما بكذبان !

ومن الحسن المزدوج خلقاً وهدى أن كلاً مصنوع ليؤدي دوره المقسوم في رواية الوجود ، مزوداً بمعدات صالحة ليؤدي دوره الأهل له تمام التأهيل ، بتعجيل أو تأجيل ، ولا خائن أخون في حمل الأمانة من الإنسان « إنه كان ظلوماً جهولاً ! ثم سائر الكائنات تؤدي دوراتها المقررة لها حسب مراتبها وإمكاناتها إلا أن يعرقل المسير ويصد المصير من قبل شرير ليست عرقلته من خلق الله ، بل هي اختلاقة منه قضية الاختيار .

العين المعاينة في غير عمى وعمه ، والعقل الخبير والقلب البصير يتحلى من جمال الكون الكثير الكثير ، ممنوحة برصيد ضخم من ذخائر الحسن والجمال ، مسكوبة في القلب بكل جلال ودلال ، عائشة في ذلك المهرجان العظيم البديع ، متملية آيات الإحسان والإتقان في كل ما يدرك أو يحس ويلمس بالحواس من الخمس .

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۚ ﴾^١

بداية خلق الإنسان من طين ، تقضي على نظرية أو فرضية النشوء والارتقاء الدارونية أن الأنواع تسلسلت من الخلية الواحدة في أطوار متتالية إلى الإنسان ، وأن هناك حلقات نشوء وإرتقاء متواصلة تجعل الإنسان في أصله المباشر الأول حيواناً بين القردة والإنسان .

وهذا التطور المزعوم ضرب من المستحيل في سنة التكوين ، فهناك

عوامل وراثية كامنة في كل خلية تحتفظ بخصائص نوعها دون تفلّت وتبعثر ،
محتمة أن تظل في دائرة النوع الذي نشأت منه دون تطوّر إلى نوع جديد ، كما
الاستقرار في حالات الخليّات تؤكد ذلك الحفاظ الصارم لنوعياتها في ذواتها .

فالقِطُّ أصله قِط وسيظل - قِط - قِطاً على طول الخط ، وكذلك الكلب
والثور والحصان والقرد والإنسان ، ولا يملك دارون في فرضيته القاحلة
الجاهلة إلّا نفسه وأتباعه أنهم هم - فقط - من القرد ، كما هم عاشوا في
صورتهم الإنسانية قرداً، وحتى إذا صحّ تبدل نوع إلى آخر أم وكان واقعاً ،
فواقع خلق الإنسان الأوّل حسب النصوص القرآنية - وهذه منها - إنه بادئ
من طين ، ولو كان تطوراً من حيوان آخر أم من الخلية البسيطة الأولى لكان
حقّ التعبير ذكره ، وآيات خلقه صريحة أن بدءه من طين دون حيوان آخر أم
شيء سوى طين .

كما وأن خالجة خلق آدم كنسله هو من إنسان قبله ، هذه خارجة عن
صراح الآيات ، وما آية اصطفاؤه آية انتشاله من آخرين : « إن الله اصطفى
آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » (٣: ٣٣) إذ يُكتفى
لإصطفائه أن كانت معه زوجته وولده ، ثم « العالمين » الشامل لهم منذ خلق
آدم إلى يوم الدين يوسّع نطاق اصطفاؤه كزملاءه ، فقد إصطفى الله منذ
البداية إلى النهاية آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين « وهم
النبيون والمعصومون اجمعون ، طيّاً لأدوار الزمان وأنحاء المكان ، جمعاً بين
العالمين ككل ، وجمعاً بني المصطفين عليهم ككل .

هنا « الإنسان » يعم أصله ونسله ، والفصل بين أصله ونسله أن
أصله - وهو آدم الأوّل - بدء من طين « ثم جعل نسله من سلالة من ماء
مهيّن » .

« ماء مهين » هو المني ، و « سلاله » منه هي النطفة ، وهي الدودة المنوية التي تتحول الى جنين ، فليس الماء المهين ب كله نسل الإنسان ، بل سلاله منه هي النطفة الجرثومية .

و « نسله » هنا هو الإنتسالات والتطورات الجنينية التي تخطوها سلالته إلى جنين كامل ، المدلول عليها بـ « سواه » :

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾^١

« ثم » هنا تراخي اكتمال الجنين جسدياً من سلالته ، فلإنها تتحول إلى علقه إلى مضغة إلى عظام وإلى كثير العظام لحماً - « ونفخ فيه من روحه » هنا هو « ثم أنشأناه خلقاً آخر » هناك ، وقد تعم « سواه » الإنسان ككل ، أصله ونسله مهما اختلفت التسويتان ، قفزة من طين في الأولى ، وتطورات الجنين في الأخرى .

ولا تعني « من روحه » بعضاً من روح الله نفسه ، إذ ليس له روح وسواه من أجزاء كونية مخلوقة كخلقه ، وذلك النفخ ولادة وليس خلقاً !

فإضافة الروح إلى نفسه المقدسة هي إضافة تشريفية ، حيث الأرواح المخلوقة درجات ، من نباتية إلى حيوانية إلى جنينية أما هيه إلى إنسانية ، وهذه أعلاها وأرقاها ، لحد تستحق الإنتساب الخاص إلى الله ، كأنها - فقط - هي الأرواح التي خلقها الله .

ثم ولا تقتضي الإضافة أدبياً كون المضاف جزء من المضاف إليه إلا في زاوية واحدة من الأربع في الإضافات ، من إضافة الشيء إلى نفسه كـ « نفسي » وإلى كله كـ « يدي » وإلى مغايره مخلوقاً كنفسه كـ « غلام زيد » أم خالقاً له كـ « روحه » فكيف تقدم زاوية إضافة الجزء إلى كله بين هذه

الأربع، والبراهين الساطعة عقلياً ونقلياً تثبت أن: «ليس كمثله شيء» وأنه «لم يلد ولم يولد» وأنه «ليس هو في خلقه ولا خلقه فيه» فلا تجانس ولا تماثل بينه وبين خلقه أياً كان، روحاً وسواه.

«وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة»... «لكم» هناك «سواه» هناك تعم الإنسان ككل، حيث الإنسان أياً كان، هو قبل نفخ الروح ليست له هذه الثلاث إلا وسائلها أذنأ وعيناً وقلباً، فلما «نفخ فيه من روحه» جعل به هذه الثلاث: السمع والأبصار والأفئدة - فالأولان هما من أهم النماذج في الإدراكات الحسية الخمس، والأفئدة وهي القلوب المتفتدة، هي أهم الإدراكات الروحية، وهذه الثلاث هي التي تتبنى إنسانية الإنسان الكاملة الكافلة لعروجه في درجاته، وخروجه عن دركاته، وأنتم مع كل هذه النعم السابغة: «قليلاً ما تشكرون» مهما كان من قصور أو تقصير.

﴿وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ^١ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ^٢﴾.

«وقالوا» هؤلاء المشركون، الناكرون للوحي والحشر «إذا ضللنا في الأرض...؟» هنا ضمير المتكلم مع الغير «نا - نا» و «هم» تعني شيئاً واحداً وهو الإنسان بجزئيه روحاً وجسماً، فهم يستبعدون «أنا لفي خلق جديد» وُجداً كما كانوا تحولاً عن ضلالهم في الأرض، كأنهم حين يضلون عن أبصار الناضرين وعلمهم، يضلون كذلك عن رب العالمين.

«ضللنا» هنا تعم كل الضلالات الحاصلة للموتى في جزئهم بأجزاءهما، عامة كتناثر الأجسام ورفات العظام، ضلالاً عن البنية الإنسانية والماهية الجسدانية، وضلال الأرواح عن الأبدان إنفصالها عنها، أم وفناءها كما

يزعمون .

وخاصة أن تتبدل أجزاء للنباتات والحيوانات ومن طريقها إلى أجزاء أناسي آخرين ، فقد يضلُّ كلُّ أجزاء الإنسان في أجزاء الآخرين فلا يُحشر - إذاً - بشخصه إلا ضمن الآخرين ، أم يضل بعض أجزاءه فيهم فلا حشر - لو كان - إلا لبعضه ، وقد يعبر عن الأخير بشبهة الأكل والمأكول : « أنا لفي خلق جديد » وقد ضلت أجزاءنا أم نفدت في آخرين ، فالضلال العام يقضي على الحشر العام ، وحتى لو صح العام فالضلال الخاص يحرم البعض عن حشرهم فكيف إذا « خلق جديد » ؟

والجواب أولاً « بل هم ببقاء ربهم كافرون » حيث الإيمان ببقاء الرب ، إيماناً بالقدرة الخلاقة فالإعادة له أهون من البدء ، وبالحكمة العالية فالعود أوجب من البدء ، وبتواتر الحياة والموت في الأحياء والميتات نباتية وحيوانية وإنسانية أما هي من حجج الإيمان ، كل ذلك برهان لا مرد له على إمكانية وضرورة الحياة بعد الموت .

وجواب ثان : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم .. » لا فحسب أن « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها .. » (٤٢: ٣٩) بل و « ملك الموت الذي وكل بكم .. » ثم الملائكة الأعوان ، فمنهم من يتوفون الطيبين « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين » (٣٢: ١٦) وآخرون يتوفون الظالمين : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » (٢٨: ١٦) .

وليس التوفي هو الإمامة فحسب ، بل هو الأخذ وافياً دون إبقاء بعلم وقدرة ، في إمامة أم إنامة ، أم رفع إلى السماء كما في المسيح « إني متوفيك ورافعك إلي » (٥٥: ٣) .

ففي توفي الموت إزهاق الأرواح عن الأبدان ، دون أن تتفقت عن المتوفين أو تفضل عنهم بضلال عام أم خاص ، فكل الأجزاء للكيان الإنساني محفوظة في علم ملك الموت وهي في قبضته أينما حلت وضلت ، ولا سيما الأجزاء الأصلية لكل إنسان التي فيها يحشرون ، فإنها مهما ضلت في الأرض أو أصبحت أجزاء لآخرين ، ليست لتفضل عن ملك الموت ، ولا لتصبح أجزاء أصلية لآخرين .

كل الأجزاء الإنسانية نفسية وجسمانية هي محفوظة محفوظة بعلم رب العالمين ، مقبوضة بقدرته ، فلا تعزب عن علمه ولا عن قدرته في النشآت الثلاث: دنياً وبرزخاً وعقبى ، بل و « يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » وكالة ربانية أن يتوفاكم : أخذاً وافياً دون عزوب ولا غروب لكل أجزاءكم ، فمهما ضلت عامة أو خاصة عنكم وعن الآخرين ، ليست لتفضل عن رب العالمين ، بل ولا عن « ملك الموت الذي وكل بكم » ولا عن الملائكة الأعوان ، فالله هو المتوفي أصلياً ، وملك الموت يتوفاكم فرعياً ، والملائكة الأعوان بفريقهم يتوفونكم كأعوان لوكيل الأموات :

و « هل يحس به أحد إذا دخل منزلاً أم هل تراه إذا توفي أحداً ، بل كيف يُتوفي الجنين في بطن أمه ، أيلج عليه من بعض جوارحها ، أم الروح أجابته بإذن ربها ، أم هو ساكن معه في أحشائها ، كيف يصف إليه من يعجز عن صنعة مخلوق مثله » ؟^(١)

ولقد يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله) قوله « الأمراض والأوجاع كلها يريد الموت ورسل الموت ، فإذا حان الأجل أتى ملك الموت

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) .

بنفسه فقال : يا أيها العبد كم خبر بعد خبر ، وكم رسول بعد رسول ، وكم بريد بعد بريد ؟ أنا الخبر الذي ليس بعدي خبر ، وأنا الرسول أجب ربك طائعا أو مكرها ، فإذا قبض روحه وتصارخوا عليه قال : على من تصرخون وعلى من تبكون ، فوالله ما ظلمت له أجلاً ولا أكلت له رزقاً ، بل دعاه ربه ، فليكن الباكي على نفسه ، وإن لي فيكم عودات وعودات حتى لا أبقي منكم أحداً (١) .

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٢٥ عن المجمع روى عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : وفيه عن الفقيه سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله) كيف يتوفى ملك الموت المؤمن ؟ فقال : إن ملك الموت ليقف من المؤمن عند موته موقف العبد الذليل من المولى فيقوم هو وأصحابه لا يدنو منه حتى يسده بالتسليم ويبشره بالجنة « وفيه عن عوالي اللآلي - في الحديث ان إبراهيم (عليه السلام) لقي ملكاً فقال له من أنت ؟ قال : أنا ملك الموت ، فقال : أتستطيع أن تربني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : نعم أعرض عني فأعرض عنه فإذا شاب حسن الصورة حسن الثياب حسن الشمائل طيب الرائحة فقال : يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن إلا حسن صورتك لكان حسبه ثم قال : هل تستطيع ان تربني الصورة التي تقبض فيها روح الفاجر ؟ فقال : لا تطيق فقال : بل ، قال : أعرض عني فأعرض عنه ثم التفت اليه فإذا هو رجل أسود قائم الشعر متن الرائحة اسود الثياب يخرج من فيه ومن مناخره النيران والدخان فغشي على إبراهيم ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى حاله الأولى فقال : يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر إلا صورتك هذه لكفته .

وفي الدر المنثور ٥ : ١٧٣ - أخرج الطبراني وأبو نعيم وابن منده كلاهما في الصحابة عن الخنزرج سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول : ونظر إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال يا ملك الموت أرفق بصاحبي فإنه مؤمن ، فقال ملك الموت طب نفساً وقر عيناً واعلم بإني بكل مؤمن رفيق ، واعلم يا محمد إني لأقبض روح ابن آدم فإذا صرخ صارخ قمت في الدار ومعي روحه فقلت ما هذا الصارخ والله ما ظلمناه ولا سبقنا أجله ولا استعجلنا قدره وما لنا في قبضته من ذنب فإن ترضوا بما صنع الله تؤجروا =

ومن النفوس ما لا يقبضها إلا الله ومنها ما يقبضها ملك الموت نفسه ،
ومنها ما يقبضها الملائكة الأعوان وإذا كان الله هو الذي يقبض ارواح بعض
الشهداء فالرسول (صلى الله عليه وآله) وذووه أخرى بذلك وأولى (١) .

« قل يتوفاكم » هكذا فلا مقلت - إذا - عن حيطته ، ولا مغلط في علمه
وقدرته ، ولا ضلة أو زلة في توفيه ، « ثم » بعد اكتمال النشأة البرزخية « إلى
ربكم » الذي رباكم وتوفاكم « ترجعون » في خلق جديد كما الأول « بل هو
أهون عليه » لو كان عنده هين وأهون .

والرجوع إلى الرب هنا رجوعان ، رجوع الحياة ، ورجوع للحساب
فالثواب أو العقاب ، و « ربكم » تعني هنا ربوبيته الجزاء الحساب قضية
عدله ، كماله ربوبية النشأة الأولى قضية فضله .

ليست هناك مشكلة شائكة تحول دون الحشر إلى الله « بل هم بلقاء
ربهم كافرون » فإنما الدافع الأصيل لاختلاق هذه الشبهات والإستبعادات هو
الكفر بلقاء ربهم ، حيث يلقي على أنفسهم ظل الشك والإعتراض على الأمر
الواضح الذي وقع مرة في خلقهم ، ويقع ما هو قريب منه في كل لحظة ،

«وان تسخطوا تأثموا وتؤزروا وأن لنا عندكم عودة بعد عودة فالحذر الحذر وما من اهل
بيت شعر ولا مدر بر ولا فاجر سهل ولا جبل إلا أنا اتصفحهم في كل يوم وليلة حتى أنا
اعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم والله لو أردت ان اقبض روح بعوضة ما قدرت
على ذلك حتى يكون الله هو يأذن بقبضها .

(١) الدر المنثور ٥ : ١٧٣ - أخرج ابن ماجة عن أبي أمامة سمعت رسول الله صلى الله عليه
وآله يقول : إن الله وكل ملك الموت يقبض الأرواح إلا شهداء البحر فإنه يتولى قبض
أرواحهم .

ومن ضرورة العدل والحكمة الربانية وقوعه مرة أخرى هي أخرى من كل ما وقع .

﴿ ضللنا في الأرض ﴾ ؟!

وفي رجعة أخرى إلى هذه الشبهة وبصورة أوسع ، قد يتصور الضلال في الأرض ، الذي يُستبعد معه أو يستحيل « خلقٌ جديد » كالتالية :

١- ضلال الإنعدام ؟ وإعادة المعدوم ممتنعة ! ولكن الموت ليس انعداماً ، إنما هو انفصال الروح عن البدن الدنيوي باستمرار إتصاله بالبدن البرزخي ، ثم تحول الأكثرية الساحقة من أبدانها رفاتاً ورماداً ، وليس المُعاد إلا الروح حيث يُعاد إلى البدن بعد خلقه جديداً مرة أخرى .

٢ - ضلال الأبدان في أبدان أخرى تحولاً إلى نباتات وحيوانات وأطعمة لأناسي آخرين ، ثم ضلال الأرواح في أبدان أخرى تناسخاً ، كعملية مستمرة في الأموات والأحياء ؟

لكن الأرواح لن تضل في أبدان أخرى بل تظل أرواحاً لأبدانها التي انفصلت عنها قضية الحكمة العادلة الربانية ، ثم الأبدان لها مختلف الأجزاء ، الجزء الجرثومي الأم وهي النطفة التي خلقت منها ، ثم الأجزاء المكتملة له العائشة معه طول العمر ولا سيما في دور التكليف ، ثم الأجزاء غير الأصلية التي لها دور التغذية والتنمية ، سواء أكانت من أجزاء الأموات ، أصلية أو فرعية ، أماهيه من أجزاء غير إنسانية .

فالأجزاء التي لا بد أن تخلق في المعاد مرة أخرى لتجزى بالأرواح جزاءها الأوفى ، هي التي تعيش مع الأرواح في دور التكليف ، لتذوق الأرواح وبال تخلفاتها ، وتنال منال تعبداتها ، سواء في أفعالها بواسطة الأعضاء أم سواها كالنيات والاعتقادات .

فهذه الأجزاء الأصلية مهما ضلّت عندنا في أبدان وسواها ، لن تصبح أجزاء أصيلة لأبدان آخرين ، ولن تفضل عن علم الله وقدرته ، فهي تُخلق مرة أخرى فتعاد الأرواح فيها « لتجزى كل نفس بما تسعى . . » « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم . . » أخذاً وافياً لما يعاد من أرواح وأجساد دونما تفلّت لها ولا تفلّت عنها ، فالمعاد في المعاد إثنان : عود الصورة الماثلة للأجزاء الأصلية البدنية ثم عود الأرواح بأبدانها البرزخية إليها .

ثم لا ضرورة في إعادة سائر الأجزاء غير الأصلية ، بل هي مستحيلة في هذه التي كانت أصيلة لآخرين حيث يظل اصحابها بلا أبدان إذا ضلت في أبدان آخرين .

فالمعاد حسب ما يرسمه القرآن وتقبله الفطرة والعقلية الانسانية والإيمانية ، ليس فيه ضلالٌ للأجزاء الأصلية للإنسان أرواحاً وأبداناً ، ولا ترد الشبهات حول هذا المعاد عن بكرتها ، وليست الأقاويل المشركة ، أو الفلسفية الطائفة إلا حول معاد تخيل إليهم فاضطروا إما إلى نكرانه أم تأويله ، أم تورطاً في قاله وقيله ، ومعاد القرآن في غنى عن كل قال فيه وقيله ، إذ لا ترؤي غليلاً ولا تشفي غليلاً ! .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ ١٢ .

« لو » هنا في موقف الترجي أن يرى رسول الهدي (صلى الله عليه وآله) « إذ المجرمون » وهم الناكرون ليوم الحساب « ناكسوا رؤوسهم » إطفاء وطأطة في ذل وإنكسار « عند ربهم » في يوم الرب وموقف حسابه بهول المطلع ، قائلين « ربنا أبصرنا وسمعنا » آياتك في الأفاق وفي أنفسنا بعد إذ عمينا وصممنا يوم الدنيا ، فلم يبق لنا بعد صالح الإيمان إلا صالح

أعمال الإيمان « فارجعنا » الى الحياة الدنيا « نعمل صالحاً » لما أبصرنا وسمعنا
 فـ « إنا موقنون » لا نحتاج بعدُ إلى تحصيل اليقين ، ولكن لات حين مناص وقد
 فات يوم خلاص « ولوردوا لعادوا لما نهو عنه وإنهم لكاذبون » (٢٨: ٦) فـ
 « إنها كلمة هو قائلها » (٢٣: ١٠٠) وحتى إذا صدقوا في وعدهم فلا رجوع
 بعد تمام الحجة ووضوح المحجة : « وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل
 صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير
 فذوقوا فيها للظالمين من نصير » (٣٧: ٣٥) .

ويا له من مشهد خزي ، إقراراً بالحق الذي جحدوه ، وإعلان اليقين
 بالذي انكروه ، فطلباً للعودة حتى يجبروه ، ولكنه كله بعد فوات الأوان حيث
 لا يفيد إيقان بإعلان وغير إعلان ! وقد تعذر موقفهم المخزي يوم الدين
 « إنهم لكاذبون » إذ تمت عليهم الحجة فتركوا المحجة ، وهم أولاء ليسوا إلا
 أنفسهم لورجعوا^(١) .

وذلك من خلفيات الاختيار ، والدنيا على ضوئه هي دار الاختبار
 وليس الإجبار بمشية الملك الجبار :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
 مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾^{١٣} .

« لو » تحيل هذه المشية المسيرة إلى الهدى قضية الحكمة في الاختبار

(١) الدر المنثور ٥: ١٧٤ - أخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله
 (صلى الله عليه وآله) يقول - إن الله يعتذر إلى آدم يوم القيامة بثلاثة معاذير يقول ...
 ويقول : يا آدم إني لا أدخل أحداً من ذريتك النار ولا أعذب أحداً بالنار إلا من قد
 علمت في سابق علمي إني لو رددته إلى الدنيا لعاد إلى شر ما كان فيه لم يراجع ولم
 يعتب ...

وبالاختيار ، و « لآتيننا . . » تبين لمشيئته الطليقة بالنسبة لكل ممكن ذاتي ، ولكن في ذلك الإيتاء خلاف الحكمة اللائقة بشأن الربوبية للمربوبين ، و « هداها » هي الهدى المطلوبة لكل نفس ، فحين تؤق هداها دون سعي منها بطل التكليف والإختبار ، مهما ظل الاختيار باقياً على الهدى المؤتاة لكل نفس أم لم يظل : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً » (٩٩: ١٠) وليس في ترك هذه المشية المسيرة ترك لبالغ الحجة « لله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » (١٤٩: ٦) .

وترى أنه تعالى لم يؤت كل نفس هداها ؟ وقد هداها بمثلث الفطرة والعقل والشرعة ! إنها ليست إلآ دلالات الهدى دون واقعها الحاصل بالاستدلال بها واقتفاء آثارها ، فالهدى الدلالية شاملة كاملة ، وواقع الهدى ليس إلآ لمن اهتدى ، و « هداها » إنما هي واقعها الذي لا يضل عنها مهديها .

« ولكن » لم نشاء ولن بل « هديناه النجدين » - « من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ولأن الأكثرية الساحقة من المكلفين كافرون ، لذلك « حق القول مني لآملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

وتراه قولاً يستغرق كل الجنة والناس ؟ ومنهم مؤمنون ! أم يخص الكافرين ؟ فلماذا « أجمعين » ! قد يعني « أجمعين » ملأ ورودها « إن منكم إلآ واردها كان على ربك حتماً مقضياً ، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً » (٧١: ١٩) .

أم يعني ملأهم ورد العذاب كما وعد « قال فالحق والحق أقول لآملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » (٨٥: ٣٨) وذلك بعد ما هددهم الشيطان إذ : « قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلآ عبادك منهم المخلصين » (٨٣) .

صحيح أن الله آتى غير النفوس المكلفة من حيوان وسواها هداها ،
التي تهتدي إليها ، ولكن المختار لهذا الكائن المختار أن يختار طريقه
هدى أو ضلالة ، وهو مهدي بالفطرة والعقل وهدى الشرعة ،
ليؤدي دوره الكامل الكافل لكل أدوار الكمال بين الخليقة ، حيث الوصول
الى الكمال في عرقلة السبل أصل وأوصل إلى المآل وكما أصبح رسول الهدى
« أول العابدين » وأفضل العارفين ، وحتى من الملائكة الكروبيين :

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾

« فذوقوا » عذاب الخزي « بما نسيتم » نسيان التغافل التجاهل التناسي
« لقاء يومكم هذا » الذي كنتم به تكذبون « فإنا نسيناكم » كما نسيتمونا :
« الذين اتخذوا دينهم هواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا
لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون » (٧: ٥) « فإنا نهم عذاب شديد بما
نسوا يوم الحساب » (٣٨: ٢٦) .

نسيان بنسيان جزاء وفاقاً وأين نسيان من نسيان ، فكما أن هذا النسيان
تناس عامد دون المرفوع من النسيان ، كذلك الله يتناساهم في عالم رحمته ،
وإذ لا رحمة فهو العذاب « وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » إخلاداً إلى
الحياة الدنيا وإطمئناناً بها .

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِعَٰثِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا

سَجْدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ

جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا

رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٥﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٧﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿١٩﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرَّةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٤﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كُرْ

أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ^{٢٦}
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا
 نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ
 مِنْهُ أُنْعَمُ لَهُمْ وَانْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى
 هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ
 لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٣٠﴾
 فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣١﴾

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ١٠ .

« خروا سجدا » لها مرحلتان ، عامة « إذا ذكروا بها » لكل سماع أو
 إستماع للقرآن ، والسجود هنا هو غاية الخضوع تذكراً بالقرآن ، وأدناه
 الإستماع له والإنصات إليه كما في آية (٢٠٤: ٧) وآية الأسرى : « .. إن
 الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً » (١٠٧) .
 ومرحلة خاصة هي السجود بالأركان إضافة إلى الجنان حين إستماع أو
 سماع القرآن ، وهذه من آياته كآية الحج والعلق والنمل إجماعاً ، وآيات
 أخرى دلالة كما الأسرى وأضرابها ، بل ولا فرق دلالية بينها وبين آية
 الأسرى ، فكل الآيات الأمرة بالسجود هي في الحق من العزائم الواجبة
 السجود لإستماعها أو سماعها على الأقوى .

« إنما » هنا حصر بصادق الإيمان ، أن التفكير بآيات الله يخرّهم سجداً لله مسبحين بحمد ربهم دوغماً إستكبار ، مما يدل - لأقل تقدير - على وجوب إستماع القرآن ككل ، فإنه أقل سجود له وخضوع ، وتركه - إذاً - خلاف واجب الإيمان .

ولأنها صورة وضيئة للأرواح المؤمنة الشفيفة الحساسة اللطيفة المرتجفة من خشية الله وتقواه حين تُذكر بآيات الله ، حيث تتلقاها بتوقّر الحس واستيقاظ القلب وإستنارة الضمير .

و « سجداً » عرض لحالتهم الخاضعة : الخاشعة في سمع وعقل وقلب أمام ذكريات القرآن ، بل هم بكل حوارهم وجوانحهم يسجدون له صاغين إليه ، حاصرين حواسهم وإحساساتهم وإدراكاتهم فيه .

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾^{١٦}

« المضاجع » هنا هي فراشات ومكانات النوم ، وتجايف الجنوب عنها هو تنحي الشقق عن مضاجعهم ، لا أنهم يأخذون مضاجعهم متجايفين فيها ، وإنما « عن مضاجعهم » كيلا يأخذهم النوم عن الصلاة الأخرى عشاء أو عصراً ، أم وبعد العشاء عن صلاة الليل^(١) حيطة على فرض الأولين ونقل

(١) نور الثقلين ٤: ٢٢٦ عن تفسير القمي حدثني أبي عن عبد الرحمن بن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ما من عمل يعمل العبد إلا وله ثواب في القرآن إلا صلاة الليل فإن الله عز وجل لم يبين ثوابها لعظيم خطره عنده فقال جل ذكره : « تتجافى جنوبهم » إلى قوله - نزلاً بما كانوا يعملون » .

وفيه عن العلل بأسناده إلى أبي عبيدة الخذاء عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال في الآية : لعلك ترى ان القوم لم يكونوا ينامون ، قال قلت : الله ورسوله وابن رسوله

الأخرى كيلا تفوت أو تتأخر عن أوقاتها .

فمن بعض الأصحاب قال : ما رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) راقداً قبل العشاء ولا متحدثاً بعدها فإن هذه الآية نزلت في ذلك (١) وكما يروى عنه (صلى الله عليه وآله) فيها قال : هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم .. « (٢) » .

اعلم ، قال فقال : لا بد لهذا البدن ان تريحه حتى يخرج نفسه فإذا خرج النفس استراح البدن ورجع الروح قوة على العمل فلما ذكرهم « تتجافى جنوبهم » .. « أنزلت في أمير المؤمنين (عليه السلام) وأتباعه من شيعة بنامون في أول الليل فإذا ذهب ثلثا الليل أو ما شاء الله فزعوا إلى ربهم راغبين مرهين طامعين فيما عنده فذكر الله في كتابه فأخبرك بما أعطاهم أنه أسكنهم في جواره وأدخلهم جنته وآمنهم خوفه وأذهب رعبهم ، قال قلت : جعلت فداك إن أنا قمت في آخر الليل أي شيء أقول إذا قمت ؟ قال : قل الحمد لله رب العالمين وآله المرسلين والحمد لله الذي يحيي الموتى ويبعث من في القبور فإنك إذا قلت ذهاب عنك رجز الشيطان ووسواسه إنشاء الله تعالى أقول : ورواية أهل البيت متظافرة في تفسير الآية بصلاة الليل وهذا من باب التفسير بالمصداق الخفي ، وإلا فكيف ينحصر الإيمان الصحيح بصلاة الليل وليست إلا مندوبة ؟ .

وقد يروى في تفسير الآية عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة .

(١) الدر المنثور ٥ : ١٧٤ - أخرج عبد الرزاق في المصنف وابن مردويه عن أنس قال : ... وفيه عن أنس قال : نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي (صلى الله عليه وآله) فنزلت فينا : تتجافى جنوبهم عن المضاجع ..

(٢) المصدر - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال : تتجافى ... فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلب عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير ويكمل الكبير .

وقد تعني « تتجافى جنوبهم » إضافة إلى ترك النوم تداوم الصلاة وذكر الله بين الصلاتين ، كما تلمح له « يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » وكذلك خدمة خلق الله: « وما رزقناهم ينفقون » .

وعلى أية حال فهي من آيات الفصل بين العشائين ، أم والظهيرين كما دلت عليه آية النور .

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٧ .

هذا ! وفي حديث قدسي قال الله تعالى : اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . . (١) .

و « نفس » هنا هي النفس المؤمنة المراعية حق الله غير المرائية في جاهرة الأعمال لله ، كما « هو العبد يعمل سراً أسره إلى الله لم يعلم به الناس فأسره الله له يوم القيامة قرّة أعين » (٢) .

مركز تحقيق كتاب تيسر علوم إسلامي

(١) الدر المنثور ٥: ١٧٦ - أخرج جماعة عن أبي هريرة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال قال الله تعالى : . . . وروى مثله عنه (صلى الله عليه وآله) سهل بن سعد وأصاف : ثم قرأ « تتجافى جنوبهم - الأيتين .

وفيه عنه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال : والذي نفسي بيده لو أن آخر أهل الجنة رجلاً أضاف آدم فمن دونه ووضع لهم طعاماً وشراباً حتى يخرجوا من عنده لا ينقص ذلك مما أعطاه الله .

(٢) المصدر أخرج جماعة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال : يوقى بحسنات العبد وسيئاته . . فقلت : أفرأيت قوله : فلا تعلم نفس . . قال : هو العبد . . .

وفيه أخرج جماعة عن المغيرة بن شعبه يرفعه إلى النبي (صلى الله عليه وآله) أن موسى (عليه السلام) سأل ربه فقال : رب أي أهل الجنة أدنى منزلة ؟ فقال : رجل

ثم « نفس » نكرة في سوق النفي تستغرق كل نفس ، و « أخفي » ماضياً دليل صارم أن « قرة أعين » لهم كائنة معهم في ملكوت أعمالهم يوم الدنيا ، وإلا فكيف « أخفي » غير الموجود ؟ وذلك من براهين أن الجزاء هو نفس العمل بملكوته ، إن خيراً فبفضل الله مزيد ، وإن شراً فبعدل الله على قدره ولا يزيد .

و « ما » المجهول لكل نفس تعم كلا كيف و الكم « من قرة أعين » و « اعين » دون « عينيها » تقرر أن المخفي لكل نفس هو قرة أعين كل نفس « جزاء بما كانوا يعملون » أن زاد الله في ملكوت أعمالهم الصالحة مزيدات ومزيدات .

وإنه تعبير عجيب يشي بمدى الخفاوة الربانية لهؤلاء الأكارم حيث يتولى الله ما يخفيه لهم بنفسه المقدسة إعداد المذخور لهم عنده ، الذي لا مطلع لأحد فيه إلا له ، فيظل مستوراً لهم عنده حتى يوم القيامة ، ثم يكشف عنه عند لقاءه هناك . . .

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ ١٨ .

استفهام إنكاري عن هذه التسوية الظالمة بين من كان مؤمناً ومن كان فاسقاً عن الإيمان ، لا كل فاسق إذ يجتمع الفسق العملي مع الإيمان ، أم في

يجيء بعدما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له ادخل فيقول كيف ادخل وقد نزلوا منازلهم واخذوا أخذاتهم فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ما كان للملك من ملوك الدنيا فيقول : نعم أي رب قد رضيت ، فيقال له : فإن لك هذا وعشرة أمثاله معه ، فيقول : أي رب رضيت فيقال له : فإن لك مع هذا ما اشتهدت نفسك ولذت عينك ، فقال موسى (عليه السلام) أي رب فأني أهل الجنة أرفع منزلة ؟ قال : أياها أردت وسأحدثك عنهم إن غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على

تسوية الجزاء عند البعث^(١) ، بل « لا يستوون » فليكن هناك بعث فيه يحاسبون^(٢) « لتجزى كل نفس بما تسعى » :

﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٩ .

« النُّزُل » ما يُعدُّ للنازل ، وهو يوم الحساب بين ثواب وعذاب ، فنزل الثواب هو للذين آمنوا وعملوا الصالحات « كانت لهم جنات الفردوس نزلاً » (١٠٧:٨) ونزل العذاب للذين كفروا وعملوا الطالحات : « إنا اعتدنا جهنم

قلب بشر قال ومصدق ذلك في كتاب الله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين .

(١) الدر المنثور ٥ : ١٧٨ عن قتادة في الآية قال : « لا في الدنيا ولا عند الموت ولا في الآخرة .

(٢) المصدر أخرج أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني والواحدي وابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عتبة لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) أنا أحد منك سنناً وبسط منك لساناً وأملأ للكتيبة منك فقال علي (عليه السلام) : أسكت فإنما أنت فاسق فتزلت « أفمن كان مؤمناً . . . » يعني بالمؤمن علياً وبالفاسق الوليد بن عتبة بن أبي معيط .

وأخرج مثله ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار، وابن أبي حاتم عن السدي وعن عبد الرحمن ابن أبي ليلى « أقول : إتفقت كلمة المخرجين حول هذه الآية على ما نقلناه عنهم قولاً واحداً ، كما اتفقت روايات أصحابنا في ذلك قولاً واحداً ، وقد أنشأ حسان في ذلك شعره :

انزل الله والكتاب عزيز	في علي وفي الوليد قرآنأ
فتبوء الوليد من ذاك فسقأ	وعلى مبيوء إيمانأ
ليس من كان مؤمناً عرف الله	كمن كان فاسقأ خوانأ
سوف يجزى الوليد خزيأ ونارأ	وعلي لا شك يجزى جنانأ

للكافرين نزلاً » (١٨: ١٠٢). « أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم »
(٣٧: ٦٢) .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ٢٠ .

« فسقوا » هنا فسق عن كلا الإيمان وعمل الصالحات ، فلا تشمل فساق المؤمنين إذ ليسوا من الخالدين أبداً مهما دخلوا النار .

و « كلما . . » هنا بيان لأمد الخلود في مأوى النار أنه ما دامت النار :
« . . فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميم يُصْهِرُ به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » (٢٢: ٢٢) .

صحيح أن المؤمن العادل لا يسوئ بالمؤمن الفاسق في أية نشأة من النشآت ولكن الفاسق هنا يقابل المؤمن ككل ، فهو الفاسق عن الإيمان ، وكما يؤكد « وأما الذين فسقوا فمأواهم النار . » وليست النار مأوى فساق المسلمين خلوداً فيها مهما دخلوها من يستحقها .

أفهم يستوون هنا ويوم الدين في ميزان الحق والعدل المطلق ، كلا « لا يستوون » سواء في عدم البعث لو لم يكن ، أم في شرعة الحق يوم الدنيا .
ولا تعني « كلما » هنا وهناك الكل الأبدي اللانهائي ، وإنما هو ما دامت النار ، فإذا فنت النار بمن فيها فلا دور للآية في نفي الخروج وإيجاب الإعادة لمكان نفي الموضوع ناراً وأهل نار .

نعم لو دلت دلالة قاطعة على الأبدية اللانهائية للنار ، لصدق الخلود اللانهائي بهذه الصيغة ، ولكننا الأدلة عقلية ونقلية تثبت فناء النار بمن فيها ، وتصدق على غرارها هذه الشرطية « كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها »

وهي بطبيعة الحال ما دام الموضوع .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴾ ٢١ .

« هم » هنا الفاسقون ، أوعدهم الله أن يذيقهم من العذاب الأدنى
دون العذاب الأكبر ، فالعذاب الأكبر هو عذاب القيامة دون ريب ، فما هو
العذاب الأدنى ؟

هل هو عذاب القبر ^(١) ؟ ورجاء الرجوع عن فسقهم فيه غير وارد !
أم عذاب في الرجعة ؟ ^(٢) والمعذبون فيها هم من محض الكفر محضاً ولا
رجاء لرجوعه ، إلا اشتداد كفره ! وعديد من الآيات تحيل الرجوع إلى الحياة
الدنيا « لعلني أعمل صالحاً فيما تركت » !

أم هو عذاب الإستئصال لمن يستحقه ؟ ولا مجال للرجوع - إذأ - إلى
الإيمان فإنه الموت بالعذاب فكيف يرجعون ؟ !

إنه « هي المصائب والأسقام والأنصاب عذاب للمسرف في الدنيا » ^(٣)
و « هي لنا زكاة وطهور » ^(٤) وقد يكون من العذاب الأدنى الدابة

(١) المجمع وقيل هو عذاب القبر عن مجاهد وروي أيضاً عن أبي عبد الله
(عليه السلام) .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٢٣١ عن تفسير القمي قال في الآية العذاب الأدنى عذاب الرجعة
بالسيف ، معنى قوله : لعلهم يرجعون - يعني فإنهم يرجعون في الرجعة حتى يعذبوا -
أقول « لعلهم يرجعون » هي نتيجة ذوق العذاب المترجاة دون العكس المختلق هنا .

(٣) الدر المنثور ٥ : ١٧٨ - أخرج ابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني قال سألت
عبادة بن الصامت عن هذه الآية فقال سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله) عنها فقال :
هي .. قلت : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فما هي لنا ؟ قال : زكاة وطهور .

فكل عذاب يبقى بعده المعذب ويرجى رجوعه عن فسقه فهو العذاب الأدنى ، ونفس ذلك العذاب حين يشمل المؤمن هو له زكاة وطهور ، فأما عذاب الرجعة وعذاب الإستئصال فهما عوان بين العذاب الأدنى والأكبر .

وفي الحق إن العذاب الأدنى رحمة لمن يرجعون عن فسقهم ، وللمؤمنين ترفيعاً لدرجاتهم ، وزحمة على من لا يرجعون .

وهكذا يتراءى ظلال الرحمة من وراء العذاب الأدنى ، قارعة توقظهم وتسيقظ فطرهم وفكرهم حيث يردهم من أكبر العذاب إلى الصواب والثواب .

كما ويتراءى ذل العذاب الأكبر من وراء العذاب الأدنى لمن ظلم وأعرض :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ ٢٢ .

ذلك المجرم اللدود الذي لا ينفعه التبشير ، ولا ينذره التنذير ، ولا يوقظه العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ، بل ويعرض عن آيات ربه إذا ذكّر بها ، « إنا من المجرمين منتقمون » قد نجمع له العذاب الأدنى هنا ، إلى الأوسط كعذاب الإستئصال في الرجعة أو قبلها ، وفي البرزخ ، والأكبر في الأخرى ، لأنه بالغ في الظلم بآيات الله أسفل دركاته .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ٢٣ .

(١) المجمع في الآية : والأكثر في الرواية عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام) أن العذاب الأدنى الدابة والدجال .

هنا عرض إيتاء الكتاب لموسى تسليّة لحاظر النبي (صلى الله عليه وآله) الجريح من تكذيب قومه ، فلأنه أشبه النبيين به في كتابه وشرعته ورسالته ووحيه ، وأنه يصدقهم أهل الكتاب كلهم ، يأتي هنا بذكره وإيتاءه الكتاب كما آتاه ، وجعله هدىً لبني إسرائيل كما جعله هدىً للعالمين .

وفي إلتقاء الرسولين والرسالتين نزول كل مرة من لقاء الله هنا وفي يوم الله ، والتفريع في « فلا تكن . . » على « لقد آتينا . . » يقرب هذا المعنى بين ما قد يُعنى ، فكما الرسالة نفس الرسالة والرسول موسى نفس الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) ، والكتاب الرسالي نفس الكتاب مهما كانا درجات ، فاللقاء .- إذاً - نفس اللقاء ، كل يلاقي ربه بما تأذى في سبيله ، وتصبر على عبثه وجهله في حملها .

وأما لقاء موسى ليلة المعراج أم بعد الموت ، ولقاء موسى إياه كذلك ، فلا صلة له بإيتاء موسى الكتاب ، إذ ليس لزامه ذلك اللقاء ، بل هو لقاء الله المذكور في كل كتابات السماء ، وكتاب موسى نموذج بارز منها قبل القرآن ، فليقرن بالقرآن كما قرن نبيه بنبي القرآن ، والتشابه بينهما في القضايا الرسولية والرسالية أكثر من كافة المرسلين .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ ٢٤ .

« وجعلنا منهم » بني إسرائيل « أئمة » رسلاً « يهدون بأمرنا » تكويناً وتشريعاً ، فإنهم حملة أمر الله ، ويهدون دلالة وإيضالاً إلى الهدى بأمر الله « لما صبروا » فالصبر في قضايا الإيمان على رزاياه هو من معدّات الإمامة والهداية بأمر الله كما « وكانوا بآياتنا يوقنون » .

فالإيقان بآيات الله ، والصبر في مسير الإيقان ومصيره ، هما جناحان يطير بهما صاحبه إلى سماء الرحمة الربانية حتى يصير إماماً للناس .

وكلما ازداد الإبتلاء في الله ، والنجاح فيه تجاه أمر الله، إتسعت دائرة الإمامة وازدادت قوة وبهوراً وكما في إبراهيم : « وإذا ابتلي إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً . . » وكذلك من ذرية إبراهيم حسب درجاتهم « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » (٧٣: ٢١) وأفضل الأئمة في ذريته هو الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) وقد جعله الله إماماً عليه وعلى كافة الأئمة رسلاً ونبیین وسواهم من المعصومين (١) .

« جعلناهم . . بأمرنا » دليل صارم لا مرد له أن الإمامة ليست إلا بجعل الله ، كما الهداية من الإمام ليست إلا بأمر الله « لا بأمر الناس يقدمون

(١) نور الثقلين ٤: ٢٣٢ في أصول الكافي بسند متصل عن حفص بن غياث قال قال أبو عبدالله (عليه السلام) في حفص أن من صبر صبراً قليلاً وإن من جزع جزعاً قليلاً ثم قال : عليك بالصبر في جميع أمورك فإن الله عز وجل بعث محمداً (صلى الله عليه وآله) فأمره بالصبر والرفق - إلى قوله - فصبر حتى نالوه العظام فضاق صدره فأنزل الله عز وجل « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » ثم كذبوه ورموه فحزن لذلك فأنزل الله عز وجل « قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإتهم لا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَمْجِدُونَ . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا » فالزم النبي (صلى الله عليه وآله) نفسه الصبر فتعدوا وذكر الله تبارك وتعالى وكذبوه فقال : قد صبرت في نفسي وأهلي وعرضي ولا صبر لي على ذكر إلهي فأنزل الله عز وجل : « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون » فصبر النبي (صلى الله عليه وآله) في جميع أحواله ثم بشر في عثرته بالأئمة ووصفوا بالصبر فقال جل ثناءه « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » فعند ذلك قال (صلى الله عليه وآله) : الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد .

أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم «^(١) وتأويل هذه الآية يأتي في أئمة المسلمين بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) بأحرى وأولى لأنهم أعلى منهم وأقوى .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ٢٥ .

طمأنة أخرى لقلبه المترجرج الجريح من بأس قومه الالقاء ، « إن ربك » الذي رباك بهذه التبرية الفائقة الرسالية « يفصل بينهم » أولاء المختلفين في الحق الذي آتيناك « يوم القيامة » فصلاً واضحاً ناصعاً لا ريب فيه ولا شك يعتريه ، واقعاً لا قبل له ، مهما فصل هنا بينهم بآياته البينات ، ولكنهم « كانوا فيه يختلفون » وأما هناك ففيه فصل القضاء الحاسم حيث يزيل كل الخلافات والإختلافات فيعلمون أن الله هو الحق المبين .

﴿ أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ ٢٦

إذا لم يهد لهم إنذار المنذرين « أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ » ذلك الواقع المبين : « كم أهلكنا من قبلهم من القرون » الماضية المكذبة بآياتنا، وهم الآن « يمشون في مساكنهم » - « فتلک مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً » (٥٨: ٢٨) حيث « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » (٤٥: ١٤) .

« إن في ذلك » السير الماشي والمشي السائر المبصر « آيات » لقوم

(١) نور الثقلين ٤: ٢٣٣ عن تفسير القمي بسند عن جعفر محمد عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) قال : الأئمة في كتاب الله إمامان : قال الله تعالى : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا » لا بأمر الناس ...

يبصرون « أفلا يسمعون » إلى هذه الذكريات :

سمع الإعطاء الإيقاظ ؟ . أم لا يسمعون إلى أخبار الهلكى في القرون التي مضت ؟ وإذا لم يروا إلى الموق كيف تحمى يوم الأخرى فجولة في الأرض الميتة حين تدب فيها الحياة :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ٢٧ .

« الأرض الجرز » هي الخاوية عن الإنبات الخالية عن النبات لعدم الماء ، ثم « أنا نسوق الماء » سوقاً جويّاً ، أم برياً من ظاهر الأرض أم باطنها « إلى الأرض الجرز » فلما اجتمع الماء الميت مع الأرض الميتة « فتخرج به زرعاً » حياً من جمع هذين الميتين « تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » ذلك الإحياء المتواتر ليل نهار .

فهذه الأرض الميتة الجافة البور ، هم يرونها يسوق الله إليها الماء المندي المحيي ، فإذا هي بممرعة بالزراع ممتعة بالحياة ، مما يفتح نوافذ القلب المغلقة لاستجلاء الحياة بعد الممات ، وتحيش مشاعر الإنسان تقبل تلك الحياة واستقبالها بعد الممات ! :

كذلك الله يسوق ماء الحياة إلى أرض الأبدان البالية الجرز فيحييها ويخرج بذلك زرع الأعمال صالحة وطالحة يوم يقوم الحساب ، وهو يوم الفتح للذين آمنوا وإنهزام الذين كفروا .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٢٨ .

وما أحقهم حجة لتكذيب يوم الفتح أن يخبرهم المؤمنون به بمناه ، بعد ما ثبت أصله ومداه ! فهل يصح في قياسهم نكران الولادة للمواليد الذين لا يعلمون متى ولدوا ، أم نكران موتهم إذ لا يعلمون متى يموتون ؟ وآية صلة بين العلم بمتى يوم الفتح وتصديقه !

وقد يعم « يوم الفتح » يوم عذاب الاستئصال قبل الرجعة^(١) أم فيها ، حيث الإيمان عند رؤية البأس لم يكن ينفعهم : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون » (٨٥ : ٤٠) .

ولقد سمي إنتصار الحق بالفتح أياً كان وأيان : « فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين » (٥٢ : ٥) - « قال رب إن قومي كذبون . فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين . فأنجيناه ومن في الفلك المشحون . ثم أغرقنا الباقين » (١٢ : ٢٦) فقد نسمي غرق الباقين الباغين فتحاً كنجاة المؤمنين .

ثم الفتح ككل يعم الفتح العرفي والواقعي ، أنهم سوف يعلمون حق الله ، ويتلون بنكرانه حقه من ذي قبل ، حيث الفتح هو فصل القضاء الحاسم بين المتخاصمين .

﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ ٢٩ .

« قل » ماذا ينفعهم متاه وهم ليسوا ليؤمنوا به حتى متاه ، ثم « يوم الفتح » إذا وقع ، عرفوا متاه من ذي قبل أم لم يعرفوا « لا ينفع الذين كفروا إيمانهم » هناك « ولا هم يُنظرون » أن يقولوا آمنا ، وإذا أنظروا فلا يُنظرون عن عذابه .

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٣٣ عن تفسير القمي قال قال في الآية : هو مثل ضربه الله عز وجل في الرجعة والقائم (عليه السلام) فلما أخبرهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بخبر الرجعة قالوا متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ، فقال الله عز وجل « قل يوم الفتح ... » .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُتَعَبُونَ ﴾ ٣٠ .

« فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أن تواجههم بعد في حجاج ما دام كله لججاج بعد ان
نفضت يدك من أمرهم وإمرهم ، فدعهم لمصيرهم المنتظر ، يوم الفتح « إِنَّهُمْ
مُتَعَبُونَ » وأين انتظار من انتظار ، أنت تنتظر رحمة ربك وهم متعبون
عذابه ! .



مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

الفهرس

الموضوع	الصفحة
(سورة العنكبوت) افتتان المؤمنين في مختلف الظروف	١٧ - ١٠
﴿ .. جعل فتنة الناس كعذاب الله .. ﴾ ؟	٢٩ - ٢٥
لبث نوح الرسالي في قومه ؟	٣٦ - ٣٣
مثل العنكبوت وحياتها	٦٩ - ٦١
الصلاة كيف ﴿ تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾	٧٦ - ٦٩
كتابة النبي وتلاوته قبل القرآن وبعده	٨٣ - ٨٠
﴿ آيات بينات في صدور ... ﴾ ؟	٨٦ - ٨٣
﴿ .. قل انما الآيات عند الله .. ﴾ من براهين أن معجزات	
الرسالات هي - فقط - من فعل الله دون الرسل	٨٨ - ٨٦
القرآن بنفسه آية كافية عن كل الآيات - وهو شهادة الله على	
وحيه	٩٢ - ٨٨
واسعة ارض الله هي قاطعة الأعذار	٩٦ - ٩٣
ما هو ذوق الموت لكل نفس ؟	٩٨ - ٩٦
﴿ جاهدوا فينا .. ﴾ ؟ دون ﴿ في الله - أو - في سبيل الله ﴾ !	١٠٧ - ١٠٥
(سورة الروم) ﴿ غَلَبَ الروم في بضع سنين ﴾ ؟	١١٨ - ١١٣
لمحة إلى أوقات الفرائض	١٢٨ - ١٢٦
ما هو ﴿ المثل الأعلى .. ﴾ الله	١٤٦ - ١٤٢

قول فصل حول الفطرة وأحكامها	١٤٩ - ١٨٠
﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ؟	١٨٠ - ١٨١
﴿ فأت ذا القرنين ﴾ هو قرين الرسول ﷺ	١٨٥ - ١٨٩
ما هي ﴿ رباً ليربوا في أموال الناس ﴾ ؟	١٨٩ - ١٩١
﴿ ما لبثوا غير ساعة ﴾ !	٢٠٣ - ٢٠٤
(سورة لقمان) ما هو الحديث في قول فصل ؟	٢١٢ - ٢١٩
لقمان الحكيم في القرآن والسنة - شرط عدم احتمال الضرر في	
الامر والنهي غير وارد إلا	٢٢١ - ٢٣٨
﴿ .. ما نفدت كلمات الله .. ﴾ - لمحة إلى كروية الأرض ..	٢٤٧ - ٢٥١
هل العلم المخصوص بالله - فقط - خمسة ؟	٢٥٥ - ٢٦١
(سورة السجدة) هل العزائم اربع أم ؟	٢٦٧ - ٢٦٩
﴿ يوم كان مقداره الف سنة ﴾ ؟	٢٧٣ - ٢٧٥
كيف ﴿ احسن كل شيء خلقه ﴾ وهناك قباح ؟	٢٧٦ - ٢٧٨
شبهة الأكل والمأكول في حل فصل	٢٨١ - ٨٧٦
كيف يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ؟	٢٨٨ - ٢٩٠
ما هو العذاب الأدنى دون الأكبر ؟	٢٩٩ - ٣٠١
﴿ أئمة يهدون بأمرنا ﴾	٣٠١ - ٣٠٣

